الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ — ١٧٥١

١ — النشوة الفلسفية

لنبدأ بتحديد مصطلحاتنا . سوف نعنى بلفظة فيلسوف . كل إنسان يحاول أن يصل إلى آراء مسببة مقنعة عقلانية فى أى موضوع مهما يكن ، إذا نظر إليه فى أبعاده العريضة . وفى تحديد أكثر ، سنطلق هذا المصطلح فى الفصول التالية على أولئك الذى يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره ، والحياة أو الإنسان . ويجدر ألا نفهم الفلسفة على أنها ضد الدين أو أنها تتعارض معه ، وينبغى أن نفسح فى النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالا للدين . ولكن لما كان كثير من فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها ، فان لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوما معاديا للمسيحية(*) . وفى استعمالنا لهذا المصطلح الفرنسى فانه سيتضمن هذا المفهوم عادة . وسينطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبيرث وجريم وهلفشيوس ودى هولباخ فلاسفة ، ولكننا لن نعد روسو فليسوفا بهذا المعنى — على الرغم من أنه يجدر بنا أن نسميه فيلسوفا ، لأنه زودنا بحجة عقلانية دفاعا عن الوجدان والإيمان . كما ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله ، ومع ذلك ، مثل فولتير ،

(*) ذكر جويوم فرنسوا برتييه ، المحرر اليسوعى اللامع للجورنال دى تريفو ، فى عدد يولية ١٧٥٩ : « جرت العادة على أن نطلق لفظة فلاسفة على أولئك الذين يهاجمون العقيدة الدينية الموحى بها ، ويطلقون لفظة مضطهد على من يناضلون دفاعا عنها »(١)

يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله . إن الجدل الذى هاج مشاعر الطبقات المفكرة فى نصف القرن الذى سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة ، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكى المسيحى كما وجد فى فرنسا آنذاك ، إنه الغيظ المكظوم فى قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطخت به الديانة سجلها من الوقوف فى وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح . وبلغ رد الفعل أقصى مداه ، ولكن كذلك كان الاسفاف فى مذبحة سانت برتلميو (١٥٧٢) ومقتل هنرى الرابع (١٦١٠) واضطهاد الهيجونوت بعد الغاء مرسوم نانت (١٦٨٥) .

ولم يكن ثمة مثل هذا العدد الكبير من الفلاسفة قط من قبل ، وألمع هلفشيوس إلى « تذوق عصرنا للفلسفة وحبه لها » [٢] وكتب دالمبير :

أطلق قرننا على نفسه قرن الفلسفة بغير منازع . فمن أصول العلوم الدنيوية الدنسة إلى أسس الوحى ، ومن الميتافزيقا إلى مسائل الذوق ، ومن الموسيقى إلى الأخلاق ، ومن حقوق الأمراء والملوك إلى حقوق الشعوب . كل شئ كان موضع دراسة وتحليل ومثار نقاش وخلاف . وليس فينا من ينكر أن الفلسفة أحرزت بيننا تقدما . إن العلوم الطبيعية تقدم لنا فى كل يوم ذخرا جديدا ... واتخذت كل ميادين المعرفة تقريبا أشكالا جديدة [٣] .

وكان الفلاسفة الفرنسيون نتاجا جديدا . فكانوا قبل كل شئ واضحين ولم يكونوا جماعة منعزلة عن العالم تكسوهم المهابة والقداسة ، يتحدثون إلى أنفسهم أو إلى نظرائهم أحاديث غامضة لا يفهمها إلا فئة معينة من الناس . وكانوا أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والآراء فى الألفاظ . وولوا ظهورهم نحو الميتافيزيقا باعتبارها ضالة ميئوسا منها ، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غرورا كاذبا عريضا . ولم يكتبوا أبحاثا مطولة معقدة جهدوا فيها فى استنباط العالم من فكرة واحدة ، ولكنهم كتبوا نسبيا موضوعات قصيرة ، ومحاورات مسلية وقصصاً متبلة أحيانا ببعض الفحش ، وهجاء قتالا من فرط السخرية ، أو حكمة معبرة بطريقة بارعة توهم بالتناقض فى سطر يحطم تحطيما . وساق هؤلاء الفلاسفة حديثهم متناغما مع رجال الصالونات وسيداتها ، وفى كثير من الأحوال وجهوا كتبهم ومؤلفاتهم إلى شهيرات النساء ، وكان لزاما أن

تكون مثل هذه الكتب واضحة جلية يسهل إدراك مراميها ، وقد تضفى على الإلحاد سحرا وفتنة . ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة إجتماعية إنتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة . وأسهمت فى الصراع بين الدول ، وكانت جزءاً من الأنباء. ولما كانت كل أوربا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء ، فان مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى انجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا ، وأصبحت أحداثا فى دنيا أوربا . وفاخر فردريك الأكبر وكترين قيصرة روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة ، وربما لم يقلقهما تنبؤ الطبقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدتها وسلطانها وقوتها .

وكان لجوتنبرج أثره البارز : فان الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين ، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذى قبل ، ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة . ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيرا فى « الرجل العادى » كما عرفوه فى ذاك العصر ، ولكنهم وثقوا فى أن نشر « الحقيقة » قد يعمل على تحسين سلوك البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم . واعتبر دالمبر أن « فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة وهبة فى متناول البشر » (٤) ، وأصبح « التجاسر على المعرفة » شعارة الاستنارة الذى حققه عصر العقل وفاز به .

ذلك أن الإيمان بالعقل الذى آذن بانبلاج فجره فرنسيس بيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته — أى أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً فى عظمة وحى جديد ، وطالب بالسيادة والسيطرة فى كل مجال وميدان ، وعرض اصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والأقتصاد والحكومة بمفهومه المشرق . وأقر الفلاسفة بضعف العقل ، مثله فى ذلك مثل أى شئ بشرى ، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأى منطق فاسد أو تفسير خاطئ للخبرة . وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للارادة . إن هيوم الذى هيمن على عصر العقل هذا فى بريطانيا كان

أقوى ناقد واجهه العقل ، وربما باستثناء كانت . واعترف فولتير من آن لآخر بحدود العقل . واتفق ديدرو مع روسو فى أن الوجدان أساسى أكثر من العقل . واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريبا بأن غالبية الناس حتى فى أعظم الأمم حضارة ومدنية مرهقون بالحاجيات الإقتصادية والكدح فى سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل ، وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والحزازات أكثر من تأثرها بالعقل ، ومع هذا ظل الأمل معقودا على إنتشار العقل وإمكان تحريره من الأنانية الضيقة والتعاليم المغرضة .

وهكذا برغم فترات التشاوم التى مر بها الفلاسفة فقد سادت بينهم روح التفاؤل ، ولم يكن الناس قط من قبل واثقين بقدرتهم ، أن لم يكن على إعادة بناء أنفسهم ، فعلى الأقل على إعادة بناء المجتمع . وبرغم كوارث السنين السبع ، وفقدان كندا والهند واستيلاء إنجلترا عليهما ، فقد سيطرت على ذهن فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حماسة وحيوية بدا أنهما ستعيدان إلى فرنسا العجوز المتوجعة قوتها وشبابها من جديد . ولم يحدث قط منذ أيام السفسطائيين الإغريق أن انتشرت مثل هذه الآراء والأفكار الكثيرة ، أو ظهرت روح البحث والتحقيق والحوار والجدل المنعشة ، فلا عجب أن يحس ديكلوس حوله « بشئ من اختمار العقل يميل إلى التطور والنمو فى كل مكان » (٥) وبما أن باريس كانت آنذاك عاصمة الفكر فى أوربا ، فان حركة التنوير أصبحت حركة واسعة النطاق مثل حركة النهضة الأوربية وحركة الاصلاح الدينى ، والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة . وكانت النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكتشف الذهن الوثنى ، كما أن الاصلاح الدينى كان قد كسر قيود السيادة المذهبية ، وعلى الرغم منه تقريبا أطلق العنان لعمل العقل ، وباتت مقدمتا العصر الحديث هاتين تكمل الواحدة الأخرى ، وأصبح الآن فى مقدور الإنسان فى نهاية المطاف أن يحرر نفسه من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق . كما أصبح فى مقدوره أن يهز كتفيه استخفافا باللاهوت المربك المرعب ، وأن يقف على قدميه حرا طليقاً . حرا فى أن يشك ؛ وفى أن يحقق ويدقق . حرا فى أن يفكر

ويجمع ألوان المعرفة وينشرها . حرا فى أن يقيم دينا جديدا حول مذبح ا. قل لخدمة البشر ، وكان ثملا كريما شريفاً .

٢ — خلفية الثورة

ولكن كيف حدث كل هذا ؟ ولماذا انقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة فى فرنسا على المسيحية التى كانت فوق كل شىء قد مزجت الأمل بأهوالها ورعبها ، والصدقات بجرائمها ، والجمال بآثامها وخطاياها ؟

إن الثورة التى قام بها الربوبيون فى إنجلترا استطاعت أن تعبر عن نفسها مع تسامح نسبى حتى من جانب الكنيسة الرسمية ، وربما كان هذا هو السبب فى خمود لهيبها ، وفضلا عن ذلك كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة فلم تعد تزعم زعما فعالا أنها — أى الكنيسة — سلطة منافسة مستقلة . أما الكنيسة فى فرنسا فكانت هيئة قوية تملك نصيبا كبيرا من الثروة الوطنية وأرض الوطن ، وهى مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية . ويبدو أنها كانت تستنزف مزيدا من الثروة من أيدى العلمانيين إلى أيدى رجال الكنيسة عن طريق الوصية والتوريث ، كما رفضت أن تدفع أية ضرائب أكثر من « المنح أو الهبات الاختيارية » واحتفظت بآلاف الفلاحين فى أراضيها فى استرقاق فعلى ، واحتفظت بالرهبان فيما بدا أنه خمول عقيم . وكم أفادت الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة . وسيطرت على كل المدارس والجامعات تقريبا ، وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة المنافية للعقل ، واستنكرت ، على أنه هرطقة ، كل تعليم يتعارض مع تعليمها واستغلت الدولة فى فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة ، وبذلت الكنيسة غاية الجهد فى خنق التنمية الفكرية فى فرنسا . وحرضت لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الإنسانى . والتخريب الخالى من الرحمة لبورت رويال ، وارتكبت الكنيسة إثما فى الحملات الوحشية التى شنتها ضد الألبيجنسيين وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبحة سانت برثلميو ، وأشعلت نار الحروب الدينية التى دمرت فرنسا تقريبا . وفى وسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادعت الكنيسة ، وحملت

الملايين من ذوى العقول الساذجة على الإعتقاد بأنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة ، وأنها ورثت وحيا إلهيا ، وأنها ممثل الله على الأرض الملهم المعصوم من الخطأ . وأن جرائمها كانت ، بارادة الله مثل حسناتها .

وقدمت الكنيسة ردودا كثيرة على هذه الإتهامات . ولسوف نعرض لها فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه أثارت هذه الإتهامات المتزايدة حفيظة آلاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج ، وأخيرا إلى العداوة المريرة . وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعودوا يخشون رجال الدين وأحرجوهم علنا بالأسئلة العويصة . وحين دعا الأب تورنمين غير المؤمنين حوالى ١٧٣٠ إلى كلية « لويس الأكبر » ، يقال « إن غرفته اكتظت بالمفكرين الأحرار والربوبيين وأنصار المذهب المادى ، وما استطاع الأب الجليل أن يحول أحدا عن رأيه »[٦]. وجزع رجال الدين من كثرة عدد الفرنسيين والفرنسيات الذين فارقوا الحياة رافضين تناول الأسرار المقدسة للكنيسة . وهددت مدام دى برى بأن تأمر خدمها بالقاء راعى الكنيسة من النافذة حين ألح عليها فى قبول مسحها بالزيت المقدس[٧] . وشكا أحد القساوسة من أنه « فى اللحظة التى يظهرون فيها أمام الناس يجبرون على الدخول فى مناقشة ، فنحن مطلوب منا ، وعلى سبيل المثال ، أن نثبت فائدة الصلاة للإنسان الذى لا يؤمن بالله ، وضرورة الصيام لإنسان أنكر طوال حياته خلود النفس ، والمناقشة مزعجة إلى أقصى حد ، على حين أن أولئك الذين يسخرون ويهزأون يقفون إلى جانبنا »[٨] .

وذكر باربييه فى ١٧٥١ « قد نرى فى هذه البلاد ثورة تؤيد البروتستانتية[٩]» وكان مخطئا . فان طرد الهيجونوت لم يترك طريقاً وسطا بين الكاثوليكية وعدم الإيمان بصحة الكتب المقدسة . إن الفكر الفرنسى المتحرر تخطى الاصلاح الدينى وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوربية إلى عصر الاستنارة ، وهكذا فى فرنسا فان الذهن الفرنسى لم ينعطف بثورته نحو الجانسنيين أو إلى الفئة القليلة الباقية من البروتستانت ، بل انعطف إلى مونتانى وديكارت وجاسندى وبيل ومونتسكيو ، ولما رجع المفكرون الأحرار الفرنسيون إلى ديكارت رفضوا كل آرائه تقريبا اللهم إلا « شكه المنهجى »

وتفسيره الآلى للعالم الموضوعى . وكان بيل موضع إجلال وتقدير باعتباره أدق العقلانيين المتأملين ، فقد ولدت شكوكه مزيدا من آلاف الشكوك . وكان « قاموسه » معينا لا ينضب من الدروع التى يتسلح بها أعداء الكنيسة ضدها .

وكان ما حدث فى إنجلترا مثالا حافزا ملهما مشجعا للمفكرين الأحرار فى فرنسا . وبدا أولا أن دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الاستقرائى تبشر بثمار أكثر بكثير مما يبشر استنباط ديكارت السحرى لله والخلود من وجود ديكارت . ثم كانت مادية هوبز الفظة التى لم تكف قط عن إثارة ديدرو . وهناك أيضا نيوتن الذى بدا أنه هبط بالاله إلى مجرد ضاغط زرار فى آلة العالم ، ولم يكن الفرنسيون قد عرفوا بعد أن نيوتن أكثر إنتاجا فى اللاهوت منه فى العلوم . ولا ننس الربوبيين الإنجليز الذين أمدوا فولتير بالشجاعة والقوة الدافعة . وأخيراً جاء لوك ، لأن المتشككين الفرنسيين رأوا أن صرح الدين ينهار أمام القول بأن كل الأفكار مستمدة من الإحساس . وإذا كان الإحساس نتاج قوى خارجية فان الذهن نتاج الخبرة ، وليس هبة خالدة من لدن الله لا يراه أحد . وإذا كانت الخبرة تخلق الشخصية ، فان الشخصية يمكن تغييرها بتغيير طرق التعليم ومادته . وإصلاح النظم الاجتماعية ، ومن هاتين القضيتين خلص رجال مثل ديدور وهلفشيوس ودى هولباخ إلى نتائج ثورية . وتساءل فولتير مستحضرا لوك فى ذهنه « هل يمكن أن يكون ثمة شئ أعظم من أن تثير العالم بأسره سياسيا وإجتماعيا ببضع حجج ومناظرات » . [١٠] (مات فولتير قبل ١٧٨٩) .

واستمع مرة أخرى إلى ما كتبه المركيز دارجنسون اليقظ فى ١٧٥٣

« قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين فى فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التى لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف فى باريس ، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التى أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود »

ثم يضيف دارجنسون بعد التنبؤ بالثورة ، مما أسفنا ذكره :

ستكون الثورة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الاصلاح الدينى — وهو

خليط مشوش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا فى القرن السادس عشر . ولما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين ، فانهما سيسيران إلى حيث ينبغى لهما أن يسيرا : سيطردان رجال الدين ، ويلغيان مهنة القساوسة ، ويتخلصان من كل الرحى وكل الأسرار الغامضة .... فلا يتحدث المرء فى مصلحة رجال الدين ولا يساندهم فى دوائر المجتمع وإلا كان موضع سخرية واستهزاء ، واعتبر جاسوسا لمحاكم التفتيش . ويشير القساوسة إلى أنه فى هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث ، وهجر الناس الكلية اليسوعية ، وانسحب ١٢٠ راهبا من هؤلاء الرهبان الذين ساءت سمعتهم إلى حد كبير . (١١)

وكان ثمة تأثيرات فكرية أخرى أضعفت عقيدة العصور الوسطى الدينية . وانضم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب المحافظ (الأرثوذكسى) فى رفض سبينوزا ، لأن هذا اليهودى الكبير دمغ بأنه ملحد ، وكان من الخطر التحدث عنه دون إتهامه ، كما حرص هيوم وفولتير على أن يفعلا . ولكنهم كانوا يقرأون سبينوزا سرا ، وكانت « رسالته اللاهوتية السياسية » تثير نقد الأسفار المقدسة . وشرح كونت بولانفيليير سبينوزا بحجة تفنيده . إن هيوم الذى تأثر بفرنسا هو نفسه ، كان يؤثر فيها كذلك ، وكان البناؤن الأحرار (الماسونيون) يؤسسون لهم مراكز فى فرنسا ، حيث كانوا يمارسون سراً هرطقتهم الربوبية . وكانت الكشوف الجغرافية والتاريخ والدراسة المقارنة للأديان تضيف نارا إلى البوتقة التى تجرى فيها أختبار المسيحية بما لم يعهد له مثيل قط من قبل . وكان كل علم من العلوم فى نموه وتقدمه يزيد من درجة احترام العقل ، ومن الإيمان بقانون كونى ، ومن عدم الإيمان بالمعجزات ، وبالذات بأعظمها شيوعيا وانتشاراً ، ألا وهى تحويل خمسين ألف كاهن يوميا الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه .

وعملت القوى الإجتماعية على إنحلال العقيدة . وكان كل إزدياد فى الثروة يعجل فى التسابق على اللذة والمتعة ، كما كان يجعل القيود على الأخلاق المسيحية أكثر إزعاجا يوما بعد يوم ، فى باريس التى احتفظ فيها أكثر الملوك مسيحية بمجموعة من الخليلات ، والتى إحتلت فيها مدام دى بمبادور مكان السيدة

مريم العذراء . بل أن الانحلال الخلقي في ذاك العصر تحول إلى إتهام للمسيحية، فكيف يتأتى ، بعد سبعة عشر قرنا من سيطرة المسيحية ، ألا تكون أخلاق أوربا أحسن حالا من متوحشي أمريكا أو « الوثنيين في الصين ؟ » .

وكانت كل طبقة ، عدا الفلاحين ، تضم أقلية متشككة . واستاءت البيروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعفائها من الضرائب . والرباط الوثيق القديم بين الكنيسة و « ساعدها » الدنيوى العلماني وهو الدولة » بدأت تنفصم عراه . وكان هناك مفكرون أحرار . مثل مالشرب في مصلحة الرقابة . وكان يحمي بكل قواه ديدرو ودائرة المعارف . وأوثق صلة بالملك كانت مدام دى بمبادور التي كانت تكره اليسوعيين ، والتي اعتبرها فولتير (واحدا منا) . ورأت الأرستقراطية في الكنيسة دعما لمركز أسرة البوربون التي كانت قد أطاحت بحكم هذه الأرستقراطية ؛ ومن ثم لم تكن هذه الطبقة تعارض أضعاف رجال الدين . بل اتخذ هلل كثير من النبلاء وسموا بامتهان فولتير وعدم توقيره للكنيسة والنيل منها ، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى العليا ارتياحهم ورضاهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين . لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيسة استنكار الفائدة (الربا) وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال . فلو أن هؤلاء الأساقفة المتعجرفين أذيقوا المذلة والهوان لصعدت البرجوازية إلى مراقي الشهرة والهيبة والسلطان ومن ثم فان رجال المال ، من أمثال بويلنيير وهلفشيوس ودى هولباخ فتحوا أبوابهم وخزائنهم ، بل حتى في بعض الحالات قاوبهم ، للحرب ضد الكنيسة . وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم ، وكم تطلعوا إلى اليوم الذي يحكمون فيه الدولة . كما كانوا بالفعل يحكمون البرلمانات . وذهب أحد تقارير الشرطة في ١٧٤٧ إلى أنه لا يكاد يوجد موظف في برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط مناف للدين في بيته[١٢] . وعجت مقاهي باريس بالالحاد . وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه « السيد وجود » وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين إنتشارا واسعا حتى في الأقاليم ، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير ، ومن باب إلى باب ، منشورات عنوانها « أشهر الدجالين

الثلاثة »(*)، ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الديني ، بل هنا وهناك في كل مكان ، عدوى الالحاد الصريح غير المقنع ؟ وإليك على سبيل المثال .

٣ — جان مسلييه : ١٦٧٨ — ١٧٣٣

كان جان راعي أبرشية أتربيني في شمبانيا . وكان في كل عام يمنح الفقراء كل ما يتبقى من راتبه بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير . وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية في وظيفة الراعي ، قضى نحبه وهو في الخامسة والخمسين ، موصيا بكل ما يملك لأهالي الأبرشية ، تاركا ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها « عهدي الجديد » وجهت إحداها إلى شعب الأبرشية : توسل فيها إليهم على المظروف الذي وضعت فيه المخطوطة ، أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم . وواضح أنه فقد الإيمان بالدين قبل أن يرسموه كاهنا » إنني لم أتقلد عملا يتعارض مع مشاعري بشكل صريح طمعا في المال ، بل أني امتثلت في هذا لأبوي [١٣] ونشر فولتير أجزاء من « العهد الجديد » ١٧٦٢ وأصدر ديدرو ودي هولباخ خلاصة له في ١٧٧٢ تحت عنوان « رجاحة عقل الكاهن مسلييه » ولم يطبع النص الكامل حتى ١٨٦١ — ١٨٦٤ ونفدت طبعته منذ عهد بعيد . ويندر الحصول عليه . وفي كل الحملة ضد المسيحية من بيل إلى الثورة ، لم يوجد هجوم متطرف قاس لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية هذا . ويبدو أنه بدأ شكوكه بدراسة الكتاب المقدس . وأظهرت نتيجة هذه الدراسة أن الكنيسة كانت حكيمة إلى حد ما في إبعاد الكتاب المقدس عن العامة . وكان يجدر بها أن تحتفظ به بعيداً عن متناول رجال الدين أيضاً . ووجد الأب يوحنا صعوبات كثيرة في الكتاب المقدس . لماذا اختلف نسب السيد المسيح في إنجيل متى إختلافا كبيراً عنه في إنجيل لوقا ، إذا كان كلاهما

(*) المخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس (وهو بهذا يقصد الأنبياء ، مما لا تقره عليه) .

منزلا من عند الله ؟ لماذا لم تنته سلسلتا النسب هاتان بيوسف إذا كان سيعفى سريعا من انحاب يسوع ، لماذا يمتدح ابن الله بأنه ابن داود الذى كان زانيا بكل معنى الكلمة ؟ وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح ، أم أن هذه التطبيقات مجرد شطحات للقوة اللاهوتية ؟ وهل كانت معجزات العهد الجديد حيلا أو خداعات ورعة ، أم كانت عمليات طبيعية أسئ فهمها ؟ وهل نصدق هذه الحكايات أم نتبع العقل ؟ وصوت جان إلى جانب العقل وأيده :

« لن أضحى بعقلى ، لأن عقلى وحده يمكننى من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والضلال ... لن أتخلى عن الخبرة لأنها مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال ، أو من سلطان المرشدين الذين أرادوا أن يزودونى به . لن أرتاب فى حواسى . ولست أتجاهل أنها يمكن أحيانا أن تؤدى بى إلى الخطأ . ولكنى من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللنى دائما ... إن حواسى تكفى لتصحيح الأحكام والقرارات المتسرعة التى ملت إلى إتخاذها (١٤) .

ولم يجد جان فى العقل مسوغا للإيمان بالإرادة الحرة أو خلود النفس . ورأى أنه « يجدر بنا أن نكون شاكرين أن تهيأ لنا جميعا نوم أبدى بعد نصب وصخب الحياة الدنيا التى تسبب المشقة أكثر مما تسبب اللذه لغالبيتنا ... عودوا جميعا فى سلام إلى المستقر العام الشامل الذى جئتم منه ، ومروا دون ضجة أو تذمر مثل كل الكائنات التى حولكم » . (١٥) وعلى أولئك الذين دافعوا عن فكرة الجنة ، من قبيل العزاء ، أجاب « بأن أقلية ضئيلة . على زعمها ، حققت هذا الهدف ، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم . فكيف إذن يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء ؟ إن العقيدة التى تخلصنى من المخاوف الرهيبة ... تبدو مرغوبا فيها أكثر من الشك الذى تركنى مؤمنا بالله يتحكم فى عطفه فلا يمنحه إلا لذوى الحظوة لديه ، ويهيئ للآخرين السبيل ليكونوا جديرين بالعذاب الأبدى ، كيف يمكن لأى إنسان متحضر أن يؤمن بالله يحكم على المخلوقات بالخلود فى الجحيم . ؟ »

هل هناك فى الطبيعة إنسان بلغ من القسوة حداً يتعمد فيه تعذيب ، لا أقول رفاقه من الكائنات . بل أى كائن واع حساس أياً كان ؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبقاً لمبادئكم ، شرير أكثر بكثير من أى شرير من بنى الإنسان . إن القساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائنا خبيثا ماكراً صارماً إلى حد أن فئة قليلة فى هذه الدنيا هى التى لا تود إلا أن يكون الإله موجوداً .. وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله . (١٦)

ورأى فولتير فى هذا شيئاً من التطرف ، وبذل أقصى الجهد عند نشره « العهد الجديد » (الذى ألفه جان) فى أن يلطف من الحاد الكاهن بالربوبيه ، ولكن مسلييه كان عنيدا متشددا . واستطرد قائلا أن اله المسيحية هو منشئ كل الشرور ، لأنه حيث أنه قادر على كل شئ يتم دون رضاه وموافقته ، فاذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا الموت . وإذا وهبنا الصحة والثروة ، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب . (١٧) إن فى العالم دلائل كثيرة على تصميم بارع ، ولكن هلا توجد فيه علامات كثيرة بنفس القدر على أن العناية الإلهية ، إن وجدت ، قادرة على إيقاع أشد أذى شيطانى؟

إن كل الكتب زاخرة بأشد المديح والثناء رياء ونفاقا على العناية الإلهية التى أفرطوا فى الثناء على رقابتها اليقظة . ومهما يكن من أمر فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر على السواء فى صراع دائم مع العناية الإلهية . فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التى تنزلها به فى صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجدب وغيرها من مختلف النازلات التى تجعل كد الإنسان وجده غير ذى جدوى . وفى إيجاز أرى أن البشر جميعا مشغولون باستمرار فى حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التى تدبرها هذه العناية الإلهية التى يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم . (١٨)

وفوق كل شئ هل وجد إله أغرب وأبعد عن التصديق من هذا ؟ إنه لآلاف السنين ظل مختفياً عن أعين البشر ، واستمع دون استجابة واضحة بريئة

لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه . والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة ، ولكن ملكه يسوده الخلل والاضطراب والخراب . والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب كما يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية . والمفروض أنه عادل وهو يهيئ للأشرار سبل الرخاء والإزدهار ، على حين يتعذب القديسون حتى الموت . إنه منهمك دائماً فى الخلق والتدمير [١٩] .

وبدلا من الإعتقاد مثل فولتير بأن الإيمان بالله أمر طبيعى عام ، أكد مسلييه أن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعى ، وأنه يجب أن يصب فى أذهان المراهقين أن :

> كل الأطفال ملحدون — ليس لديهم فكرة عن الإله ... ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون . إن مربياتنا هن أول معلمى اللاهوت . إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدثن عن آدميين تحولوا إلى ذئاب ... إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلها لولا ما يبذل من جهد فى أن يجعلوا لهم إلها .[٢٠]

وعلى حين أعلن معظم الملحدين عن إعجابهم بيسوع ، نرى مسلييه يشمل السيد المسيح نفسه فى هدمه الغاضب الانفعالى للعقيدة الدينية . وقبل كل شئ . أى رجل عاقل يصدق أن الله ، لكى يسترضى البشر ويستميلهم .. يمكن أن يضحى بأبنه البرىء الذى لم يرتكب إثما ؟ [٢١] أما عن يسوع نفسه فيقول : —

> إننا نرى فيه ... متعصبا مبغضا للبشر ، يعظ البائسين فينصحهم بأن يكونوا فقراء . ويكافحوا الطبيعة ويجمدوها ، ويكرهوا اللذة ويلتمسوا الآلام والشقاء ، ويحتقروا أنفسهم ، ويطلب إليهم أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أواصر الحياة ليتبعوه . أية أخلاق كريمة ! ... لابد أن تكون سماوية لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان[٢٢]

وينتقل مسلييه إلى مادية كاملة : وليس من الضرورى أن نذهب إلى ما وراء المادة لنسأل عمن خلقها . ويمكن أن يتخلف لغز المنشأ خطوة إلى الوراء ليفسح مجالا للسؤال الطبيعى للطفل : « من الذى خلق الله ؟ » وأنا

أقول لكم أن المادة تعمل من نفسها بنفسها ... واتركوا لرجال اللاهوت علتهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج التى تراها [٢٣] وإذا كان لزاما أن تعبدوا أحداً ، فاعبدوا الشمس ، كما تفعل شعوب كثيرة ، فإن الشمس هى الخالق الحقيقى لحياتنا وللصحة والضوء والدفء والبهجة والسرور . ولكن واحسرتاه ! ويأسف مسلييه ، لو أن الدين كان واضحا لكان أقل جاذبية وفتنة لدى الجهال ... إن هؤلاء بحاجة إلى الغموض والأسرار والخرافات والمعجزات والأشياء التى لا يمكن تصديقها [٢٤] .... إن الساوسة والمشرعين ، بابتداع الأديان وإختلاق الأسرار ... قد أرضوا أذواق الجهال ، إنهم بهذه الطريقة يجتذبون المتحمسين والنساء والأميين . [٢٥]

وصفوة القول ، فى رأى مسلييه ، أن الدين كان جزءاً من مؤامرة بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للتحكم المطلق [٢٦] . إن الكهنة « حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا إلههم مرعبا متقلبا طاغية كثير النزوات والأهواء . وكان لزاما أن يكون كذلك من أجلهم حتى يكون فى خدمة مصالحهم المتنوعة » [٢٧] وتقع تبعة هذه المؤامرة على رؤوس رجال الدين أكثر منها على الملوك ، لأنهم يسيطرون على الأمير منذ طفولته ، عن طريق كاهن الاعتراف ، ويلقنونه الخرافات ، ويشوهون عقله ويعوقون نموه ويقودونه إلى التعصب الدينى والاضطهاد الوحشى [٢٨] وبهذا :

> زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى الثورات ودمرت الملوك وخربت أوربا بأسرها ، ولم يكن من الميسور إخماد هذه النزاعات الحقيرة حتى فى أنهار من الدماء . إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو المتوحشين ، فى كل مرة يستثيرهم فيها معلموهم إلى تحطيم إخوتهم ، وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس فى سبيل إرضاء الرب أو تسكين سورة غضبه [٢٩] ... أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا يوجد إلا فى خيالهم وحدهم [٣٠]

إنهم يدافعون عن هذه المؤامرة الضخمة المستمرة بذاتها من جانب الكنيسة والدولة ضد الإنسان والعقل على أساس أن ديانة خارقة للطبيعة ، بل قل ديانة إرهاب ، أمر لا غنى عنه فى مهمة بناء الفرد والأخلاق .

ولكن هل حقاً أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة ، وهل الأمم التى يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد والخلق القويم ؟ (٣١) ويكفى لنتحرر من الوهم أن نفتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكا بالدين ونفكر فيها مليا ، وسنرى طغاة متعجرفين ، ورجال البلاط ، ومغتصبين لا حصر لهم ، وحكاما لا ضمائر لهم ، ودجالين وزانين وفاسقين وأباحيين فجرة ، وعاهرات ولصوصا ، وأوغاداً من كل صنف ، لم يشكوا لحظة فى وجود إله محب للإنتقام ، أو لم يشكوا فى عذاب الجحيم أو جنة النعيم (٣٢) .

كلا ، إن الأفكار اللاهوتية ، على الرغم من اعتراف كل الناس تقريبا بها ، فإن تأثيرها على سلوكهم ضعيف ، فالإله بعيد كل البعد ولكن الإغراء قريب « من ذا الذى ترهبه وتخيفه فكرة الإله ؟ نفر قليل من الضعاف البائسين المتبرمين بالحياة ، وبعض أفراد انطفأت فيهم بذرة العواطف والشهوات بحكم السن أو العجز والوهن أو تعثر الحظ . (٣٣) إن الدولة ، لا الكنيسة ، هى التى تخلق النظام وتعود المواطنين على طاعة القوانين » إن القيود والضوابط الإجتماعية أقوى من الدين فى تقويم سلوك الناس (٣٤) وأحسن العلاقات ، مع تعاقب الأيام ، هى تلك التى تؤسس على العقل والذكاء .

ولكى يتبين الناس مبادىء الأخلاق القويمة فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحى أو الآلهة . إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة وحسن الإدراك ، إنهم ينبغى عليهم أن يتفكروا فى أنفسهم ويتأملوا طبيعتهم ، ويتدبروا مصالحهم الواضحة ، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع وهدف كل عضو فيه ، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات . والناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة ، وهم جهلة لأن كل شىء يتآمر على

الحيلولة بينهم وبين الاستنارة . وهم أشرار لمجرد أن عقلهم لم ينم ولم يتطور بعد بدرجة كافية : (٣٥)

ويستطيع الفلاسفة أن يبنوا أخلاقا طبيعية فعالة ، لو لم يكرهوا على معتقد تقليدى ؛ اتقى خشية الكهنة الأقوياء المتسلطين :

إن اللاهوت منذ أقدم العصور هو الذى حدد مسار الفلسفة وبم ساعدها اللاهوت ؟ إنه حولها إلى رطانة غير مفهومة ... ذات ألفاظ لا معنى لها ، أكثر ملاءمة للتعمية منها للتنوير ... كيف اضطر ديكارت ومالبرانش وليبنتز وكثيرون غيرهم لإبتداع فرضيات ومراوغات ليوفقوا بين كشوفهم وبين الأفكار الخيالية والأخطاء الفاضحة التى أضفى عليها الدين صفة القداسة ! وأية احتياطيات لم يلجأ إليها أعظم الفلاسفة لحماية أنفسهم . حتى إلى حد المغامرة بوصفهم بالطيش والحمق ، وبأن كلامهم غير مفهوم إذا تعارضت أفكارهم مع مبادىء اللاهوت ! وكان القساوسة اليقظون على أتم استعداد لهدم المبادىء والآراء التى يتعذر التوفيق بينها وبين مصالحهم . وكل ما استطاع الأفراد المستنيرون أن يفعلوه هو أن يتحدثوا ويكتبوا فى معان خبيئة وغالبا مطاوعة موصومة بالجبن ، حتى يوفقوا بين الباطل والحق توفيقاً مخزيا . كيف أمكن أن يدعى الفلاسفة والحديثون ، تحت التهديد بأقسى الإضطهاد والتعذيب ، إلى نبذ العقل والخضوع للعقيدة — أى لسيادة رجال الدين وسيطرتهم — وكيف يتأتى لأناس مكبلين بمثل هذه القيود والأغلال أن يطلقوا العنان لعبقريتهم ومواهبهم ... أو يعجلوا بتقدم الإنسانية (٣٦) ؟

وكان لدى بعض الفلاسفة من الشجاعة ما استطاعوا معه أن يتقبلوا الخبرة والعقل هاديا ومرشدا لهم ، ويحطموا أغلال الخرافة — لوسيبوس وديموقريطس وإبيقور وسترابو — ولكن مناهجهم كانت بسيطة معقولة مجردة من الأعاجيب والمعجزات من أجل عشاق الخيال حتى اضطرت إلى الاستسلام لأحداس أفلاطون وسقراط وزينون الخرافية . ومن بين الفلاسفة الحديثين اتبع هوبز وسبينوزا وبيل وغيرهم نهج ابيقور (٣٧) .

ورثى مسلييه لما منيت به البشرية من خسارة نتيجة لسيطرة اللاهوت

على الفلسفة . ودافع عن حرية الفكر حقاً أساسياً ، يمكنه وحده أن يحقق للناس معنى الإنسانية وعظمة النفس [٣٨] .

إنهم باظهارهم الحقيقة وحدها يمكنهم أن يدركوا أفضل مصالحهم ، والعوامل الحقيقية التي تؤدي بهم إلى السعادة . لقد طال العهد بمعلمي الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء ، فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض . لقد تعب الذهن البشري من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة ، والأسرار العويصة والطقوس الصبيانية . فلينشغل هذا الذهن البشري بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف والأشياء الواضحة والحقائق المعقولة والمعرفة النافعة . [٣٩]

فليطلقوا حرية الكلام والفكر والصحافة والطباعة وليكن التعليم علمانيا غير مقيد . إذن لأسرع الناس الخطى يوما بعد يوم إلى اليوتوبيا (المثالية). إن النظام الاجتماعي الراهن جائر، أنه يهيئ لأقلية ضئيلة الثراء الخامل وينشر فيها الفساد نتيجة للترف والبذخ ، على حساب الإبقاء على الملايين في فقر مذل وجهل مخز . ونظام الملكية هو أس البلاء ، فالتملك لصوصية ، وقد كيفوا التعليم والدين والقانون لحماية هذه اللصوصية وإجازتها ، [٤٠] وان ثورة للقضاء على مؤامرة الأقلية ضد الأغلبية لها ما يبررها كل التبرير . وصاح مسلييه في غضبته الأخيرة « أين جاك كليمنت (قاتل هنري الثالث) ورافاياك (قاتل هنري الرابع) في فرنسا ؟ هل بقي على قيد الحياة في أيامنا هذه رجال يطيحون برووس هؤلاء الجبابرة البشعين المنحرفين أعداء الجنس البشري . وبهذا يخلصون الناس من الطغيان [٤١] ؟ فلنوزع الأمة الملكية توزيعا عادلا ، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب . وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم ، وليتزوج الرجال والنساء وليفترقوا متى شاءوا . ولينشأ أطفالهم معاً في مدارس مشتركة . وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع في الأسرة ونهاية لحرب الطبقات والفقر . وهنا تكون المسيحية في النهاية حقيقية صادقة[٤٢] .

وبعد أن ذكر جان مسلييه كل ما أسلفنا ، ختم إنجيله أو عهده الجديد بعبارة يتحدى فيها ، كما أدرك هو ، كل الذين يمقتونه ويصبون عليه اللعنات :

دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا مايريدون ... لن أعبأ بهم كثيراً ... بل إنى اليوم لم أعد أعبأ كثيرا بما يحدث فى العالم . إن الأموات الذين أوشك أن ألحق بهم قريبا ، لا يعانون الآن شيئاً ولم يعودوا يزعجون أنفسهم . ومن ثم فأنا أضع نهاية لكل هذا . أنا الآن أشبه شئ بالعدم ، وبعد قليل سأصبح لا شئ حقاً (٤٣) .

هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا فى تاريخ البشرية جمعاء ؟ تصور الكاهن المنعزل مجردا من كل عقيدة ومن كل أمل ، وهو يعيش منسيا لا ذكر له فى قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعبا ورهبا ، إلا نفسه هو ، لمجرد الاطلاع على أفكاره الخفية . ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا لمخطوطته . وهناك ، ودون إكتراث ودون معرفة واسعة بطبيعة الإنسان ، صب كل غيظه واستيائه فى صراحة بالغة معادية للدين غاية العداء مما لم يعهده حتى عصره نفسه . وهنا كانت حملة فولتير ضد « المنبوذين » وكل مادية لامترى وكل الحاد دى هولباخ ، وكل خيال ديدرو الجامح المدمر ، بل شيوعية بابيف أيضاً . واصدر فولتير « عهد » جان مسلييه بعد تردد ، ونشره دى هولباخ فرحا مغتبطا ، ومن ثم اختمر فى ذهن فرنسا وأسهم فى التمهيد لسقوط النظام القديم . ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية .

٤ — هل الإنسان آلة ؟

إن جوليان أجوفروى دى لامترى رد على هذا السؤال بالإيجاب . ولد فى سان مالو ١٧٠٩ لتاجر ميسور ، وتلقى تعليما واسعا واعتزم أن يكون شاعرا . وحبذ والده الوظيفة الكنسية باعتبارها أقل خطرا ، فأرسله إلى إحدى الكليات فى بليسيس حيث شب الولد جانسنيا متحمسا . ولكن طبيبا صديقاً للوالد رأى (هكذا يقول فردريك الأكبر) أن طبيبا عاديا يمكن أن يحصل من علاج المرضى على أكثر مما يحصل عليه القسيس الفاضل من عمليات الغفران . (٤٤) ومن ثم حول جوليان إهتمامه إلى التشريح والطب وحصل على درجة فى الطب من ريمس ، وتتلمذ على بورهاف فى ليدن ، وكتب عدة أبحاث طبية ، وعمل جراحا فى الجيش الفرنسى ، ورأى واحداً

فى المائة من المجد والعظمة وتسعة وتسعين فى المائة من حالات الإسهال (٤٥) فى ساحتى القتال فى دتنجن وفونتنوى ، ولزم هو نفسه الفراش أثر حمى شديدة ، فلما شفى زعم أن صفاء ذهنه أو موضوع تفكيره كان يختلف باختلاف درجة الحمى . ومن ثم خلص إلى أن التفكير وظيفة المخ ، ونشر هذا كله وما يرتبط به من آراء ١٧٤٥ تحت عنوان « التاريخ الطبيعى للنفس » .

وسار البحث على هذا المنوال : « نحن لا نعرف ما هى النفس . ولا نعرف ما هى المادة ، ولكنا نعرف على أية حال أنه لا توجد نفس بلا جسد : ولدراسة النفس تجب دراسة الجسم ، ولدراسة الجسم ينبغى أن نبحث فى قوانين المادة . إن المادة ليست مجرد امتداد ، إنها أيضاً قدرة على الحركة ، وهى تشتمل على مصدر فعال يتخذ مزيدا من الأشكال فى مختلف الأجسام ، ولسنا نعرف أن للمادة فى ذاتها قوة الإحساس ، ولكنا نشهد دليلا على تلك القوة حتى فى أحط الحيوانات . وإنه لأكثر إتفاقا مع المنطق أن نعتقد بأن هذه الحساسية تطور من إمكانية من أصل واحد فى المادة ، من أن تعزوها إلى نفس خفية صبت فى الأجسام عن طريق قوة خارقة للطبيعة . وعلى هذا فإن هذا المصدر الفعال « فى المادة يتطور فى النبات والحيوان حتى إذا كان فى الإنسان مكنه من أن يدق قلبه ، ومن أن تهضم معدته ومن أن يفكر مخه . وهذا هو التاريخ الطبيعى للنفس . » —

وارتعدت فرائص القسيس فى كتيبه لامترى فزعا لهذه النتيجة ، وصاح منذراً متوعداً ، وفصل الطبيب الفليسوف من وظيفة الجراح فى الجيش ، وكان يمكن أن يهب زملاؤه الأطباء لنجدته ، لولا أنه كان قد كتب فى نفس الوقت تقريبا كتابا صغيرا تحت عنوان « سياسة الأطباء » يهجو فيه دسائسهم فى تنافسهم على الوظائف التى تدر مالا وفيرا . وانضموا إلى مهاجمته واستنكار آرائه . ورأى أن عمله فى الطب قد انهار كما انهارت شهرته ، ففر إلى ليون ، وهناك شن هجوما آخر على مهنة الطب وتحول إلى الفلسفة .

وهكذا أصدر لامترى فى ليون كتاب (الإنسان الآلة) وهو يقصد بالآلة هنا جسما ترجع كل أفعاله إلى أسباب وعمليات بدنية أو [illegible] ـائية . أما

جسم الحيوان آلة فيتضح له من مائة ظاهرة : فإن جسم الحيوان يظل ينبض ويرتجف ، وأن أمعاءه تظل تتمعج (التمعج موجات متعاقبة من تقلص لا إدارى تحدث فى جدران الأمعاء فتدفع محتوياتها إلى الأمام) لبعض الوقت بعد الموت . وتنبض العضلات التى تفصل عن الجسم إذا نبهت وهكذا . فالحيوانات عندئذ آلات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم لا يكون الإنسان ، وعظامه وعضلاته وأوتاره وأعصابه قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحيوانات العليا ؟ وواضح أن الذهن يعتمد على العمليات الفيزيائية الكيمائية فى الجسم والأفيون والقهوة والخمر ومختلف العقاقير لا تؤثر فى الجسم وحده . بل إنها يمكن أن تغير مجرى التفكير وطبيعته ، ومزاج الإرادة وقوتها . إنك إذا غيرت بعض الأنسجة فى مخ فونتينيل لجعلت منه شخصاً أحمق أبله (٤٦) ، إن مرض الجسم يمكن أن يضعف الذهن . إن النفس تكتسب حيوية ونشاطاً بالجسم ، وتكتسب حدة وذكاء كلما قوى الجسم (٤٧) ، والغذاء يؤثر فى الخلق . وعلى هذا فان « الانجليز الذين يأكلون اللحم أحمر مشويا بالدم ، غير مطهو طهيا جيدا مثل لحومنا ، يبدو أنهم يشتركون بشكل أو بآخر فى الوحشية تبعاً لهذا اللون من الطعام (٤٨) فهل ندهش إذن إذا وعى الفلاسفة دائماً فى أذهانهم صحة الجسم حفاظا على صحة النفس ؟ » ، وأن « فيثاغورس وضع قواعد للتغذية كما حرص أفلاطون على تحريم الخمر ؟ » (٤٩) ويخلص لامترى إلى أنه :

> حيث أن كل قدرات النفس تعتمد إلى مثل هذا الحد على التنظيم السليم للمخ وكل أجزاء الجسم ... فمن الواضح أن هذه القدرات ليست إلا هذا التنظيم نفسه . وواضح أن النفس آلة مستنيرة ... فالنفس لذلك لفظة جوفاء ، ليس لدى أى إنسان فكرة عنها ، ويجدر أن يستخدمها الإنسان المستنير لتعنى فقط ذلك الجزء الذى يفكر فينا (٥٠) .

وفى كتاب « الإنسان نبات » (١٧٤٨) توسع لامترى فى « سلسلة الوجود» الكبيرة إلى نظرية للتطور . وفقد بعض ثقته حين حاول تخطى الهوة الواضحة بين اللاعضوى والعضوى ، وفجأة نسى الآلية (المذهب الآلى) وانزلق إلى

المذهب الحيوى : افترض بذورا معينة مكنت المادة من أن تسبب الحياة [٥١] ووجد من السهل عليه بعد ذلك أن يتبع اوكريتس « لابد أن الأجيال الأولى كانت ناقصة غير تامة ... وما كان ممكن أن يكون الكمال عمل يوم واحد فى الطبيعة ، ولا فى الفن » [٥٢] . وليضيق الهوة بين الحيوان والإنسان يحاول لامترى ، على النقيض من ديكارث ، أن يبرهن على أن بعض الحيوانات تفكر : —

لننظر إلى القرد والسمور (حيوان ذو فراء ثمين) والفيل وغيرها فى تصرفاتها . وواضح أن هذه الأنشطة لا يمكن تأديتها دون ذكاء . ولم ننكر الذكاء على هذه الحيوانات ؟ وإذا وهبتهم نفسا فقد ضيعت . ومن ذا الذى لا يرى أن روح الحيوان يجب أن تكون فانية أو باقية ، من أى النوعين نفس الإنسان ؟ [٥٣] .

وليس ثمة فرق كبير بين أبسط إنسان وأذكى حيوان « فالبلهاء » أو المعتوهون .... حيوانات لها وجوه بشرية . كما أن القرد الذكى إنسان صغير ذو شكل آخر [٥٤] ويستطرد لامترى فيقول فى دعابته المألوفة أن كل مملكة الإنسان ليست إلا مركبات من قردة مختلفة ، ووضع البابا نيوتن على رأسها [٥٥] ولم يعد الإنسان يكون قردا إلا عندما اخترع أصواتا معينة لتكون تعبيرا مناسبا عن أفكار بعينها . وأصبح إنسانا بفضل اللغة [٥٦] .

وهل أقر لامترى بوجود إله « محركا أول » لآلة العالم ؟ وكأن فولتير وديدور قد دافعا عن هذه الحجة من الحاجة إلى وجود نظام للكون . ورفضها لامترى فى احتقار :

إن كل تفكير يقوم على العلل أو الأسباب النهائية تفكير طائش ، إن الطبيعة تمهد الطريق للسيد البرجوازى ليتحدث نثرا دون أن يعرفه . إن الطبيعة عمياء حين تهب الحياة ، قدر ما هى بريئة حين تدمرها . وكما أنها دون نظر خلقت عينين تبصران ، فإنها كذلك صنعت دون تفكير ، آلة تفكر [٥٧] .

ولم يكن لامترى ملحداً صريحاً . إنه تظاهر بالميل إلى نبذ موضوع الإله

على أنه غير هام « فليس يهمنا من أجل راحة البال ، إذا كانت المادة أبدية أو أنها خلقت ، أو أنه يوجد أو لا يوجد إله » . (٥٨) ولكنه نقل ربما عن صديق وهمى « إن العالم لن يكون سعيداً مطلقاً إلا إذا كان ملحداً » ، فعند ذاك لا تكون ثمة مزيد من خلافات لاهوتية ولا اضطهادات من جانب الكنيسة ولا مزيد من الحروب الدينية ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن غرائزه الطبيعية دون شعور بالإثم (٥٩) وقنع لامترى بالنسبة لشخصه بالمادية (المذهب المادى) واختتم كتابه « الإنسان آلة » بعبارة جريئة متحدية : « هذا هو منهجى — بل هو الحق ، إلا إذا كنت قد ضللت كثيراً . إنه موجز بسيط . ناقشوه الآن إذا أردتم » . (٦٠) ويحتمل أنه من قبيل الدعابة أهدى لامترى بيانه « اللاأدرى » (الغنوصى) إلى الشاعر المتدين الورع والعالم الفسيولوجى البرخت فون هوللر الذى رفض الإهداء فزعا جزوعا فى خطاب إلى « صحيفة العلماء » عدد مايو ١٧٤٩ .

> إن المؤلف المجهول لكتاب « الإنسان آلة » أهدى إلى كتابه الخطر بقدر ما هو شاذ غير مألوف ، وإنى لأشعر بأنى مدين بالفضل لله وللدين ولنفسى ، إذ أدلى بهذا التصريح ... إنى أعلن هنا أن الكتاب الذى نحن بصدده لا يلتئم مع مشاعرى ، وأعتبر أن فى إهدائه إلى شخصى إساءة بالغة تفوق فى قساوتها كل إساءة وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من أفاضل الناس . وأرجو أن يتأكد الجمهور أنى لا علاقة لى بهذا المؤلف ... وأنى لا أعرفه ... وأنه يجدر بى أن أعتبر أى توافق بيننا فى الآراء أعظم كارثة محققة يمكن أن تنزل بى (٦١) .

واستمر لامترى يطبع الإهداء فى الطبعات اللاحقة من هذا الكتاب .

وتناول الناس « الإنسان آلة » بالنقد والتمحيص على نطاق واسع ، واجمعوا على دحضه وتفنيده . وكان من اليسير نقد الأسلوب المضطرب فى هذا المجلد الصغير وشجب الثقة بالنفس وتبيان مواضع مجانبة الحقيقة . ولم يكن واضحا على الإطلاق أن النفس والجسم يغلبهما النعاس معاً (٦٢) وبعض الكتاب أكثر إشراقاً فى أحلامهم وأوهامهم منهم فى كتاباتهم . وقد

يستقر جسم مريض فى ذهن سليم مثل بوب وسكارون ، ولن يسلم محبو اللحوم النادرة أنهم لا يزالون فى مرحلة الصيد . إن لامترى نفسه الذى كان كثير المزاح نشر نقدا مزعوما لكتابه ، فى رسالة غفل من اسم المؤلف تحت عنوان « الإنسان أكثر من آلة » — وربما كان هذا وسيلة لجذب الأنظار إلى كتابه الأول .

ومن ناحية أخرى ربما كان لامترى متأثرا حقا بالحجج التى تساق ضد المذهب الآلى ، ونحن نعلم أنه كان مهتما بشرح ترمبلى (١٧٤٤) للقوى التجديدية فى الماء العذب لبعض الحيوانات المائية البسيطة ، مما لم يتفق بسهولة مع النظرية الآلية . وكان جورج سقتال الذى اشتهر برأيه فى وجود نارية فى الأجسام ، قد قلب فى جرأة (١٧١٧) الفرضية الفسيولوجية ، ذلك أنه بدلا من القول بأن الجسم هو الذى يحدد أفكار النفس واختياراتها ، فإن النفس — وهى العنصر المتأصل النشط — هى التى تتحكم فى نمو الأعضاء وعملها . وكان تيوفيل دى بوردو — طبيب دالمبر — يعتقد أن العمليات الفسيولوجية ، حتى أبسط الهضم غير قابلة لتفسيرات آلية أو كيميائية بحتة [٦٣] وعرض جان بابتست روبينيه لحيوية كونية وهبت كل المادة الحياة والحساسية . وكان واضحا أن لامترى يود أن يرتضى هذا الحل لمشكلة المادة بازاء الحياة .

وفى الوقت عينه انتقل لامترى ليستنتج مذهبا قائما على اللذة من فلسفته المادية . وفى كتب ثلاثة مستقلة — بحث فى السعادة ، واللذة ، وفن الاستمتاع — أعلن أن حب الذات هو أسمى الفضائل . وأن اللذة الحسية هى أعظم الخير ، وكره تحقير اللاهوتيين لملذات الحياة ، ونازع فى سمو المتعة العقلية المزعومة ورأى أن كل الملذات حسية حقاً . ومن ثم فان البسطاء من الناس الذين لا يهتمون بالحياة الفكرية أسعد حالا من الفلاسفة ، ويقول لامترى : لا يندمن أى إنسان على انغماسه فى الملذات الحسية ما دامت لا تنطوى على أى ضرر للغير ، ولا يجوز أن يعتبر أى إنسان مسئولا مسئولية خلقية عن جرائمه لأنها نتاج الوراثة والبيئة اللتين لا سلطان له عليهما ، وينبغى ألا

يعالجوه بالعظات بل بالدواء . ونحزم نحمي المجتمع ، بل وبشنقه تعترف بحتمية كونية . ومن المرغوب فيه أن نختار لمناصب القضاء أمهر الأطباء (٢٤) .

وكانت هذه الآراء من علائم إنتصار أبيقور (وقد أسئ فهمه) على زينون فى فرنسا القرن الثامن عشر : واستسلمت الفلسفة الرواقية فى العهد الزاهر للويس الرابع عشر ، لدفاع الأبيقورية عن مذهب اللذة فى عصر الإستنارة ، ولشمولية المادة وإطراح الألهة . فلا عجب أن يشتد الإقبال على كتب لامترى من جمهور تحرر من أوهام اللاهوت وأرهقته الشكليات التقليدية والقيود الخلقية . ومهما يكن من أمر فإن المجتمع المهذب نفر من لامترى باعتباره مفكرا خارجا على جماعته كشف عن كثير من معتقدات الطبقة العليا ، وهو عاجز عن ضبط النفس . وهاجمه رجال الدين مبعوثا من عند الشيطان . واستحث رجال اللاهوت فى ليدن الحكومة الهولندية لإبعاده عن البلاد . وفى فبراير ١٧٤٨ دعاه المفكر الحر فردريك الأكبر للحضور إلى بروسيا ومنحه راتبا ، وضمه إلى أكاديمية العلوم فى برلين ، واستأنف لامترى ممارسته مهنة الطب وكتب عن الربو وعن الدوسنتاريا أبحاثا اعتبرها الملك أحسن ما كتب من نوعها . وبعد أن اصطدم فولتير بلامترى فى حاشية فردريك ، كتب إلى مدام دنيس فى ٦ نوفمبر ١٧٥٠ يقول :

> هنا رجل مرح جداً ، هو لامترى ، وأفكاره عبارة عن ألعاب نارية ، على شكل صواريخ من السماء دائما . وثرثرته مسلية لبضع دقائق ، ولكنها مزعجة بعد ذلك إلى حد مؤلم . إنه ألف دون أن يدرى كتابا رديئا ، دأب فيه على تحريم الفضيلة والندم وامتداح الرذائل ،وحرض فيه قراءه على الحياة المختلفة والمنافية للأخلاق والحشمة — دون قصد سئ منه . وفى كتابه هذا ألف من اللمسات المشرقة ، ولكن فيه نصف صفحة من العقل . إنها أشبه بومضات برق فى الليل .. اللهم حل بينى وبين اتخاذه طبيبا لى ، إنه قد يعطينى عقاوا مزعجا بدلا من الراوند بكل براعة . ثم يشرع فى الضحك والسخرية . وهذا الطبيب العجيب هو قارئ الملك .

وأحسن ما فى الموضوع أنه يقرأ له كتاب « تاريخ الكنيسة » إنه يقرأ مئات من الصفحات من الكتاب ، وهناك مواضع يكاد يختنق فيها الملك والقارىء من الضحك [٦٥] .

وكان لامترى قد وصف الموت بأنه خاتمة مسرحية هزلية ساخرة تمثل . وفى ١١ نوفمبر ١٧٥١ ، وهو فى الثانية والأربعين قدم نفسه مثالا لهذه المسرحية . ففى مأدبة عشاء أقامها له مريض عالجه من داء عضال ، فأتخم بفطيرة من لحم الطير ، فانتابته حمى شديدة وقضى نحبه . وهنا قتل المرض طبيبه [٦٦] . وكتب الملك بهذه المناسبة رثاء جميلا . وتنفس فولتير الصعداء . وانتقلت أفكار الرجل المتوفى إلى ديدرو ودى هولباخ ، ودخلت إلى روح العصر .

* * *

الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ — ١٧٦٨

١ — سنوات الضياع والكسل : ١٧١٣ — ١٧٤٨

ولد ديدرو فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى لانجرز فى شمبانيا ، على مسافة ٣٨ ميلا من ديجون . وكأن أبوه ديديبه ديدرو يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت . ولم يرث دنيس عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم ، ولكنه لم يكف يوما عن أجلاله وحسن تقديره لا مانة أبيه الموسومة بالبساطة وأقباله على أعمال البر والخير فى هدوء . وينقل عنه دنيس قوله « أى بنى ، أى بنى أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى إلى وسادة الدين والقوانين »[1] وهنا فى جملة وأحدة تردد الصوتان اللذان سمعا فى فرنسا القرن الثامن عشر . — وكان له أخ أصبح كاهنا وخصما لدوداً لدنيس . وأخت دخلت الدير .

وكاد دنيس نفسه أن يكون كاهنا ، ذلك أنه منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة يسوعية فى لانجرز وفى الثانية عشرة حلق شعر رأسه وارتدى غفارة سوداء (لباس الكاهن فى الكنيسة) وعاش حياة الزهد والتقشف ، وعقد العزم على أن يكون يسوعيا . وفسر هو هذا فيما بعد ، بأنه فيض من حماسته ، وأنه كان قد أخطأ « الحافز الأول لحنين جنسي ينمو بين جنبيه فخاله صوت الله »[2] . وأبتهج الوالد ديديبه لهذا النداء الباطنى الجديد لدى أبنه . ورأفقه مغتبطاً إلى باريس (١٧٢٩) ليلحق ، بكلية (لويس الأكبر) اليسوعية هناك ومنها حصل فى ١٧٣٢ على درجة الأستاذية . ولكن كما حدث فى حالات كثيرة كان اليسوعيون يفقدون راهبا مبتدئا بشحذ ذهنه وصقله . وأكتشف دنيس أن باريس عبارة عن

مواخير أكثر منها كنائس . فخلع غفارته وتخلى عن ورعه وتقواه ، وأنصرف إلى التدريب عند أحد المحامين . وسرعان ما نبذ القانون ، وقضى عشر سنين يتنقل من مهنة إلى مهنة . وعانى آلام الفقر فى حجرة فوق السطح ، ونفد صبر والده فمنع عنه النفقة ، ولـكن والدته كانت تمده ببعض المعونة خفية . وأقترض دنيس بعض النقود ، وكان أحيانا يسدد ما أقترض . وأعطى دروسا خاصة فى الرياضيات ، ودبج العظات للقساوسة ، وأشتغل كاتبا عند بائع كتب ، وفى نفس الوقت تابع دراسته فى الرياضيات واللاتينية واليونانية والانجليزية ، وألم الماما جيدا بالأيطالية . وكان متمرداً على القانون ولـكنه كان تواقا شديد التوق إلى المعرفة والحياة . لم يتعلم النظام والانضباط قط ، ولكنه تقريباً تعلم كل ما عدا ذلك .

وكان مفلسا خالى الوفاض ، ولـكنه ممتلىء حيوية وقوة ، ووقع فى شرك الغرام وأعتزم الزواج . وكانت انطوانيت شامبيون تكبره بثلاث سنين وثمانية أشهر ، ولكنها كان سيدة . وعنفته على شبابه المفاجىء ، ولـكنه أكد لها أن هذا مقدمة لحياة زوجية أمينة ، وأنه سيكون رفيق حياتها المخلص الأمين إلى الأبد . « أن خطابات غرامى الأخيرة موجهة اليك ، ولتعاقبنى السماء باعتبارى أشر الناس وأشدهم خيانة وغدرا إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك »(٣) . ونقضت أرق خطاباته هذا العهد . واستسلمت والدة أنطوانيت لدموع أبنتها ولفصاحة الخطيب ولسانه الذرب ، ووافقت على الزواج شريطة الحصول على موافقة أبيه . وجمع ديدرو ما يكفى من المال لسداد نفقات العربة إلى لانجرز على بعد ١٨٠ ميلا .

ووصل إلى لانجرز ، وهناك تأثر والده بتجاوب طيغ وصلت إلى أبنه لترجمته لتاريخ اليونان عن الأنجليزية . وعرض الوالد أن يقدم العون لأبنه فى أى عمل . وكان على دنيس أن يختار ، ولابد أن يقع أختيارة على شىء ما . فأعلن الشاب عن تلهفه على الزواج فعنفه أبوه بقسوة على أنه شاب عاق كسول سىء التدبير . ورد الأبن ردا وقحا ، وأقسم أن يتزوج سواء وأفق أبوه أم لم يوافق ، ودون أى عون مادى منه . وسجنه أبوه فى دير محلى ،

وهرب دنيس وسار على قدميه تسعين ميلا إلى ترووى حتى أستقل عربة هناك . وعاد أدراجه إلى باريس .

ولكن مدام شامبيون كانت مصممة على ألا تتزوج أبنتها من رجل منفصل عن أبويه محروم من الميراث وكان ديدرو يقيم فى حجرة حقيرة لأيكاد يملك من حطام الدنيا شيئا ، وأنتابه مرض شديد فلما علمت أنطوانيت بذلك أسرعت إليه مصطحبة أمها معها قسرا ، وهناك أنهارت معارضة الأم. وسهرت مدام شامبيون وأبنتها على العناية بالفيلسوف المريض ، وفى ٦ نوفمبر ١٧٤٣ تزوجت « نانيت من نينو » (كما كان يسمى الواحد منهما الآخر) فى منتصف الليل فى كنيسة صغيرة أثرت بمثل هذه الزيجات السرية . وأبتهج الزوجان بانجاب طفلة بعد تسعة أشهر ، ولكنها لم تعمر لأكثر من ستة أسابيع . وولد لهما ثلاثة أطفال آخرين جاوز واحد منهم سن الطفولة . وأثبتت أنطوانيت أنها زوجة مخاصة ولكن رفيقة غير ملائمة عاجزة عن متابعة تحليقات أو شطحات زوجها الفكرية ، غير راضية فى شىء من المزاح ، عن دخله الضئيل من الترجمة . وعاد إلى مقاهى الفساد يعيش على القهوة ويلعب الشطرنج . وفى ١٧٤٦ كان قد إتخذ له عشيقة هى مدام بويسييه ، ومن أجلها كتب « الأفكار الفلسفية » « الحلى الزائفة » و « رسائل إلى العميان » .

وكان منذ وقت طويل قد أستسلم لفتنة الفلسفة التى تجتذبنا دائما ، لأنها لا تجيب أبدا عن الأسئلة التى لا نكف مطلقا عن القائها . ومثل بعض المفكرين لأحرار فى هذا القرن ، تأثر من هذه الناحية تأثرا عميقا بقراءة مونتانى وبيل ، ووجد فى كل صفحة تقريبا فى « المقال » وفى « القاموس » فكرة رائعة تلفت النظر . واجتذبة كثرة مراجع مونتانى وأشاراته إلى الروائع الوثنية إلى الأستزادة من دراسة الفلاسفة اليونان والرومان وبخاصة ديموقريطس ، وأبنيقوز ولوكريتس . وكان هو نفسه « الفليسوف الساخر » فى عصره ، فليسوفا ماديا يتدفق حيوية ونشاطا — ولم تتيسر له نفقات زيارة إنجلترا مثل فولتير ومونتسكيو ، ولكنه تعلم أن يقرأ الأنجليزية فى سهولة

ويسر . ولو ليستمتع بالشعراء والكتاب المسرحيين الانجليز . ولسوف نراه يتجاوب مع عواطف طومسون ويدافع ، مثل ليللو عن مأساة حياة الطبقة الوسطى . وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمى المنظم ، وأنتقل إلى تمجيد التجربة أداة عظيمة للعقل . وأستمع فى سنى تكوينه وتشكيله هذه ، ومرة أخرى عند إعداد الموسوعة — إلى محاضرات فى البيولوجيا والفسيولوجيا والطب . وشهد طيلة سنوات ثلاث مؤتمرات رويل فى الكيمياء ودون ملاحظات فى ١٢٥٨ ورقة من القطع الكبير . ودرس التشريح والفيزياء ، وتمشى مع رياضيات زمانه ، وتابع الأبحاث من بيكون إلى هوبز ولوك والربوبيين الأنجليز . وفى ١٧٤٥ ترجم كتابا شافتسبرى « بحث فى الفضيلة والجدارة » وأضاف تأملات من عنده ، وأستمر طوال التقلبات يؤمن بأن الخير والحقيقة والجميل كلها مؤتلفة تقريباً ، وأن قانونا أخلاقيا مؤسساً على العقل ، لا على الدين ، يفيد النظام الاجتماعى بدرجة كافية .

وأصدر فى ١٧٤٦ ، مدفوعا بكل هذه الحوافر وبخياله الواسع الخصيب ، كتابه « أفكار فلسفية » دون أن يذكر أسم المؤلف . وكان متطرفا إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى لامترى ، بايغاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى فولتير . وربما كان لكليهما بعض الفضل فيه . وبدأ بدفاع عن « الانفعالات » وهنا حاول الفكر الجرىء ، متفقا فى ذلك مع صديقه روسو ، أن يبرهن على أنه لا ضير من « أن تقول الفلسفة كلمة فى صالح خصوم العقل ، مذ كانت الأنفعالات وحدها هى التى ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة ، ولن يبلغ شيء ذروة السمو فى الأخلاق أو الأعمال بدون الأنفعالات ، فقد ترجع الفنون القهقرى إلى طفولتها ، وتتقلص الفضيلة إلى أتفه الأعمال بدونها[٤] . ولكن الأنفعالات بدون نظام تكون مدمرة . ويجدر أن يكون هناك بعض التنسيق بينها ، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد جماح الآخر . ومن هنا نحتاج إلى العقل ، وينبغى أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا ، وهنا كانت محاولة مبكرة فى عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان ، بين فولتير وروسو .

وكان ديدرو ، مثل فولتير ، فى أولى مراحل تطوره ونموه ، ربوبيا . أن شواهد تصميم العالم وتكوينه ترغم على الإيمان برب ذكى بارع . ويمكن أن يفسر المذهب الآلى المادة والحركة ، ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر. أن ملحد المستقبل تحدى الملحدين أن يفسروا عجائب حياة الحشرات التى كشفت عنها حديثا أبحاث ربومير وبونيه :

هل رأيتم فى تفكير أى إنسان وأعماله ، ذكاءا ونظاما وحكمة وأتساقا أكثر من تركيب الحشرة ؟ اليست بصمات الإله وأضحة فى عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير فى أعمال نيوتن العظيم ؟ . . . فكروا فقط فى أنى لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة وعين البعوضة . على حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون(٥) .

ومهما يكن من أمر فأن ديدرو نبذ فى إزدراء الإله الذى جاء به الكتاب المقدس حيث بدأ له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة ، واتهم الكنيسة التى نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل والتعصب والأضطهاد . وهل ثمة شيء أشد حمقاً وسخفا من أن يجعل الهاً يموت على الصليب ليهدىء من غضب الله على رجل وامراة ماتا منذ أربعة آلاف سنه . ثم — كما يقول بعض رجال اللاهوت « إذا لعنت وعذبت ألف نفس مقابل خلاص نفس واحدة ، اليس الشيطان هو الرابح فى هذه القضية ، دون أن يسلم الرب أبنه إلى الموت ؟ ولم يعترف ديدرو بأى وحى الهى سوى الطبيعة نفسها . وناشد قراءه أن يرتفعوا إلى مفهوم رب جدير بالكون الذى كشف عنه العلم . وطالب « بتكبير الإاله وتحريره(٦) » .

وأمر برلمان باريس باحراق الكتاب بمعرفة المدعى العام بتهمة « تقديمه إلى الأذهان القلقة المضطربة الجرئية أشد الأفكار سخفا وأجراما ، والتى من شأنها إفساد الطبيعة البشرية ، وبوضعه كل الأديان فى مستوى واحد تقريباً ، فى ارتياب مصطنع ، حتى ينتهى إلى عدم الأعتراف بها جميعا(٧) ولما كان أحراق الكتاب الصغير (٧ يوليو ١٧٤٦) بمثابة أعلان عنـــه ، فوجد له عدداً غير متوقـــع من القراء ، وترجم إلى

الالمانية والأيطالية ، ولما تهامس الناس بأن ديدرو هو مؤلفه ، أرتفع إلى مرتبة تدانى فولتير . وتسلم من الناشر ٥٠ جنيها ذهباً . أعطاها لعشيقته التى كانت فى حاجة إلى ملابس جديدة .

ولما تزايدت مطالب مدام دى بويسييه ، ألف ديدرو كتاباً آخر (١٧٤٧) سمع به كاهن الأبرشية ، فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحمى المسيحية من هجوم ثان . ففاجأ رجال الشرطة المؤلف فى داره وصادروا مخطوطة الكتاب ، أو كما يروى بعضهم ، قنعوا بوعد منه بعدم نشره . وعلى أية حال لم يظهر كتاب « نزهة الشكاك » حتى ١٨٣٠ ولم يزد هذا الكتاب شيئا فى شهرة المؤلف ولكن كان فيه تنفيس عن مشاعره . ولجأ إلى حيلة الفليسوف الأثيرة لديه فى المراوغة ، إلا وهى الحوار ، فهيأ لربوبى وقائل بوحدة الوجود (الله والطبيعة شيء واحد ، الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات لألهية) وملحد ، بأن يشرحوا وجهات نظرهم فى الألوهية . ويكرر الربوبى فى حماسة الحجة المأخوذه من تصميم الكون ، ولم يكن ديدرو مقتنعا بعد بأن تكييف الوسائل مع الغايات فى الكائنات هو تكييف رائع ممتاز يمكن تفسيره بعملية عمياء من تطور أتفاقى جاء مصادفة . أما الملحد فيصر على أن المادة والحركة والفيزياء والكيمياء تفسر للكون أفضل من إله لا يفعل إلا أن يؤجل مشكلة الأصل أو المنشأ . أما القائل بوحدة الوجود ، وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل ، فيعتقد أن الذهن والمادة أبديان معاً ، وأنهما يؤلفان الكون ، وأن هذه الوحدة الكونية هى الله . وربما كان ديدرو يقرأ سبينوزا .

وكان عام ١٧٤٨ مثيراً ومجهداً . كانت أنطوانيت قد وضعت طفلا . وكانت مدام دى بويسييه تطالب بتعويض عن الزنى والفجور ، ومن المحتمل أن ديدرو ، رغبة فى الحصول على المال بسرعة ، كتب آنذاك قصة فاجرة « الحلى الزائفة » وبناء على ما أوردته أبنته (مدام دى فانديل مستقبلا فى كتابها : مذكرات من تاريخ حياة وأعمال ديدرو) — ولاينبغى الأخذ بما جاء به قبل التأكد من صحته — فأن ديدرو ذكر لعشيقته أن كتابة قصة مسألة سهلة نسبيا ، ولكنها تحدته فى ذلك فراهن على تأليف قصة ناجحة فى

أسبوعين ، ووأضح أنه كان يقلد كربيون Crebillon الأصغر فى « الأريكة » ١٧٤٠ حيث أخذت أريكة تتذكر من جديد عدد العاشقين الذين كانت تئن تحتهم . وتخيل ديدرو خاتما سحريا عند أحد السلاطين إذا وجهه إلى الحلى الزائفة عند المرأة ، جعلها وعشيقها يعترفان بكل ما قاسى الأثنان وعانيا من الغرام . ووجه الخاتم السحرى إلى ثلاثين سيدة ، وما كاد يفتر عنصر التشويق والأمتاع فى المجلدين كليهما . وخلط المؤلف البذاءة بشيء من الملاحظات المثيرة عن الموسيقى والأدب والمسرح — وأضاف حلما رأى فيه السلطان طفلا يسمى « التجربة » أخذ ينمو ويكبر ويقوى حتى دمر معبداً قديما أسمه « الفرضية » وحقق الكتاب غرضه على الرغم من إقحام الفلسفة فيه ، حيث أمكن أن يدر مالا ، ودفع الناشر لورنت دوراندا لديدرو مبلغ ١٢٠٠ جنيه فى المخطوطة وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن يباع إلا خلسة فقد عاد بربح وفير . وخرجت ست طبعات بالفرنسية فى ١٧٤٨ وظهرت عشر طبعات فى فرنسا بين عامى ١٩٢٠ — ١٩٦٠ والواقع أن هذا أوسع كتب ديدرو أنتشارا وأكثر عدد طبعات[٨] .

وبدل ديدرو من طبعه وحالته النفسية حين كتب رسائل علمية . وقدر أحسن التقدير كتابه « مذكرات فى موضوعات مختلفة فى الرياضيات » (١٧٤٨) الذى ضم أبحاثا علمية أصيلية فى الصوت والجهد ومقاومة الهواء، « وتصميما لا رغن جديد » يمكن أن يعزف عليه أى إنسان . وأثنت « مجلة الرجل المهذب » « وصحيفة العلماء » على بعض المقالات ، بل إن صحيفة اليسوعيين « دى تريفو » إمتدحتها ، ودعت إلى مزيد من مثل هذه الأبحاث من رجل بارع قدير مثل مسيو ديدرو الذى نلاحظ أن أسلوبه رشيق واضح غير متكلف بقدر ما هو مبدع[٩] . وظل ديدرو طوال حياته ينطلق بشكل غير متواصل إلى العلوم الطبيعية . ولكن إزداد ميله إلى مسائل علم النفس والفلسفة . وكاد يكون فى كل مجال تقريباً أكثر المفكرين أصالة فى زمانه .

٢ — الأعمى والأصم والأبكم ١٧٤٩ — ١٧٥١

لفت نظر ديدرو بوجه خاص مسألة كان قد أثارها وليم مولينكس الايرلندى ١٦٩٢ : هل يستطيع إنسان ولد أعمى كان قد تعلم التميز بين مكعب وجسم كروى باللمس . أن يفرق فى الحال إذا عاد إليه بصره ، بين هذين الجسمين ، أو هل يقتضى الأمر قبل هذا التفريق بعض الخبرة فى العلاقات بين الأشكال ملموسة ونفس الأشكال مرئية ؟ وجاء الجواب الثانى من مولينكس وصديقه لوك . وفى ١٧٢٨ قام وليم شزلدن بتجربة ناجحة على صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، كان ضريراً عند الولادة ، وكان لزاما أن يتدرب الصبى قبل أن يتمكن من التميز بين الأشكال بالنظر وحده . ولأحظ ديدرو أيضا بعناية مثيرة حياة نيقولا سوندرسن الذى فقد بصره فى عامة الأول ، ولم يسترده قط ، ولكنه إبتدع لنفسه كتابة رياضية خاصة على طريقة بريل ، ومن ثم أكتسب قدرة إلى درجة عين معها أستاذا للرياضيات فى كمبردج .

وفى أوائل ١٧٤٩ دعا ريومور مجموعة مختارة من الناس ليشاهدوا ماذا يحدث عند إزالة الضمادات عن عينى امرأة أجريت لها عملية لعلاجها من عمى خلقى . وأستاء ديدرو وجرحت كبرياؤه لأنه لم يدع هو والفلاسفة الآخرون إلى هذه المناسبة . وباستهتاره المعهود قال إن ريومور كان قد رتب أن ترفع الضمادات أمام « بعض عيون لا قيمة ولا شأن لها(١١) » وطبقا لما روته أبنة ديدرو أساءت هذه العبارة إلى مدام ديبرى دى سانت مور التى كانت تفتخر بعينيها والتى كانت العشيقة الحالية لمدير المكتبة الحالى ، أو كبير مراقبي المطبوعات الكونت دارجنسون (مارك ببير ، الأخ الأصغر للمركيز رينيه لويس) .

وفى ٩ يونيو نشر دوراند كتاب ديدرو « رسالة عن العميان لخدمة المبصرين » وكانت على شكل رسالة موجهة إلى مدام بويسبيه . وبدأت بوصف زيارة قام بها ديدرو وبعض الأصدقاء لزارع كروم أعمى . وأذهلهم روح النظام عند الرجل المكفوف البصر إلى الحد الذى تعتمد عليه فيه زوجته

بالليل فى إعادة كل شىء إلى مكانه بعد فساد النظام أثناء النهار . وكانت حواسه الباقية أحد وأقوى من حواس الناس العاديين « وهناك بالنسبة له فروق بسيطة لاتكاد تذكر من نعومة الأجسام ، وهى فروق لاتقل دقة عن الفروق بين أصداء الأصوات ، ولاخوف من أن يحسب خطأ أن سيدة أخرى هى زوجته ، إلا اذا كان فى المبادلة كسباً له »[١١] ولم يكن يدرك كيف يعرف الانسان الوجه دون أن يلمسه . وانحصرت روح الجمال عنده فى الأشياء الملموسة وفى رخامة الصوت والمنفعة ولا يجد عاراً فى العرى لأنه يجد أن فى الثياب حماية من الجو لا اخفاء الجسم عن أعين الآخرين . واعتبر السرقة جريمة كبرى لأنه يقف حيالها عاجزاً لاحول له ولا قوة .

وخلص ديدرو إلى أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله ، بل من خبرتنا الحسية . بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها ، وهى أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق ، نسبية متنوعة . ووجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيراً من قوته . حقاً هناك شواهد وبراهين على التصميم والتركيب فى كثير من الكائنات والأعضاء مثلما هو فى الذبابة والعين ، ولكن ليس ثمة شواهد على التصميم فى الكون باعتباره كلا ، لأن بعض الأجزاء عوائق — إن لم تكن أعداء فتاكة — لأجزاء أخرى ، وكل تركيب تقريباً محكوم عليه أن يلتهمه تركيب عضوى آخر وتبدو العين مثالا رائعاً لتطابق الوسائل مع الغايات ، ولكن فيها عيوب وشوائب جسيمة (كما يوضح هلمهولتز هذا تفصيلا فيما بعد) وثمة عفوية أو تلقائية خلاقة فى الطبيعة ، ولكنها نصف عمياء . وتؤدى إلى كثير من الخلل والاضطراب والتبديد والضياع . وزعم ديدرو أنه اقتبس من كتاب « حياة دكتور نيقولا سوندرسون وخلقه لمؤلفه وليم انشليف (وواضح أنه لم يوجد قط) ، فأجرى على لسان الأستاذ الأعمى قوله « لماذا تحدثنى عن هذا المشهد الجميل الذى لم يصنع من أجلى قط ؟ . . . إذا أردت منى أن أومن بالله فينبغى أن تجعلنى ألمسه »[١٢] وفى سيرة الحياة الوهمية هذه رفض

سوندرسن الإيمان بالله (*) وعزا نظام الكون إلى انتقاء طبيعي للأعضاء والتركيبات العضوية عن طريق بقاء الأصلح .

كل تركيبات معيبة ناقصة من المادة اختفت . ولم يبق منها إلا ما انطوى تركيبه على تعارض غير ذى أهمية ، والتي يمكن أن تستمر وتبقى بوسائلها الخاصة وتتوالد بنفسها . . . بل إن نظام العالم الآن ليس بالغ الكمال ، ولكن النتاجات الضخمة الغريبة تظهر من حين إلى حين . . . ماهو العالم ؟ إنه مركب خاضع لثورات تشير كل منها إلى نزعة ملحة إلى التدمير ، تسلسل سريع للكائنات يعقب بعضها بعضاً . ويدفع بعضها بعضاً ثم تختفي [١٣] ويختم ديدرو بمذهب اللاأدرية : « وأجسرتاه يا سيدتى ، إننا إذ نضع المعرفة الإنسانية فى ميزان مونتانى فلن نبعد عن شعاره ، لماذا نكتسب المعرفة ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المادة ، وعن طبيعة الذهن والفكر ، لانعرف إلا أقل من ذلك . بل لانعرف شيئاً إطلاقاً [١٤] .

وجملة القول إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب فى عصر الاستنارة فى فرنسا . إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والقصص ، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصر البارع العطوف بوصفه بحثاً فى علم النفس ، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثاً فى الفلسفة ، وهو مرهق قرب انتهاء صفحاته الستين ولكنه يضم بعض ما يجافى الحشمة مما لايكاد يليق برسالة مفروض إنها موجهة إلى سيدة ، ولكن ربما كانت مدام دى بويسيبه متعودة على خلط ديدرو بين بذاءة السوقة وسعة الاطلاع والمعرفة . وشمل البحث ، لحسن الحظ ، اقتراحاً مفصلا لما عرف فيما بعد باسم طريقة لويس بريل [١٥] .

وأرسل فولتير الذى كان آنذاك فى باريس (١٧٤٩) إلى ديدرو تقريظاً حماسياً للبحث ، قال فيه : « قرأت فى سرور بالغ كتابك الذى يذكر الشيء الكثير ويوحى بشيء أكثر . وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير ، بقدر ما أحتقر أولئك الهمج الأغبياء الذين ينقصون من قدر مالا يفهمون . . .

(*) مات سوندرسن ، طبقاً لما رواه أصدقاؤه ، متمسكاً بدينه . واستاءت الجمعية الملكية بلندن من نسبة ديدرو الإلحاد إلى أحد أعضائها ، ولم تسمح له قط بالانضمام إليها عضواً مراسلا .

ولكنى أعترف لك أنى لست من رأى سندرسن الذى ينكر وجود إله ، لأنه ولد أعمى . وربما كنت مخطئاً ، ولكن لو أنى فى مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبنى اضافات كثيرة تكمل البصر . أود من كل قلبى أن أتحدث إليك . وليس يهمنى أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته ، أو أنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية . وقبل مغادرتى لونفيل أرجو أن تشرفنى بتناول عشاء فلسفى معى ، فى دارى بصحبة بعض الحكماء .

ورد عليه ديدرو فى ١١ يونية :

سيدى الأستاذ العزيز : إن اللحظة التى تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة . . . إن رأى سوندرسن ليس رأيى ولا هو رأيك . . . إنا أومن بالله ، ولكنى أنسجم كثيراً مع الملحدين ، ومن المهم جداً ألا نخلط بين الشوكران (نبات يستخرج منه شراب سام) والبقدونس . ولكن ليس يهمنى مطلقاً أن تؤمن بالله أولا تؤمن به . وقال مونتانى إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها . . . [١٦] .

وقبل ظهور أية نتيجة لهذه المراسلات قبض على ديدرو . ذلك أن الحكومة ثار غضبها لنقد صلح إكس لاشابل المذل علناً . وأودعت السجن نفرا من النقاد ، ورأت أن الوقت قد حان لكبح جماح ديدرو وإيقافه عند حده ولسنا ندرى إذا كان الالحاد المندس فى رسالة العميان هو الذى أثار إحتجاج رجال الدين ، أو أن مدام دبرى دى سانت مور وقد ساءتها إشارة ديدرو إلى العيون التى لاقيمة لها قد حفزت عشيقها (كبير مراقبى المطبوعات) إلى إتخاذ إجراء . وعلى أية حال فإن الكونت دارجنسون أرسل أمراً مختوماً (٢٣ يوليو ١٧٤٩) إلى ماركيز دى شاتيليه محافظ قلعة فنسان « إستقبلوا فى القلعة المدعو ديدرو ، وأودعوه فى السجن لحين صدور أوامر أخرى منى » [١٧] وفى الصباح الباكر فى اليوم التالى طرق رجال الشرطة باب ديدرو ، وفتشوا مسكنه ووجدوا نسختين أو ثلاثا غير مجلدة من رسالة العميان ، وعدة صناديق مملوءة بمادة الموسوعة الشهيرة التى كان يعدها

ديدرو ، وحملوها إلى القلعة (فى ضواحى باريس) حيث وضع وحيداً فى زنزانة فى القلعة الكئيبة ، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان فى جيبه عند إعتقاله « الفردوس المفقود » وتهيأ له الآن فسحة من الوقت لقراءته بعناية . وكتب عليه حواشى وتعليقات بغير الطريقة التقليدية . واستخدم صفحاته الخالية فى تدوين بعض أفكار وموضوعات أقل ورعاً وتديناً ، وتوصل إلى صنع الحبر من كشط الاردواز من الجدران وطحنه وخلطه بالنبيذ ، وإستخدام عودا من الخلال قلماً . وفى نفس الوقت هرعت زوجته التى عاشت بمكتئبة مع طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى رئيس الشرطة بريبه ، وتوسلت إليه أن يطلق سراح زوجها ، وأنكرت علمها بكتاباته « وكل ما أعرفه أن كتاباته شبيهة بسلوكه . أنه يعتز بالشرف أكثر ألف مرة مما يعتز بالحياة ، وإن مؤلفاته لتعكس الفضائل التى يتمسك بها[١٨] .» وإذا كانت إنطوانيت لاتعلم شيئاً عن مدام دى بوبسيه ، فإن الشرطة كانت تعلم ، وكان أشد فعالية وتأثيراً من ذلك الالتماس الذى تقدم به الرجال الذين عهدوا إلى ديدرو تحرير الموسوعة ، حيث أكدوا لكونت دارجنسون أن المشروع لايمكن أن يخطو خطوة بدون السجين . وفى ٣١ يوليو استدعى بريبه ديدرو وحقق معه وأنكر ديدرو أنه مؤلف « رسالة العميان » وكتاب « الأفكار » وكتاب « الحلى الزائفة » وأدرك رئيس الشرطة أنه يكذب ، وأعاده إلى السجن .

وفى شهر أغسطس ، كتبت مدام دى شاتيليه — قبل وفاتها بشهر واحد والمفروض أن هذا بايعاز من فولتير ، من لونفيل إلى قريبها محافظ فنسان ، ترجوه على الأقل أن يخفف من الشدة التى يعامل بها ديدرو . وحوالى ١٠ أغسطس عرض بريبه أن يسمح للسجين بالتمتع بالحرية والتيسيرات فى قاعة السجن الكبرى مع الترخيص له باستقبال الزوار وتلقى الكتب ، إذا قدم إعترافاً صادقاً . وفى ١٣ أغسطس وجه الفيلسوف المعاقب إلى بريبه الوثيقة الآتية : —

أعترف لك بأن الكتب الثلاثة أن هى إلا نزوات غواية أملاها ذهن تملص منى ، ولـكنى أستطيع . . . أن أعد تحت كلمة الشرف (وأنا فعلا رجل شريف) بأنها ستكون الأخيرة . . . وستكون الوحيده . . . أما بالنسبة لهؤلاء الذين اشتركوا فى نشر الـكتب وطبعها ، فلن أخفى عنكم شيئاً يتعلق بهم ، وسأفضى إليك سرا بأسماء الناشرين والطابعين (١٩) .

وفى ٢٠ أغسطس أطلق سراحه من الزنزانة . ووضعوه فى غرفة مريحة ، وسمح له باستقبال الزائرين والتنزه فى حدائق القلعة ، وفى يوم ٢١ وقع تعهداً بألا يغادر المبنى أو منطقته دون ترخيص رسمى . وجاءت إليه زوجته لتواسيه وتؤنبه وتلومه ، وبعث من جديد حبه القديم لها . وزاره دالمبير ورسو ومدام دى بوبسييه وجاء إليه ملتزمو الموسوعة ببعض المخطوطات واستأنف عمله فى تحريرها . ومنذ علم أن أخاه أبلغ أباه بنبأ إعتقاله فانه كتب إلى الوالد « السكاكينى » المتألم ، وأدعى أن اعتقاله كان بناء على مكيده إحدى السيدات ، وطلب منه معونة مالية . وفى ٣ سبتمبر أرسل الوالد رداً يكشف عن الجانب الانسانى فى الصراع بين الدين والفلاسفة :

يابنى : تسلمت خطابيك اللذين بعثت بهما إلى مؤخوا ، تنبئنى بخبر إعتقالك وسببه ، ولم أتمالك نفسى من القول بأنه لابد بالتأكيد أن هناك أسباباً أخرى غير التى ذكرتها فى أحد الخطابين . . . وحيث أنه لايحدث شىء إلا بإذن الله ، فإنى لست أدرى أيهما أفضل لتقويم خلقك : اخلاء سبيلك أو إطالة مدة بقائك فى السجن لمدة شهور أخرى لتفكر جيداً ومليا فى نفسك . ولا تنس أن الله إذا كان قد أنعم عليك بالمواهب ، فإنه منحك إياها لا لتستخدمها فى العمل على أضعاف مبادىء عقيدتنا المقدسة . لقد قدمت دليلا كافياً على حبى لك . هيأت لك فرصة التعلم على أمل أن تفيد منه أعظم فائدة ، لا أن تورثنى أشد الهم والغم والـكمد حين علمت بما لحق بك من خزى وعار . . . سامحنى يابنى . ولسوف أصفح عنك . أنا أعلم أنه ليس ثمة إنسان بمنجاة عن الافتراء وتشويه السمعة ، وأنهم قد ينسبون

إليك أعمالا لم تشترك فيها . . . ولن يكون لك إعتبار أو قيمة فى نظرى إلا إذا صدقتنى القول دون لبس أو مواربة ، بأنك كما أبلغونى من باريس بأنك تزوجت وأن لك طفلين . فان كان الزواج شرعياً وأن الأمر قد إنتهى فأنا راض ، وآمل ألا تضن على شقيقتك بالشعور بالفرح لتنشئتهما ، وعلى بالسعادة لرؤيتهما أمام عينى . . . إنك تسألنى مالا . ماذا ! إن رجلا مثلك يعمل فى مشروعات ضخمة . . . هل يمكن أن يكون فى حاجة إلى مال ؟ ولقد قضيت شهراً فى مكان لاتكافلك الإقامة فيه شيئاً ؟ . . . تذكر أمك المسكينة . . . إنها فى تأنيبها لك ، كم من مرة قالت إنك أعمى . . . قدم لى الدليل على عكس ذلك . ومرة أخرى ، وقبل كل شىء ، كن صادقاً ومخلصاً فى الوفاء بوعودك . . . ستجد مرفقاً بهذا حوالة بمائة وخمسين جنيهاً . . . تنفقها كما تريد . . . وإنى لأنتظر بفارغ الصبر اليوم الذى تخفف فيه من آلامى وهمومى حين أعلم بنبأ إطلاق سراحك . . . وسأقدم الشكر لله حالما أعلم ذلك .

مع كل الحب الذى أكنه لك . . .

(والدك الحبيب ديدرو)[٢١]

ولسنا ندرى ماذا كان رد دنيس . وربما وجد مشقة فى مجاراة هذه الرسالة فى نبلها . وفى ٣ نوفمبر ١٧٤٩ أفرج عنه بعد قضاء ثلاثة شهور ونصف شهر فى السجن . وقصد داره سعيداً مبتهجاً بالعودة إلى زوجته وصغاره ، ونسى مدام دى بويسييه لفترة من الوقت ؛ ولكن فى ٣٠ يونية ١٧٥٠ مات إبنه البالغ من العمر أربع سنوات ، إثر حمى شديدة ، وأنجب طفلا ثالثا بعد ذلك مباشرة . ولكنه أوذى أذى بالغاً عند تعميده ، حيث أوقعه أحد الخدم على الأرض فى الكنيسة ، وما لبث أن فارق الحياة قبل انقضاء عام واحد على مولدة ، وهكذا ولد له ثلاثة ومات ثلاثتهم (وعاد ديدرو إلى أمسياته فى مقهى بروكوب . وحوالى ١٧٥٠ قدمه روسو إلى فودريك ملخيور جريم ، وهناك بدأ ثالوث من الصداقة كان له بعض الأهمية

فى عالم الأدب . وتلك هى السنة التى غادر فيها فولتير فرنسا إلى برلين وكتب فيها روسو بحثه الذى نال به الجائزة عن (المدنية مرض) وأصدر ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة :

وبينما كان ديدرو يعمل فى المجلد الأول من مشروع الموسوعة استطرد إلى تحقيق فى علم النفس نشر نتائجه (١٧٥١) فى « رسالة عن الصم والبكم لخدمة أولئك الذين يسمعون ويتكلمون » . ولم يكن ديدرو قد نسى قلعة فنسان بعد ، ومن ثم تجنب الهرطقة ، وتسلم من الرقيب (مالشرب الطيب الرحيم آنذاك) « إذناً ضمنياً » بنشر الكتاب فى فرنسا دون ذكر إسمه ، ودون خوف من المحاكمة أو المقاضاة . واقترح ديدرو أن يوجه أسئلة إلى أحد الصم البكم ، ويلاحظ الايماءات التى يجيب بها الأصم الأبكم على هذه الأسئلة ، وبذلك يلقى الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشارات والايماءات . أن الممثل القدير (وكان ديدرو آنذاك منشغلا بوضع كتابه « تناقض الممثل » ينقل أحياناً عن طريق إيماءة أو تعبير بالوجه فكرة أو إحساساً بشكل أعظم تأثيراً منه عن طريق الألفاظ . ومن الجائز أن الألفاظ الأولى (فى اللغة) كانت عبارة عن إيماءات صوتية أو معبرة توضح فكرة فى الذهن ، وليس للفظة التى يختارها الشاعر دلالة أو معنى عقلى فحسب ، ولكن لها كذلك مفهوماً رمزياً متضمناً وفارقاً دقيقاً لايكاد يذكر ، ولها تضمينات بصرية (قارن مثلا بين يرى ويتفرس أو يحدق النظر أو نغمات توافقية فى الصوت ، قارن بين يقول ويتذمر ، Say, murmur ومن ثم فان الشعر الحقيقى تتعذر ترجمته) .

والحديث — كما هو معهود فى ديدرو مضطرب يعوزه الترتيب والنظام ولكنه زاخر بالجوانب الموحية . « قد تكون فكرتى أن أحلل الإنسان إذا جاز التعبير ، وأدرس ماذا يستمد من كل حاسة من حواسه » . (بنى كوندياك مؤخراً فى ١٧٥٤ ، رسالته عن الأحاسيس حول هذه الفكرة) أو قارن مرة أخرى بين الشعر والرسم ، أن الشاعر يستطيع أن يسرد

الأحداث على حين يبرز الرسام لحظة واحدة ، وصورته عبارة عن إشارة تحاول أن تعبر فى وقت واحد عن الماضى والحاضر والمستقبل . وهنا كانت بذرة فى كتاب ليسنج « لاوكون » (١٧٦٦) .

ولكن فى هذه الاثناء كان المجلد الأول من الموسوعة معداً للنشر .

٣ — تاريخ كتاب : ١٧٤٦ — ١٧٦٥

قال الناقد الكاثوليكى برونتيير « إن الموسوعة أعظم عمل فى عصرها ، والهدف الذى كان يصبو إليه كل شىء سبقها ، ومصدر كل شىء جاء بعدها ، ومن ثم فإنها المركز الحقيقى لأى تاريخ للأفكار فى القرن الثامن عشر ».[٢١] وقال ديدرو إن محاولة إخراج موسوعة إنما تنسب فقط إلى قرن فلسفى .[٢٢] إن عمل بيكون وديكارت وهوبز ولوك وباركلى وسبينوزا وبيل وليبنتز فى الفلسفة ، والنهوض بالعلوم على أيدى كوبرنيكس وفيساليوس وكبلر وجاليليو وهوجينز ونيوتن ، وإرشياد الأرض بفضل الملاحين والبعثات التبشيرية والسياح ، وإعادة الكشف عن الماضى على أيدى الباحثين والمؤرخين ، كل هذه المعرفة المتراكمة انتظرت لتنسق فى موسوعة تكون فى متناول الجميع وخدمتهم .

وبدا فى أول الأمر أن « موسوعة تشامبرز » أو « القاموس العالمى للفنون والعلوم » (١٧٢٨) قد يسد هذه الحاجة . وفى ١٧٤٣ اقترح ناشر فى باريس هو أندريه فرنسوا لى بريتون ترجمته إلى الفرنسية مع بعض تعديلات وإضافات تفى بحاجة فرنسا . ونما المشروع ليظهر فى عشر مجلدات ولمواجهة النفقات أشرك لى بريتون معه فى هذه المهمة ثلاثة ناشرين آخرين هم برياسون ودافيد ودوران . واستخدموا الأب دى جوا دى مالف محررا . وحصلوا على إذن ملكى بالطبع ، وأصدروا فى ١٧٤٥ نشرة مؤقتة . ورأى الناشرون أو رأى المحرر دى جوا دى مالف الاستعانة بديدرو ود المبير . وفى ١٧٤٧ انسحب دى جوا دى مالف . وفى ١٦ أكتوبر عين الناشرون ديدرو ورئيساً

للتحرير مقابل راتب قدره ١٤٤ جنيهاً فى الشهر . وطلبو إلى دالمبير أن يكون مسئولا عن مقالات الرياضيات.

وكلما تقدم العمل ازداد ديدرو سخطاً على نص تشامبرز ويمكن أن تقدر هذا السخط والاستياء إذا عرفنا أن ديدرو خصص للتشريح ٥٦عموداً على حين أفرد له تشامبرز عموداً واحداً ، وللزراعة ١٤دعموداً ، على حين أوردها تشامبرز فى ستة وثلاثين سطراً . وأخيراً أوصى بتنحية قاموس تشامبرز جانباً وإعداد موسوعة جديدة تماماً ، (وربما اقترح مالف هذا فوراً) . ووافق الناشرون واستحث ديدرو (ولم يكن قد اتضح بعد أنه المؤلف الزنديق لرسالة العميان) المستشار الجاد المتدين دى أجسو حتى يشمل الترخيص الملكى المشروع الموسع (أبريل ١٧٤٨) .

ولكن كيف كان يمكن تمويل المشروع ؟ قدر لى بريتون أنه قد يكلف مليون جنيه . والواقع أنه تكلف مليوناً وأربعمائة ألف — حتى ولو كان من المشكوك فيه كثيراً أن يكون عدد المشتركين كافياً إلى حد يدفعون معه بالموسوعة إلى المطبعة . وكان ديدرو قد أعد بالفعل كثيراً من المقالات وحصل على عدد آخر منها من أجل المجلدات الأولى حين أوقف أعتقاله فى فنسان سير العمل . وعندما أطلق سراحه تفرغ تفرغاً كاملا للمضى فى المشروع . وفى نوفمبر ١٧٥٠ أخرج الناشرون ثمانية آلاف نسخة من نشرة تمهيدية دبجها يراع ديدرو . (وفى ١٩٥٠ أعادت الحكومة الفرنسية طبع هذه النشرة تذكاراً وطنياً لهذا الحادث) . وأعلنت هذه النشرة أن فريقاً من الأدباء والخبراء والمتخصصين اتجه رأيهم إلى جمع المادة الموجودة فى العلوم والفنون فى صعيد واحد مرتبة ترتيباً أبجدياً ، مزودة بمراجع قد يسهل على العلماء والباحثين والطلاب استخدامها . وقالت النشرة إن لفظة الموسوعة أو دائرة المعارف تدل على العلاقات المتبادلة بين العلوم وهى تعنى حرفياً التثقيف أو التعليم مجموعاً فى صعيد واحد . وقال ديدرو إن المعرفة لم تنم على أوسع نطاق فحسب ولكن الحاجة إلى نشرها مهمة كذلك ،

حيث لاجدوى منها إلا اذا أفاد منها الجميع . وجاء فى النشرة أن هذا كله سوف تضمه ثمانية مجلدات للنصوص ومجلدان للوحات والرسوم ، وحدد الاشتراك بمائتين وثمانين جنيهاً للمجموعة تدفع على تسعة أقساط . ويجب تسديد المبلغ كله على مدى عامين . وتبدو لنا الآن هذه النشرة وكأنها أحد الأعلانات بأن عصر العلم قد بدأ . وأن عقيدة جديدة قد ظهرت لخلاص الجنس البشرى .

وكانت الأستجابة للنشرة مشجعة ، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العليا . وتبين بعد وفاة مدام جيوفرين أنها وزوجها أسهما فى نفقات الموسوعة بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه(٢٣) .

وبهذه الموسوعة فى فرنسا وقاموس جونسون فى إنجلترا (١٧٥٥) أعلن الأدب الأوربى إستقلاله عن الأرستقراطيين والأهداءات الذليلة ، وإتجه إلى الجمهور العريض الذى عرض هذا الأدب أن يكون عينه التى تبصر وصوته الذى يعبر . وكانت الموسوعة أشهر تجربة لتبسيط المعرفة ونشرها(٢٤) .

وظهر المجلد الأول فى ٢٨ يونية ١٧٥١ محتويا على ٩١٤ صفحة من القطع الكبيرة من ذات النهرين . وكانت صورة الصفحة الأولى من رسم شارل كوشان ، وكانت رمزاً صادقاً للقرن الثامن عشر ، فقد أبرزت البشرية تتلمس طريقها إلى المعرفة تمثلها امرأة جميلة فى ثوب رقيق شفاف . وكان العنوان مثيراً : الموسوعة أو قاموس موضوع بعد دراسة وترو لمختلف العلوم والفنون والمواد ألفه فريق من رجال الأدب رتبه وحرره ديدرو وتعهد قسم الرياضيات فيه دالمبير ، ونشر بتصديق من الملك وترخيص منه وأهدى المجلد من باب الحكمة إلى السيد الكونت دار جنسون وزير الحربية . ولم يكن موسوعة بالمعنى الحالى عندنا ، فانها لم تر أن تشمل سير حياة أو تاريخا . ولكن الغريب فى الأمر أنها تضمنت بعض سير الحياة تحت عنوان محل الميلاد للشخص . ومن ناحية أخرى كانت بشكل جزئى قاموسا عرض لتعريف بعض المصطلحات وإيراد المترادفات وبعض قواعد الأجرومية .

وأبرز ما فى المجلد الأول وأجدره بالذكر هو « مقال تمهيدى » ووقع الأختيار على دالمبير لكتابته لأنه كان معروفا بأنه من رجال العلم المرموقين وبأنه كذلك من البارعين الأفذاذ فى النثر الفرنسى ، وعلى الرغم من هذه المزايا كان دالمبير يحيا حياة رواقية بائسة فقيرة فى باريس . وحين وصف فولتير المشهد الرائع من لى دليس أجاب دالمبير : « أنت تكتب إلى من مخدعك حيث تشرف على عشرة فراسخ من البحيرات وأنا ارد عليك من جحرى الذى لا يشهد إلا رقعة من السماء لا تجاوز ثلاث أذرع »[٢٥]. وكان لا أدريا ، ولكنه لم ينضم إلى نقد علنى للكنيسة . وفى — مقاله التمهيدى حاول أن يفحص حجج معارضى الكنيسة :

« إن طبيعة الإنسان سر لا يمكن سبر أغواره إذا إستنار الإنسان بالعقل وحده . ويمكن أن نقول مثل هذا عن وجودنا فى الحاضر والمستقبل ، وعن جوهر « الكائن » الذى ندين له بهذا الوجود ، وعن نوع العبادة التى يتطلبها منا . ومن ثم فأننا أحوج ما نكون إلى ديانة منزلة تهدينا سواء السبيل فى مختلف الموضوعات[٢٦] . »

واعتذر لفولتير عن هذه الاحترامات : « أن مثل هذه العبارات هى أسلوب توثيقى ، وما هى إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقائق التى ننشد تدعيمها . . . أن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه[٢٧] .

ونهج المقال التمهيدى نهج إقتراح لفرانسيس بيكون ، فصنفت المعارف وفق الموهبة العقلية التى تنتج عنها : فوضع التاريخ تحت بند « الذاكرة » والعلوم فى باب « الفلسفة » واللاهوت تحت بند « العقل » والأدب والفن فى باب « الخيال » وكان ديدرو ودالمبير فخورين كل الفخر بهذا التقسيم وجعلا منه ورقة مطوية وضعاها بعد المقال أو خريطة للمعرفة أثارت أشد الأعجاب . وكان أقوى أثر فى الموسوعة بعد أثر بيكون هــو أثرلوك . « أننا مدينون للأحاسيس بكل أفكارنا » . هذا هو ما جاء فى المقال . ومن

هذا البيان راود الأمل المحررين على مدى المجلدات الثمانية أن يستنتجوا فلسفة كاملة دينا طبيعيا يهبط بالاله إلى مجرد دفعة إبتدائية أولى وإن يستنتجوا علم نفس طبيعيا يجعل الذهن وظيفة من وظائف الجسم ، ومبادىء أخلاق طبيعية تحدد الفضيلة على أساس واجبات الإنسان نحو الإنسان لا نحو الله — وتضمن « المقال التمهيدى » هذا البرنامج فى حرص وحذر .

ومن هذه المبادىء الأولى أنتقل دالمبير إلى إستعراض تاريخ العلم والفلسفة وأمتدح الأقدمين ، وأستنكر العصور الوسطى وانتقص من قدرها ، وهلل لعصر النهضة وأبتهج به :

لن نكون منصفين إذا لم نعترف بفضل أيطاليا علينا ، فمنها تلقينا العلوم التى انتجت فيما بعد ثمارا وفيرة فى كل أوربا . ونحن مدينون لهـا فوق كل شىء بالفنون الجميلة والذوق الرفيع الذى زودتنا منه بعدد كبير من نماذج لا تبارى أو تتعذر محاكاتها(٢٨) .

وجاء أبطال الفكر الحديث ليتوجوا بأكاليل الغار :

يجدر أن يوضع على رأس قائمة الشخصيات اللامعة مستشار إنجلترا الخالد فرانسيس بيكون الذى تستحق أعماله بحق أن ندرسها حتى أكثر من أن نمتدحها . أننا حين نتأمل وندرس آراء ونظرات هـذا الرجل العظيم الحكيمة الواسعة الأفق ، والموضوعات الكثيرة التى أستعرضها فى ذهنه ، وجرأة أسلوبه التى جمعت فى كل موضع بين أروع الصور والأنطباعات الذهنية وبين أعظم الدقة والأحكام . فاننا نميل إلى اعتباره أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأشملهم وأوسعهم بحثا(٢٩) .

وأنتقل دالمبير ليبرز كيف أن عبقرية ديكارت العميقة الخصبة فى الرياضيات قد عوقها فى الفلسفة الأضطهاد الدينى :

إن ديكارت على الأقل تجاسر فبين للأذهان اليقظة كيف تتحرر من نير السكولاسية والرأى والسيطرة — وصفوة القول من التحيز والتحامل

والوحشية . وبهذه الثورة التى نجنى نحن ثمارها اليوم أدى ديكارت للفلسفة خدمة قد تكون أجـــل وأشق مما تدين به لخلفائه البارزين المشهورين . وقد نعتبره زعيم عصابة تعاهدت ، وكان لها من الشجاعة ما قادت به ثورة ضد سلطة أستبدادية . وأرسى بفضل تصميمه الأكيد المشجع الملهم أساس حكومة أعدل وأفضل ما كان يمكن أن يعيش لير اها قائمة ، وإذ أنتهى به التفكير إلى أيضاح كل شيء فأنه على الأقل بدأ بالشك فى كل شيء . إن الأسلحة التى يجب إستخدامها لمحاربته ليست على الرغم من ذلك أسلحته لأننا نصوبها إليه .

وبعد أن تحدث دالمبير عن نيوتن ولوك وليبنتز ختم حديثة بالإعراب عن إيمانه بالنتائج الطيبة للمعرفة التى تزكو وتنمو وتنتشر : « إن قرننا ليعتقد بأنه قد كتب عليه أن يغير القوانين فى جميع المجالات (٣٠) . ونشجع دالمبير بحرارة هذا الأمل فجعل من مقاله التمهيدى هذا تحفة من روائع النثر الفرنسى فى القرن الثامن عشر . وشارك بيفون وموتنسكيو فى الثناء على مقدمة الموسوعة هذه كما إعتبرها — أى صفحات المقدمة — من أعظم المقالات التى كتبت فى لغتنا فلسفة ومنطقا وإشراقا وأحكاما ودقة (٣١) .

ولم يكن المجلد الأول ضد الدين بشكل سافر . وكانت المقالات عن العقيدة والطقوس المسيحية تقليدية تقريباً . وأبرزت عدة مقالات بعض الصعوبات ، ولكنها أختتمت كلها عادة باحترام مهيب للكنيسة . وكثيراً ما وجدت هرطقات مغلفة وهجمات عارضة على الخرافة والتعصب ، ولكنها مستترة فى مقالات واضح أنها كانت تعالج موضوعات بريئة مثل « حمل سكيزيا » أو النسر . من ذلك أن ما كتب عن حمل سكيزيا توسعوا فيه حتى صار بحثا عن شواهد تركت الإيمان بالمعجزات فى حالة يرثى لها . كما أن مادة « النسر » بعد مناقشة سذاجة الناس وسرعة تصديقهم إنتهت بتهكم صريح :

« سعيد هذا الشعب الذى تطالبه ديانته ألا يؤمن إلا بالأشياء الحقيقية

المقدسة السامية الرفيعة الشأن ، وإلا يقتدى إلا بصالح الأعمال . ومثل هذه الديانة هى ديانتنا وهى التى فيها لا يتبع الفيلسوف إلا عقله حتى يصل إلى مذبحنا[٣٢] وفى شىء من المكر والدهاء كانوا يهاجمون الخرافات والأساطير هنا وهناك . وأنبثقت روح من الإنسانية العقلانية .

وعلى الرغم من كل شىء أستقبل اليسوعيون هذا المجلد أستقبالا ودياً . وأعترض جويوم فرنسوا برتييه المحرر العالم المثقف لصحيفة تريفو فى رقة وأدب على توكيد المقال التمهيدى على الفلاسفة المهرطقين ، وأشار إلى بعض الأخطاء والأنتحالات ، وطالب بتشديد الرقابة على المجلدات التى ستصدر فيما بعد ، ولكنه أثنى على الموسوعة مشروعا عظيما ضخما جدا يمكن لمحرريه بحق بعد إنجازه أن يطبقوا على أنفسهم قول هوراس « لقد أقمت نصبا أبقى من النحاس » .

ثم أضاف برتييه « ليس هناك من هو أكثر منا ميلا إلى تبين الخفايا الدقيقة فى الموسوعة ولسوف نعرضها برفق فى مقتطفاتنا القادمة[٣٣] .

وثمة كاهن آخر لم يكن مترفقا متساهلا إلى مثل هذا الحد ، وهو جان فرنسوا بوير أسقف ميربوا سابقاً الذى شكا المحررين إلى الملك بأنهم خدعوا الرقباء ، فأرسله الملك لويس إلى مالشرب الذى كان قد أصبح كبير مراقبى المطبوعات ، فوعد مالشرب بفحص المجلدات التالية بشكل أدق ، ولكنه أثناء توليه مناصب حكومية مختلفة استخدم كل نفوذه لحماية الفلاسفة . وكان من حسن حظ الثائرين أن هذا المسيحى جويودى مالشرب الذى كان قد أصبح متشككا حين قرأ كتابات بيل والذى كان قد ألف كتاب « حرية الصحافة » هو الذى كان رقيب المطبوعات من ١٧٥٠ — ١٧٦٣ وهى أحرج فترة فى حياة فولتير وديدرو وهلفشيوس وروسو . وكتب مالشرب « فى قرن كان يستطيع فيه كل مواطن أن يتحدث إلى الأمة عن طريق الكتاب فإن هؤلاء الذين أوتوا المقدرة على تعليم الناس وتثقيفهم أو موهبة التأثير فيهم — وفى إيجاز رجال الأدب — وسط شعب مشتت يقومون بالدور الذى

كان يقوم به خطباء رومه وأثينا فى شعب ملتف حولهم » . وشجع مالشرب الحركة الفكرية بمنح « تراخيص ضمنية » للمطبوعات التى لا يمكن أن تحصل فى ظل النظام القائم على ترخيص ملكى أو تنال إستحسان السلطات . ذلك أنه كان من رأيه أن الإنسان الذى لم يقرأ إلا الكتب التى صدرت بموافقة صريحة من الحكومة . . يكون متخلفا عن معاصريه بنحو قرن من الزمان تقريباً»(٣٥) .

وانتهت هذه الفترة السعيدة فى حياة الموسوعة بحادث من أغرب الحوادث فى تاريخ عصر الأستنارة ، ذلك أنه فى ١٨ نوفمبر ١٧٥١ تقدم جان مارتن دى براد للحصول على درجة جامعية من السوربون ، وعرض على رجال اللاهوت رسالة ظاهرها البراءة والخلو من أية شائبة « من ذا الذى نفخ الله فى وجهه روح الحياة » ؟ وبينما كان النعاس يغلب على أعضاء هيئة الإمتحان عرض الراهب الشاب فى لغة لاتينية ممتازة تضاربات زمنية فى الكتاب المقدس ، وهبط بمعجزات المسيح إلى مستوى معجزات أسكولابيوس ، وإستبدل بالوحى لا هوتا طبيعيا متحرراً . وقبلت جامعة السوربون الرسالة ومنحت دى براد الدرجة . وأتهم الجانسنيون الذين كانوا يسيطرون على برلمان باريس الجامعة ، ورأحت الشائعات بأن لديدرو يداً فى الرسالة ، وسحبت الجامعة الدرجة وأمرت بالقاء القبض على الراهب . وهرب دى براد إلى بروسيا حيث آواه فولتير حتى خاف دى لامترى قارئا فردريك الأكبر .

وصعق الأمناء الحراس على الديانة التقليدية إذ رأوا أن دى براد هذا نفسه كان قد كتب مقالة « اليقين » فى المجلد الثانى من الموسوعة الذى صدر فى يناير ١٧٥٢ . وكان فى هذه المقالة أيضا بعض لمحات من ديدرو ، وتعالت الصيحات ضد الموسوعة حتى أن برتييه الذى أطرى هذا المجلد لما فيه من إسهامات كثيرة فى المعرفة ، وجه اللوم إلى المحررين على قطعة ذكر فيها أن معظم الناس ينظرون إلى الأدب بعين الأجلال والأكبار مثلما ينظرون إلى الدين « أى إلى شيء لا يستطيعون أن يعرفوه أو يمارسوه أو يحبوه » .

وقال اليسوعيون أن مثل هذا الكلام يجب لفت نظر المؤلفين والمحررين إليه حتى لا يعودوا يثبتون شيئا من هـذا القبيل فى الموسوعة مستقبلا[٣٦] . وفى ٣١ يناير أتهم كريستوف دى بومونت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينيه : وفى ٧ فبراير صدر قرار من مجلس الدولة يحظر بيع الموسوعة أو نشرها . وفى نفس اليوم كتب مركيز دارجنسون فى صحيفته « صدر فى هذا الصباح قرار من المجلس لم يكن متوقعا يقضى بمنع تداول الموسوعة أو نشرها بسبب مزاعم مروعة : منها الكفر بالله والتمرد على سلطة الملك . وفساد الأخلاق . . . وقيل فى هذا الصدد أن مؤلفى الموسوعة ينبغى إعدامهم فى أقرب وقت[٣٧] .

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد من السوء ، فلم يعتقل ديدرو ، ولكن الحكومة صادرت كل المادة التى كان قد جمعها ، وكتب فولتير من بوتدام يستحث ديدرو على نقل المشروع إلى برلين حيث يمكن النهوض به تحت حماية فردريك ، ولكن ديدرو وقف عاجزا بدون المادة التى صودرت . أما لى بريتون فكان يأمل أن تعدل الحكومة من قرار الحظر بعد سكون العاصفة ، وأيد مالشرب ومركيز دارجنسون ومدام دى بمبادور النداء الذى تقدم به لى بريتون إلى المجلس . وفى ربيع عام ١٧٥٢ وافق المجلس على نشر المجلدات الأخرى « بترخيص ضمنى » وأشارت دى بمبادور على دالمبير وديدروباستئناف العمل « مع تحفظ ضرورى فيما يتعلق بما يمس الدين والسلطة الحاكمة » [٣٨] . ورغبة فى تهدئة خواطر رجال الدين وافق مالشرب على أن يراجع المجلدات التالية ثلاثة من رجال اللاهوت يختارهم الأسقف السابق بوير .

وصدر المجلدان الثالث والرابع فيما بين عامى ١٧٥٣ — ١٧٥٦ ، بعد خضوعهما لرقابة صارمة . وزاد الغضب من إنتشار الموسوعة ، كما أصبحت رمز الأفكار الحرة ، وزاد عدد المشتركين إلى ٣١٠٠ فى المجلد الثالث ، و ٤٢٠٠ فى المجلد الرابع

واجتاز دالمبير المحنة وقد اهتزت أعصابه بعض الشيء ومن ثم فانه ضماناً لسلامته الشخصية إشترط ألا يكون مسئولا بعد الآن إلا عن مقالات الرياضيات ، ومهما يكن من أمر فان ديدرو ظل يناضل الرقابة . وفى ١٢ أكتوبر ١٧٥٢ نشر ظاهريا فى برلين وباسم دى براد « مواصلة الدفاع عن الراهب دى براد » ، وتحدث فيه غاضباً ، مشيراً إلى أن أحد الأساقفة شجب مؤخرا رسالة السوربون : « لست أعلم شيئاً أكثر مجافاة للياقة وأشد خطرا على الدين من هذه الخطب الغامضة التى تهاجم العقل والتى يلقيها بعض رجال اللاهوت . وقد يقول المرء لدى سماعها أن الناس لايستطيعون الدخول فى المسيحية إلا كما يدخل قطيع من الحيوان إلى حظيرة ، وأن على المرء أن يتخلى عن الإدراك السليم وحصافة الرأى ليعتنق ديننا أو يستمسك به . وأكرر القول بأن إقرار هذه المبادىء معناه الهبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، ووضع الزيف والحقيقة على قدم المساواة » (٣٩) .

وتابع فى المجلد الثالث هجماته غير المباشرة على المسيحية ، مغلفة بالجهر بالايمان بالعقيدة القويمة. وأبرزت مقالته « التوقيت الزمنى المقدس » مرة أخرى تناقضات التوراة . وألقت ظلالا من الشك فى نصوص الأسفار المقدسة . وأكدت مقالته عن «الكلدانيين» على إنجازاتهم فى الفلك، ولكنها رثت لخضوعهم للكهنة «أنه لمما يزرى بالعقل ولا يشرفه تقييده فى الأغلال كما فعل الكلدانيون. ولد الإنسان ليفكر لنفسه » وعددت مقالته عن « الفوضى » الاعتراضات على فكرة الخلق وأسهبت — زعما أنها تدحض وتفند — القول فى حجج أبدية المادة . واشتملت على بعض النقاط الخلافية التى تثير الجدل مقالاته الممتازة فى التجارة والمنافسة وأسلوب التأليف والتركيب (فى الرسم) « والكوميديين » أى الممثلين ، وأوضح ديدرو أنه لم يكن رساماً ولا خبيرا باللوحات والرسوم ولكنه اضطر إلى الكتابة فى الموضوع لأن « الهاوى المتبجح » الذى عهد إليه بالكتابة عن أسلوب التأليف فى الرسم ، كان قد قدم موضوعاً تافهاً غير جدير بالنشر . وعبرت مقالة ديدرو عن بعض

أفكار أبهجت فيما بعد « صالونانه » فكانت مقالته عن « الممثلين » إستمراراً لحملة فولتير دفاعاً عن حقوقهم المدنية .

وحظي المجلد الثالث بثناء كبير خفف منه نقد اليسوعين وليلي فرينون فى مجلة « السنة الأدبية » ورفع المشتركون الجدد من قيمة العمل ومكانته : وبدأ ديكلوس ينهض بقسط من الجهد فى إخراج المجلد الرابع ، وفولتير وترجو يشاركان فى المجلد الخامس . وفى أثناء السنوات الأربع الأولى من المشروع كان فولتير مشغولا أو متورطاً فى ألمانيا — أما الآن فى عام ١٧٥٥ فقد استقر به المقام فى جنيف وأرسل منها المقالات عن « الأناقة » و « الفصاحة » و « الذكاء » وكلها تفيض أناقة وفصاحة وذكاء وكتب ديدرو نفسه للمجلد السادس مقالا تحت عنوان « الموسوعة » عده بعض العلماء والباحثين أحسن ماكتب فى المجموعة كلها . وكانت بالفعل من أطول المقالات حيث بلغ عدد كلماتها ٣٤ ألف كلمة ، تحدث فيه عن الصعوبات التى واجهت العمل لامن حيث القوى التى كانت تهدف إلى هدم المشروع فحسب بل كذلك من حيث ضآلة الاعتمادات المالية غير الكافية لدفع أجور المؤلفين ونفقات الطبع ، والعلل الطبيعية التى إنتابت الكتاب حيث أقعدهم المرض أو ضيق الوقت . وأقر العيوب الكثيرة التى صابت المجلدات الخمسة الأولى التى كانت قد أخرجت فى عجالة وخوف ، ووعد بالعمل على ملافاتها ، وفى شيء من الانفعال كتب قانون الايمان الخاص به : إن الغاية القصوى من أية موسوعة هو جمع المعرفة المتناثرة هنا وهناك على الأرض ، وشرحها للمعاصرين ونقلها إلى الأعقاب ، والغرض من ذلك هو ألا تكون جهود القرون الماضية غير ذات نفع للاجيال القادمة وأن يكون خلفاؤنا وقد أصبحوا أكثر ثقافة وأغزر علماً ، فى نفس الوقت أسعد وأكثر تمسكا بالفضيلة ، وألا نفارق الحياة دون أن نحظى بثناء الجنس البشرى وتقديره .

ورأى ديدرو فى الموسوعة لطمة للاعقاب ، ووثق أنهم سيدافعون عنه ويبرئونه ، وتصور ثورة عارمة عطلت مؤقتاً تقدم العلوم وعمل فنون

الصناعة ، و غمرت من جديد بالظلام جزءا من العالم . وراوده أكبر الأمل فى « إعتراف مثل هذا الجيل بفضل أولئك الرجال الذين أوجسو خيفة من هذا الخراب وتوقعوه فجمعوا شتات المعرفة التى تراكمت عبر القرون وحفظوها فى حرز أمين » وقال « إن الأعقاب بالنسبة للفيلسوف هى بمثابة الدار الآخرة بالنسبة لرجل الدين [٤٠] .

وخلق المجلد السابع الذى ظهر فى خريف ١٧٥٧ أزمة أخرى أسوأ مما سبقها . وذلك أن كسنى وترجوكتبا أبحاثاً مستفيضة مشهورة فى شرح سياسة عدم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية ، (مذهب الفيزيوقراطيين فى حرية التجارة والصناعة — ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر) كما أن لويس دى جوكور ، الذى كثيرا ما أسهم الآن فى الكتابة فى الموسوعة ، كتب مقالة موجزة مهينة تحت عنوان « فرنسا » بلغت كلماتها تسعمائة كلمة ولم ترو معظمها شيئاً من تاريخ فرنسا ، بل عددت شوائبها وأخطائها : الافراط الخطير فى عدم المساواة فى توزيع الثروة ، فقر الفلاحين ، وتضخم باريس وتناقص السكان فى الأقاليم . وفى مقال عن « الحكومة » كتب جوكور « أن الخير كل الخير للشعب فى حريته . . . وبدون الحرية تنتفى السعادة فى الدول » وفى هذا المجلد كتب فولتير مقالة عن الفسوق والزنى ، وتفاخر بأنها علمية ، ولكن مقالة « المقاومة » — على الأقل المقالة التى أثارت أشد مقاومة — هى المقالة عن جنيف التى التقينا بها فى محيطها السويسرى . ونسى دالمبير ما أخذ به نفسه من حيطة وحذر وتصميمه على الاقتصار على الرياضات وأثار على نفسه سخط جنيف وباريس كلتيهما حين صور رجال الدين الكلفنيين بأنهم يرفضون ألوهية المسيح .

ورأى جريم على الغدر أن هذه المقالة زلة فظيعة تعوزها اللباقة ، وقال إنها تسبب اهتياجاً وبلبلة . واستنكر أحد اليسوعيين المجلد فى عظة ألقاها أمام الملك فى فرساى . وكتب دالمبير إلى فولتير يقول « إنهم يجزمون بأنى امتدح قساوسة جنيف فى أسلوب يضر بالكنيسة الكاثوليكية » [٤١] . وفى ٥ يناير

١٧٥٧ بذلت محاولة لقتل الملك . فكان رد الملك عليها أنه أحيا قانوناً قديماً يعاقب بالإعدام مؤلفي وناشري وبائعي الكتب التي تهاجم الديانة أو تزعج الدولة ، وزج بعدد من الكتاب في السجن ، ولم يعدم أحد ولكن دالمبير المرهف الحس تولاه الفزع بشكل واضح ، وقطع علاقته بالموسوعة نفوراً من الهياج والصخب (١ يناير ١٧٥٨) . وفقد بعض الوقت قدرته على رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة ، وأتهم مدام بمبادور بمحابات « أعداء الفلاسفة » وتأييدهم ، وطلب إلى مالشرب أن يكبح جماح زعيمهم فريرون . وألح عليه فولتير في عدم الاستقالة ، فأجاب دالمبير في ٢٠ يناير « أنت لاتدرك الوضع الذي نحن عليه ، وصورة غضب السلطات علينا . . . أنا أشك في مواصلة ديدرو العمل بدوني . . . فإذا فعل هذا فإنه يمهد السبيل لسلسلة من المحاكمات والبلايا لمدة عشر سنوات »[٤٣] وكان رعبه قد إزداد في السبعة أو الثمانية أيام التالية « إذا كان الأعداء ينشرون مثل هذه الأشياء اليوم باذن صريح من قبل هذه المراجع المسئولة ، فلن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا يعني إثارة الهياج ضد المجلد السابع ، وألقاءنا في أتون المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن »[٤٣] وأذعن فولتير لرأى دالمبير ، ونصح ديدرو بالتخلي عن الموسوعة ، حيث أنه إذا استمر العمل فيها بأية حال ، فستكون خاضعة لرقابة تقضي على قيمة العمل باعتباره أداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان في فرنسا[٤٤] وأبى ترجو ومارمونتيل وديكلوس وموريللى أن يكتبو أية مقالات أخرى ، وفترت همة ديدرو نفسه لفترة من الزمن ، وكتب يقول « لايكاد يمر يوم إلا وتحدثني نفسى بالذهاب إلى مسقط رأسي في شمبانيا لأعيش منزوياً في هدوء »[٤٥] ولكنه لن يلقى سلاحه ولن يستسلم . وفي فبراير ١٧٥٨ كتب إلى فولتير « أن التخلي عن العمل معناه أن ننقض العهد ونتكص على أعقابنا ونفعل ما يريده منا هؤلاء الأوغاد الذين يضطهدوننا . آه لو علمت كم إبتهجوا وفرحوا عندما علموا باعتزال دالمبير العمل ، وكم من مناورات قاموا بها للحيلولة دون رجوعه إليه !

وفى إجتماع أساقفة فرنسا ١٧٥٨ قدموا إلى الملك منحة اختبارية كبيرة بشكل غير عادى ، وتقدموا إلية برجاء إلغاء « الترخيص الضمنى » الذى يجيز نشر الموسوعة فى فرنسا . وفى ١٧٦٨ شرع أبراهام دى شوميكس فى إصدار سلسلة من النشرات تحت عنوان « أحكام شرعية ضد الموسوعة » وأثار نشر كتاب هلفشيوس « أسس الروح » (٢٧ يوليو ١٧٥٨) مزيدا من الاحتجاجات ، وتورطت الموسوعة فى هذه العاصفة حيث إنتشرت الشائعات القوية بأن ديدرو تربطه بهلفشيوس علاقات وثيقة . وزاد الطين بلة أن روسو الذى كان يكتب للموسوعة مقالات فى الموسيقى ، رفض أن يسهم فى التحرير الآن . وروجت رسالته إلى دالمبز عن العروض المسرحية نبأ إنشقاقه على الفلاسفة . وبدا أن معسكر الموسوعيين قد تمزق . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ حذر وكيل الملك أمير دى فليرى برلمان باريس من أن هناك مشروعاً أعد وجماعة تكونت لنشر المذهب المادى ، والقضاء على الدين ونشر روح الاستقلال ، والعمل على إفساد الأخلاق[٤٦] وأخيراً فى ٨ مارس ، صدر من مجلس الدولة أمر بتحريم الموسوعه تحريماً تاماً ، فلايطبع أى مجلد جديد ، ويمنع بيع أو تداول المجلدات الموجودة . وأوضح القرار أن الفوائد التى تجنى من هذا العمل من حيث تقدم الفنون والعلوم لايمكن بحال من الأحوال أن تعوض عن الأضرار البالغة المتعذر إصلاحها التى تنشأ بالنسبة للعقيدة الدينية والأخلاق[٤٧] .

ولم يتهدد هذا المرسوم سلامة أشخاص الفلاسفة فحسب ، بل تهدد كذلك قدرة الناشرين على الوفاء بديونهم . وكان كثير من المشتركين قد دفعوا قيمة إشتراكهم فى المجلدات التالية ، فكيف يتيسر رد ما دفع مقدماً ؟ فمعظم هذه الأموال أنفق على المجلدات السبعة الأولى ، وعلى الأعداد لاخراج المجلد الثامن الذى كان معدا للتوزيع حيث صدر المرسوم الملكى . وحرض ديدرو الناشرين على ألا يستسلموا ، لعل هذا المرسوم يجرى أيضاً تعديله أو العدول عنه فى الوقت المناسب ، وإلا طبعت المجلدات الباقية فى الخارج .

وبناء على طلب الناشرين لزم ديدرو داره وواصل العمل فى المجلد التاسع . وفى الوقت نفسه بذل مالشرب وآخرون غيره أقصى الجهد فى تسكين غضب الحكومة .

وهنا — فى صيف ١٧٥٩ ظهرت فى باريس نشرة سرية غفل الاسم ، تحت عنوان مذكرة إلى « فرنسوا شوميكس » وهى قطعة مملة عنيفة فى موقف واحد ، تهاجم فى أقذع الإهانة والسباب ، لا الحكومة والبرلمان واليسوعيين والجانسنيين وحدهم ، بل هاجمت المسيح وأمه كذلك . وقال ديدرو « إن العمل منسوب إلينا بما يشبه الاجماع » ، [٤٨] وقصد إلى مالشرب وإلى مدير الشرطة وإلى المحامى العام للبرلمان وأقسم أنه لاعلاقة له بتفجر الإلحاد فى الشوارع على هذا النحو ، وصدقه أصدقاؤه ، ولكنهم نصحوه بمغادرة باريس فأبى الهروب ، محتجاً فإن فى الهروب إعترافا بالذنب . وحذره مالشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ، ومن ثم ينبغى إخفاؤها . فتساءل الثائر الحائر المنزعج « ولكن أين أخفيها ؟ » وكيف يتسنى له فى ساعات قلائل أن يوفق إلى مكان يخفى فيه كل هذه المادة التى جمعها ؟ فقال مالشرب « أرسلها إلى أنا ، لن يأتى أحد ليفتش عنها هنا[٤٩] » . وفى الوقت نفسه عثر رجال الشرطة على طابعى النشرة المخزية ، وانتهوا إلى أن ديدرو لم يكن له صلة بها ، ولم يصدر أمر بمصادرة أوراقه ، وتنفس الصعداء ولكنه أشرف على الإصابة بانهيار عصبى . وصحبه صديقه الغنى دى هولباخ لقضاء عطلة فى بعض الأماكن القريبة من باريس . وكتب ديدرو « حملت معى إلى كل مكان قصدناه خطى مضطربة متعثرة ونفساً مكتئبة »[٥٠] .

وعاد ديدرو إلى باريس ، ووقع مع الناشرين عقداً جديداً لإعداد تسعة مجلدات إضافية من الموسوعة لقاء مبلغ ٢٥ ألف جنيه . وعرض دالمبير أن يستأنف مسئوليته عن مقالات الرياضيات ، ووجه ديدرو إليه اللوم على تخليه عن العمل فى وقت المحنة حين حمل عليه العدو ، ولكنه قبل إسهامه

فى الموسوعة ، وكذلك إنضم إليهم فولتير . وكان ديدرو يأمل أن يكمل المجلد السابع عشر والأخير فى ١٧٦٠ . ولكنه فى سبتمبر ١٧٦١ . كتب يقول « إنتهت المراجعة المزعجة ، حيث قضيت فيها خمسة وعشرين يوماً متصلة بمعدل عشر ساعات فى اليوم »(٥١) وظل لعشرة أيام أخر حبيساً فى داره لمراجعة اللوحات والرسوم . وتم طبع المجلدات من الثامن إلى السابع عشر فى تعاقب سريع فى باريس ، ولكنها موسومة بعلامة تشعر بأنها نشرت فى نيوشاتل ، وتغاضى سارتين مدير عام الشرطة الجديد عن هذه الخدعة أو التضليل (٥٢) ومهد الطريق لهذا طرد اليسوعيين من باريس ١٧٦٢(*) وفى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت كترين قيصرة روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة فى سان بطرسبرج ، وجاء مثل هذا العرض من فردريك الأكبر عن طريق فولتير . وربما استحثت هذه الاقتراحات الرجال الرسميين فى فرنسا على إجارة الطبع فى باريس . وظهر المجلد الأخير من النصوص فى ١٧٦٥ ، وأضيف أحد عشر مجلدا للوحات والرسوم فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٢ وصدر ملحق من خمسة مجلدات ، مجلدان لفهرس الموسوعة فيما بين عامى ١٧٧٦ — ١٧٨٠ وطلب إلى ديدرو تحريرها ولكنه كان منهوكا مرهقاً فرفض ، فان أهم مشروع نشر فى هذا القرن إستنزف قواه ، ولكنه خلد ذكره بالقدر الذى تسمح به تقلبات المدنية .

(*) إن القصة الطريفة التى تقول بأن مدام بمبادور أقنعت لويس الخامس عشر بالتخلى عن معارضته فى نشر المجلدات من الثامن إلى السابع عشر باطلاعه على مقالة « البارود » قصة مرفوضة الآن بصفة عامة على أنها من نسج خيال فولتير(٥٣) والقصة مذكورة فى المجلد الثامن والأربعين من طبعة بيشو لأعمال فولتير ، وفى كتاب جونكور « مدام دى بمبادور » ص ١٤٧ .

٤ — الموسوعة نفسها

إن كل محتويات الموسوعة تقريبا نسختها الثورة الفكرية التى ساعدت على إذكاء نارها ، ولكنها تسترعى إنتباهنا لمجرد أنها أحداث فى تاريخ الأفكار ، وأسلحة استخدمها الفلاسفة فى صراعهم مع المسيحية الوحيدة التى عرفوها . وقل إن كان الهجوم مباشرا كما رأينا وكانت مقالتا « المسيح والمسيحية » وكلتاهما بقلم ديدرو . فويمتين تقليديتين فى جوهرهما . وامتدح المقالة الثانية أحد الرهبان الإيطاليين . وكتب نفر من الكهنة مقالاتللموسوعة، ومن ذلك أن الراهب يفون كتب مقالة بعنوان « الملحدون » ولم تؤيد الموسوعة الإلحاد بل الربوبية . ومهما يكن من أمر فإن المراجع المفترضة كانت فى بعض الأحيان مضللة ، ملحقة بمقالة تقليدية رشيدة . وكثيرا ما أشارت إلى مقالات أخرى تثير الشكوك . من ذلك أن المقالة المثالية عن « الله » أشارت إلى مقالة « البرهان » التى أوردت قواعد للبرهنة فيها تشويه للمعجزات والأساطير . وفى بعض الأحيان شرحت أقل العناصر إعتدالا ومعقولية فى العقيدة المسيحية فى قبول ظاهر . ولكن بطريقة تستدعى الإرتياب والجدل . ورفضت المبادىء الصينية أو الإسلامية المماثلة للنظريات المسيحية باعتبارها غير عقلانية . وارتفعت الصيحات بأن مقالة « الكهنة » غير ودية . ويحتمل أن دى هولباخ هو الذى دبجها . لأن الفلاسفة كانوا يمقتون رجال الدين بوصفهم أعداء للفكر الحر ومشجعين على الاضطهاد وزعم المؤلف أنه إنما كان يكتب عن رجال الدين الوثنيين : « إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة . ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة . واعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص . ومن هنا كان للكهنة نصيب فى إجلال الناس لله . وبدت المناصب العادية التى يشغلونها أدنى مستوى منهم . واعتقد العامة أنهم مرغمون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما يعولهم ... وكأنهم ودائع ينفذون وصية الله . ووسطاء بين الآلهة والناس .

وعمد الكهنة . لكى يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم . إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبون للإنتقام لا يستشعرون الرحمة . وأدخلوا

المراسم والطقوس والشعائر والأسرار التي يمكن أن تبعث فظاعتها في نفوس الناس الإكتئاب الرهيب الملائم كل الملاءمة لدنيا التعصب . ثم تدفق الدم البشرى الغزير فوق المذابح . وظن الناس ، وقد ملأهم الخوف بالجبن وأعماهم الخرافة . أنه لن يكون أى ثمن يدفعونه غاليا فى سبيل الحظوة برضا الأرباب . وأسلمت الأمهات أطفالهن الصغار دون أن يذرفن دمعة واحدة ، إلى النيران الملتهبة . وسقط آلاف الضحايا تحت سكين القربان المقدس ... وكان من الميسور على الرجال الذين كانوا موضع الإجلال والإحترام إلى هذا الحد . أن يبقوا طويلا داخل حدود الخضوع الضرورى للنظام الإجتماعى . فإن الكهنة الذين أسكرتهم السلطة كثيرا ما نازعوا الملوك حقوقهم . وأمسك التعصب والخرافة بالسيف مصلتا على رؤوس الملوك واهتزت العروش حين رغب الملوك فى كبح جماح أو معاقبة الرجال المقدسين الذين كانت مصالحهم متشابكة مع مصالح الآلهة ... كان الحد من سلطانهم يعنى تقويض أركان الديانة . » (٥٤) .

وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة فى العلوم والفلسفة ومناهجهما . وكان الفلاسفة يحلمون باحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة . وحظيت العلوم بتفسيرات وشروح مسهبة . مثال ذلك أن ستة وخمسين عمودا خصصت «للتشريح» . وتحت بند « الجيولوجيا » كتبت مقالات مطولة عن المياه المعدنية والمعادن والطبقات وأنهار الجليد والأحافير والمناجم والزلازل والبراكين والأحجار الكريمة . وكان لزاما أن توضع الفلسفة فى النظرة الجديدة إليها على أساس من العلوم تماما . وينبغى ألا تبنى « نظما » ويجب أن تتجنب الميتافيزيقا ويجب ألا تتحدث بلغة الأساقفة عن منشأ العالم ومصيره . وشنت مقالة « المدرسة » هجوما مباشرا على الفلاسفة السكولاسيين (المدرسيين) على إعتبار أنهم تخلوا عن البحث عن المعرفة ، واستسلموا للاهوت . وضيعوا أنفسهم ، وهم آمنون فى المنطق الواهى مثل خيوط العنكبوت ، وسط غيوم الميتافيزيقا .

ودبج ديدرو سلسلة من المقالات الممتازة فى تاريخ الفلسفة ، استندت

كثيرا على كتاب جوهان جاكوب بروكر « تاريخ النقد الفلسفى » (١٧٤٢ — ١٧٤٤) ولكنها كشفت عن بحث أصيل فى الفكر الفرنسى ، وشرحت المقالات التى كتبت عن مدرسة إلياوأبيقور المذهب المادى . وأفرطت بعض المقالات فى إطراء برونو وهوبز . وباتت الفلسفة عند ديدرو ديانة . « والعقل للفليسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح » (٥٥) . وصاح « فلنسارع لنجعل الفلسفة شعبيه » (٥٦) . وفى مقالة « الموسوعة » كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون « اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة ، وتخضع لسلطانها كل الأشياء التى تهمها ، وحين يكون صوتها عاليا مدويا ، وتشرع فى طرح نير السلطة والتقاليد وتستمسك بقوانين العقل ... » وهنا كانت العقيدة الجريئة الجديدة مع ثقة فتية شابة قليلا ما توجد ثانية . وربما كان يفكر فى حاميته الإمبراطورية فى روسيا ، فأضاف مثل أفلاطون » وحدوا بين حاكم (كترين الثانية) وبين فليسوف من هذا الطراز (ديدرو) ومن ثم تجدون ملكا بلغ درجة الكمال (٥٧) .

وإذا حل مثل هذا الفليسوف محل كاهن اعتراف مرشد وموجه للملك ، فلابد أن ينصحه أول ما ينصح باطلاق الحرية ، وبخاصة حرية الكلام والصحافة « إن أحداً لم يتلق من الطبيعة حق التحكم فى الآخرين » (٥٨) وفى هذا تعريض شديد بحقوق الملك الألهية أما بالنسبة للثورة : « إن السلطة التى يتم الإستيلاء عليها عن طريق العنف ليست إلا اغتصابا ، لا تدوم إلا بقدر تفوق قوة من سيطر على قوة من أذعنوا له . فاذا توافر لهؤلاء الآخرين قسط كبير من القوة وتخلصوا من نير من تسلط عليهم من قبل فإنهم يفعلون بحكم الحق والعدل مثل ما فعل هذا الذى كان قد تحكم فيهم وفرض عليهم سلطانه من قبل . إن نفس القانون الذى فرض السيادة هو الذى يحطمها ويبطلها ، وهو قانون الأقوى ، ... ومن ثم فإن السلطة الحقيقية الشرعية لها بالضرورة حدود وقيود ... إن الأمير (الملك) يتلقى من رعاياه السيادة التى يمارسها عليهم . وهذه السيادة محدودة بقوانين الطبيعة وقوانين الدولة ... إن الدولة لا تتبع الأمير ، بل إن الأمير هو الذى يتبع الدولة وينتسب إليها (٥٩) .

ولم تكن الموسوعة إشتراكية ولا ديموقراطية ، بل إنها قبلت الملكية ،

ونبذت نظرية المساواة التى شرحها روسو بقوة ١٧٥٥ . ودافعت مقالة جوكور « المساواة الطبيعية » عن المساواة أمام القانون ، ولكنها استطردت تقول « إنى أدرك تمام الإدراك ضرورة تباين الأحرال والدرجات والمقامات والطبقات والإمتيازات والتبعية التى يجب أن تسود فى كل الحكومات » (٦٠) واعتبر ديدرو آنذاك أن الملكية الخاصة أساس لا غنى عنه للمدنية (٦١) على أن مقالة « الإنسان » على أية حال كانت لها وقفة مع الشيوعية : « إن الربح الصافى للمجتمع إذا وزع توزيعا عادلا بالتساوى قد يكون مفضلا على ربح أكبر إذا لم يوزع على قدم المساواة ، ومن ثم تكون نتيجته تقسيم الشعب إلى طبقات » . وعند التحدث عن الملاجىء قيل « قد يكون السعى إلى منع الفقر والبؤس ذا قيمة أكبر من مضاعفة الملاجىء لإيواء البؤساء » (٦٢) .

إن الملك الفليسوف قد يفحص من وقت لآخر شئون الإقطاع ويلغى الإمتيازات الإقطاعية التى لم تعد تتكافأ مع خدمات السادة الإقطاعيين للفلاحين أو للدولة (٦٣) . وقد يجد بديلا إنسانيا للعمل الإجبارى ، أى نظام السخرة ، ويحرم تجارة الرقيق ، ويضع حداً ، كلما اتسع سلطانه ، للحروب بين الأسرات المتنافسة والصراعات التى يمليها الجشع ، ويسعى إلى تطهير المحاكم من الفساد ، ويوقف بيع الوظائف ، ويخفف من وطأة قانون العقوبات وعلى الأقل يضع حداً للتعذيب القضائى . وعليه ، بدلا من العمل على استدامة الخرافة وانتشارها ، أن يبذل أقصى جهوده فى أن يدفع إلى الأمام هذا العصر الذهبى الذى يمكن أن يتحالف فيه فن الحكم وسياسة الدولة مع العلم فى حرب متصلة ضد الجهل والمرض والفقر .

وكانت الأفكار الإقتصادية فى الموسوعة فى جملتها هى أفكار الطبقة الوسطى التى ينتمى إليها معظم الفلاسفة . وهى على الأغلب آراء الفيزيوقراطيين التى سيطرت بزعامة كنى وميرابو الأب على النظرية الإقتصادية فى فرنسا فى أواسط القرن الثامن عشر . فقد ساد الإعتقاد بأن حرية العمل والمشروعات — ومن ثم التجارة الحرة والمنافسة الحرة — أمر حيوى بالنسبة للأحرار من الناس . ولذلك كانت النقابات وهى عوائق لهذه كلها ، غير مرغوب فيها ولا يتقبلها أحد . وقدر لهذه الأفكار أن تبرز على مسرح التاريخ فى وزارة

ترجو ١٧٧٤ ونبهت الموسوعة الأذهان إلى التكنولوجيا الصناعية وأولتها عناية متحمسة ، وهى التكنولوجيا التى بدات تغير وجه الإقتصاد فى إنجلترا وفرنسا . واعتقد ديدرو أن الفنون الميكانيكية يجب إكبارها والرفع من شأنها باعتبارها تطبيقاً للعلوم ، والتطبيق بالتأكيد ذو قيمة كبيرة مثل النظرية تماما . « ما هذا الحمق فى قراراتنا وتقديراتنا ! إننا نحض الناس على أن يشغلوا أنفسهم بما يفيد وينفع ، ثم نحتقر الرجال النافعين » (٦٤) . وكان يأمل فى أن تكون الموسوعة مستودعا جامعا مانعا للتكنولوجيا حتى إذا وقعت بالفنون الميكانيكية كارثة دمرتها أمكن بناء هذه الفنون من جديد بفضل مجموعة باقية من مجلدات الموسوعة . وكتب هو نفسه مقالات مطولة بذل فيها جهداً كبيراً عن الصلب والزراعة والإبر والبرونز وآلة النقب والقمصان والجوارب والأحذية والخبز . وأعجب بعبقرية المخترعين وبمهارة الحرفيين . وقصد بنفسه أو أرسل مساعديه إلى المزارع والحوانيت والمصانع لدراسة العمليات والمنتجات الجديدة ، وأشرف على حفر الرسوم والنقوش التى قارب عددها ألفا والتى جعلت من مجلدات اللوحات الأحد عشر إحدى العجائب من نوعها فى ذلك العصر . وكانت الحكومة فخورة بأن يشمل هذه المجلدات الأحد عشر الإذن الملكى بطبعها ونشرها . وقد ضمت خمساً وخمسين لوحة عن صناعة النسيج وإحدى عشرة لوحة عن سك العملة وعشرا عن الصناعات الحربية ، وخمسا عن البارود ، وثلاثا عن صناعة الدبابيس . وكانت هذه اللوحات الثلاث الأخيرة مصدراً لمقالة آدم سميث الشهيرة عن توزيع العمل إلى « ١٨ عملية متميزة » فى إنتاج الدبوس (٦٥) . قال ديدرو : « من أجل الحصول على هذه المعلومات كنا نقصد إلى أقدر الحرفيين فى باريس وفى سائر أنحاء المملكة ، وحرصنا على أن نوجه إليهم الأسئلة ونكتب ما يملون علينا . ونحصل منهم على المصطلحات المستخدمة فى حرفهم . وفى مقابلات طويلة كثيرة مع مجموعة واحدة من العمال كنا نستكمل ما قد يكون الآخرون قد شرحوه بشكل ناقص أو غامض أو أحيانا غير دقيق . وأرسلنا إلى الحوانيت حفارين ورسامين رسموا الآلات والأدوات دون أن يحذفوا شيئا يمكن أن يجعلها واضحة تمام الوضوح أمام الأعين . » (٦٦)

وفى ١٧٧٣ ، عندما طلب سلطان تركيا إلى بارون دى توت أن يصنع المدافع لحصون الدردنيل استخدم البارون مقالة « المدافع » فى الموسوعة مرشدا دائما يسترشد بما جاء فيها . (٦٧)

وبعد أن فرغ ديدرو من إعداد النص كاملا ، أصيب بنكسة زلزلت كيانه وحطمت روحه ، ذلك أنه وهو يراجع إحدى المقالات اكتشف أن أجزاء كثيرة من أوراق التجارب التى كان قد صححها واعتمدها حذفت أو سقطت عند الطبع . وأظهرت مراجعة بعض المقالات الأخرى أن حذفا مماثلا جرى فى المجلدات من التاسع إلى السابع عشر . وجرى الحذف والتعديل عادة فى أجزاء ربما أثارت مرة أخرى رجال الدين أو البرلمان . وجرى الحذف دون اعتبار للمنطق أو السياق فى الجزء الباقى من المقالة . واعترف لى بريتون بأنه عمد إلى هذه العملية الجراحية (الحذف) لينقذ الموسوعة مما قد تتعرض له من محن ، وينقذ نفسه من الإفلاس . وروى جريم نتيجة هذا العمل « لقد جن جنون ديدرو عند اكتشاف هذا التصرف ، ولن يغيب عن ذاكرتى مطلقاً هذا الذى حدث له وظل لعدة سنين يصرخ فى وجه لى بريتون « لقد كنت تخدعنى بشكل مخز ودنىء .... وضيعت جهود عشرين من أفاضل الرجال ، الذين خصصوا كل وقتهم وقدراتهم ومواهبهم ونشاطهم حبا فى الحق وجريا وراء الحقيقة ، يحدوهم مجرد الأمل فى وصول آرائهم إلى جمهور الناس ، ولا يريدون منها إلا أيسر الجزاء بثمن غال ... ولسوف يذكرونك منذ الآن رجلا اقترف جريمة الخيانة ، وتصرف تصرفا وقحا كريها ، مما لا يقارن به أى شىء حدث فى هذا العالم » (٦٨) . ولم يغتفر ديدرو لبريتون هذه الزلة قط » .

إننا لو ألقينا نظرة فاحصة إلى هذا العمل ، سواء من حيث تاريخه أو محتوياته : لأدركنا أنه المشروع البارز الرائع فى عصر الإستنارة فى فرنسا ، ومنذ كان ديدرو فيه رئيسا لا غنى عنه ، كانت مكانته تجىء بعد فولتير وروسو فى الصورة العامة الشاملة للحياة الفكرية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .. وكانت مثابرته على تحرير الموسوعة عملية متشعبة الأطراف مضنية . إنه أثبت المراجع المتعارضة وصحح الأخطاء وقرأ تجارب الطبع ، وطاف

بأرجاء باريس يبحث عن الكتاب ويستحثهم . ودبج بقلمه مئات المقالات في حالة عدم العثور على الكتاب أو عجزهم عن الكتابة . وكان المرجع الأخير إذا قصر الآخرون ، ومن ثم نجده يكتب فى الفلسفة والفن والمسيحية ، والأصلة العاصرة (نوع من الحيات الضخمة الماحقة) والجمال وأوراق اللعب ومصانع الجعة والخبز المقدس . وسبقت مقالته عن « التعصب أو عدم التسامح » رسالة فولتير فى نفس الموضوع ، وربما أوحت ببعض الأفكار الواردة فيها . وزخر الكثير من مقالاته بالأخطاء ، وكان بعضها عدائيا غير منصف بشكل مشوش ، مثال ذلك مقالته عن اليسوعيين ، ولكنه كان فى عجلة من الأمر ، على حذر يستعد للنضال . كما كانوا يطاردونه ، وكان يحارب بكل سلاح فى متناول يده .

أما وقد خفت حدة المعركة ، ففى مقدورنا أن نتبين مواطن الضعف فى الموسوعة . ففيها ألف خطأ فى إيراد الحقائق ، وفيها تكرارات طائشة غير مدروسة وحذف فاضح . وكان فيها انتحالات جوهرية ، كما أوضح الباحثون اليسوعون «وكانت بعض المقالات» لوحة من المسروقات أو الإقتباسات(٦٩) . وفى ثلاثة أعداد من صحيفة تريفو أورد برتييه ، استناد إلى مراجع دقيقة ومقتبسات متطابقة أكثر من مائة من الانتحالات فى المجلد الأول وكان معظم هذه المسروقات مختصرا غير ذى أهمية ، ولكن بعضها إمتد إلى ثلاثة أو أربعة أعمدة منقولة بالحرف الواحد .

وكان فى الموسوعة شوائب فكرية خطيرة . ومن ذلك أنه كان لدى المؤلفين فكرة بالغة السذاجة عن الطبيعة البشرية ، وتقدير متفائل إلى حد بعيد لأمانة العقل وإدراك غامض غاية الغموض لضعف هذا العقل وهشاشته أو سهولة إنقياده ، ونظرة عامة متفائلة أكثر مما ينبغى إلى كيفية استخدام الناس للمعرفة التى يزودهم بها العلم . إن الفلاسفة بصفة عامة وديدرو بصفة خاصة ، كانت تعوزهم الحاسة التاريخية . إنهم قليلا ما توقفوا ليبحثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التى حاربوها ، وأية حاجات بشرية ، لا إبتداعات كهنوتية انتجتها وهيأت لها الدوام . وعميت أبصارهم تماما عن إسهام الديانة الضخم فى النظام الإجتماعى وفى الأخلاق وفى الموسيقى والفنون ، وفى

تخفيف الفقر والشقاء . إن تحاماهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً إدعاء النزاهة أو عدم التحيز الذى ينبغى أن نعتبره الآن عنصراً أساسيا فى الموسوعة الجيدة . وعلى الرغم من أن بعض اليسوعيين مثل برتييه ، كانوا فى الغالب منصفين فى نقدهم للموسوعة ، فإن معظم نقادنا كانوا متحيزين مثل الفلاسفة .

وأحس ديدرو إحساسا قويا بالأخطاء الحقيقية الفعلية فى الموسوعة فكتب فى ١٧٥٥ : إن الطبعة الأولى من موسوعة لا يمكن إلا أن تكون جمعا وتصنيفا مشوهين ناقصين ، [٧٠] وتوقع أن تحل محلها وشيكا طبعة أخرى مصححة . وحتى مع هذا شق هذا الإنتاج الضخم طريقه إلى الأوساط الفكرية فى القارة . وأعيد طبع المجلدات الثمانية والعشرين ثلاث مرات فى سويسرا ، ومرتين فى إيطاليا ، ومرة فى ألمانيا ، ومرة فى روسيا ، وعادت الطبعات المنتحلة إلى فرنسا لتنشر تأثير الأفكار المهربة . وبلغ عدد الطبعات ثلاثا وأربعين طبعة على مدى خمسة وعشرين عاما — وهو رقم قياسى لمثل هذه المجموعة الغالية الثمن . وكان أفراد الأسرة يجتمعون فى المساء ليقرأوا الموسوعة وتألفت مجموعات متلهفة على دراستها . وأشار توماس جفرسون على جيمس ماديون بشرائها .

والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير ، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم فى الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوربا مثل ريح محملة بلقاح جديد ، تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة .

إن الموسوعة كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية »

* * *

الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ – ١٧٧٣

١ – القائل بوحدة الوجود

إننا نسميه بروتية Proteus لأنه مثل إله البحر عند هوميروس ، حاول أن يفلت من أيدى صائديه بالتشكل فى مختلف الأشكال.[١] أما فولتير فقد أطلق على ديدرو اسم بانتوفيلس ، لأنه أولع بكل فروع العلوم والأدب والفلسفة والفن . وكان له بكل هذه المجالات معرفة واسعة ، وأسهم فى كل واحد منها إسهاماً مثيراً موحيا . وكانت الأفكار هى كل زاده وعتاده . فجمعها وتذوقها وفحصها . ثم سكبها مشوشة تشويشا مسرفا حيثما وجد قرطاساً خالياً أو آذانا صاغية « إنى أضع أفكارى على الورق ولتكن ما تكون »[٢] وربما أصبحت أعداء . ولم ينسق قط بينها ولم يهتم قط بترابطها . ويمكن أن نقتبس عنه فى أى اتجاه تقريباً ، ولكن نزعته المركبة كانت جلية واضحة . وكان أكثر أصالة من فولتير ، وربما كان السبب فى هذا أنه لم يرتض قط المعايير التقليدية . وقد يطلق لنفسه العنان دون قيود مقبولة . وتتبع كل نظرية أنى قادته ، أحياناً إلى أعماقها وأحياناً أخرى إلى حثالتها . وتعرف على كل وجهات النظر إلا وجهات نظر القسيس والقديس لأنه لم يكن لديه حقائق أو أشياء يقينية « أنى لا أهتم بتشكيل السحب أكثر منى بتبديدها ، وتعطيل القرار أو الحكم ، لا باتخاذه .. أنا لا أقرر ، بل أتساءل[٣] أنا أترك ذهنى يهيم إلى حد السرف ، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة ، تأتى أو تقفز إلى ذهنى أولا ، وأتعقبها كما يتعقب الشباب الداعر محظية بائسة وهى تبتسم ، وتتلألأ عيناها وتنظر بازدراء ... إن أفكارى هى محظياتى[٤].

وكان لديدرو خيال عقلانى ، فتخيل الأفكار والفلسفات والشخصيات كما يتخيل الآخرون الأشكال والمشاهد . ومن غيره كان يستطيع فى زمانه أن يتصور « أين أخى رامو » المخزى اللا أخلاقى الفاتن . إنه بعد أن يخلق أحد شخوصه يدعه ينمو ويتطور وكأنما يفعل ذلك طواعية واختياراً . ثم يدع هذه الشخصية تقوده ، وكأنما المؤلف هو الدمية المتحركة أو الألعوبة . إنه تخيل نفسه فى مكان راهبة شابة كارهة ثم جعلها حقيقة إلى حد أن المتشككين الفرنسيين تولاهم الجزع لمحنتها . أنه جرب الأفكار تجريبا عقلياً ، وتمسك بها بعض الوقت ، وتخيل نتائجها منطقيا أو عمليا ، ثم طرحها جانبا. وما كادت توجد فكرة فى هـــذا العصر إلا دارت بخلده . أنه واقعيا لم يكن مجرد موسوعة متحركة ، بل كان معملا متنقلا . سارت أفكاره معه أينما سار .

وهكذا فإن ديدرو فى كتابة « بعض الأفكار فى تفسير الطبيعة » الذى نشره فى ١٧٥٤ غفلا من اسم المؤلف ، بترخيص ضمنى من الرقيب الكريم المحسن مالشرب — تلاعب بأفكار عن الأحدية (القول بأن ثمة مبدأ غائيا واحداً ، كالعقل أو المادة . القول بأن الحقيقة كل عضوى واحد) . والمادية والآلية والحيوية (المذهب الحيوى الذى يقول بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتمادا كليا على العمليات الفيزيائية والكيميائية) والتطور . وكان لا يزال متأثراً ببيكون وأخذ عنه العنوان والصيغة الحكيمة ودعوة رجال العلم ليتكاتفوا فى العمل على قهر الطبيعة عن طريق التجريب والعقل . وتأثر كذلك بكتاب موبرتيوس « منهج عام للطبيعة » (١٧٥١) وكتاب بيفون (التاريخ الطبيعى (١٧٤٩) . واتفق مع موبرتيوس على أن كل مادة قد تكون حية ، ومع بيفون فى أن علم الحياة (البيولوجيا) مستعد الآن للتحدث إلى الفلسفة . ورحب عند المؤلفين كليهما بفرضية التطور الناشئة.

وبدأ ديدرو بمخطط ضخم : (إنها الطبيعة هى التى أريد أن أصفها ، إن الطبيعة هى الكتاب الوحيد أمام الفيلسوف) (٥) وتصور أن الطبيعة قوة

نصف عمياء ونصف ذكية ، تؤثر فى المادة و تبعث فيها الحياة ، و تهيء للحياة مليون شكل تجريبى ، وتدخل التحسين على هذا العضو . وتنبذ ذاك العضو ، تحيى وتميت بشكل مبدع . وفى هذا المعمل الكونى ظهرت واختفت آلاف الأنواع .

(أنه مثل ما هو حادث فى مملكتى الحيوان والنبات ، ينشأ فرد وينمو ويبقى ثم يهلك ويزول ، فهلا يمكن أن تكون كل الأنواع على هذا المنوال؟ إذا لم تعلمنا العقيدة أن الحيوانات تأتى عن يدى الخالق كما نراها ، وإذا كان هناك أدنى شك فى بدايتها ونهايتها ، فهلا يفترض الفيلسوف المستسلم لخواطره أن الحيوانية أخذت عن كل الأبدية كل العناصر الخاصة بها ، ثم تبعثرت و اختلطت بكتلة المادة ، وحدث أن هذه العناصر اتحدت كلما أمكن حدوث هذا الاتحاد ، وأن الجنين الذى تكون من هذه العناصر مر بتنظيمات وتطورات لا حد لها ، وأنه اكتسب على التوالى حركة وأفكاراً وتفكيراً وتأملا ووعيا ومشاعر وانفعالات ورموزا وإيماءات وأصواتا واضحة ولغة وقانونا وعلوما وفنونا ، وأن ملايين من السنين انقضت بين هذه التطورات ، وأنه قد لايزال أمام هذا الكائن تطورات أخرى يمر بها وأضافات أخرى يتلقاها ، غير معروفة لنا الآن . . وأنه قد يفقد هذه المواهب والقدرات كما اكتسبها ، وأنه قد يختفى إلى الأبد من الطبيعة ، لا بل إنه قد يبقى على قيد الحياة فى شكل آخر بمواهب وقدرات مختلفة كل الاختلاف عما نراه فيه فى هذه اللحظة من الزمان ؟ [٦]

إن الطبيعة عند ديدرو هى كل شيء وهى إلهه . ولكننا لا نعرف عن جوهرها إلا وفرتها المضطربة والتغير الدائب الذى لا يهدأ فيها . والطبيعة هى المادة الحية . ولكن المادة تحتوى فى نفسها على اندفاع الحياة وعلى إمكانية التفكير . وليس الإنسان آلة كما أنه ليس روحا غير مادية ، والجسم والنفس كائن واحد ويفنيان معا (إن كل شيء يدمر نفسه ثم يهلك

ولا يبقى إلا العالم ، ولا يثبت إلا الزمان [٧] والطبيعة محايدة ولا تعمد إلى التفريق بين الخير والشر والكبير والصغير والآثم والقديس . أنها تعنى بالأنواع الفرد . فلينضج الفرد ويتكاثر ثم ليمت ولسوف يفنى كل نوع كذلك . أن الطبيعة حكيمة فى عدد لا يحصى من التفاصيل البارعة التى يبدو أنها تكشف عن التخطيط. إنها تمنح الكائنات غرائز تمكنها من الحياة ومن تهيئة الحياة لغيرها ، ولكن الطبيعة أيضاً عمياء تدمر الفلاسفة والحمقى على حد سواء ، بقذيفة واحدة من النار أو بضربة واحدة من يدها على أديم الأرض ، ولن يكون فى مقدورنا أن نفهم الطبيعة ولا أن نكشف النقاب عن أغراضها أو معناها إذا كان لها ثمة أغراض أو معنى ، لأننا نحن أنفسنا طوال تاريخنا الدموى الجليل من بين ألعابها أو رياضاتها العابرة المتناهية فى الصغر .

٢ — حلم دالمبير

تابع ديدرو تأملاته فى الطبيعة فى واحد من أغرب المؤلفات فى الأدب الفرنسى — حلم دالمبير (وامتاز ديدرو بعرض أفكاره فى صورة حلم ، ودس الحلم على صديقه بأن جعل اثنين من مشاهير المعاصرين — جولى دى لسبيناس ودكتور تيوفيل دى بوردو — متحدثين فى الحوار . وقال ديدرو لخليلته « إنى أضع أفكارى على لسان رجل يحلم . وغالبا ما يكون ضروريا أن نضفى على الحكمة جوا من السخف والحمق حتى نهيىء لها مدخلا » [٨] وتحت هذه الأقنعة أطاق العنان لخياله الفلسفى غير مبال بأى خطر شخصى أو أية نتائج اجتماعية ، وكان مسروراً غاية السرور بالنتيجة . ووصفه صوفى فوللاند بأنه (أكثر ماكتب حمقا وعمقا ، فيه خمس أو ست صفحات تجعل شعر رأسك ينتصب » [٩] على أنه أكد لها أنه لم يتضمن كلمة واحدة خاطئة [١٠]. أنه كتبه فى عام ١٧٦٩ وقرأ أجزاء منه على أصدقائه ، وفكر فى طبعه ، والمفروض فى الخارج . فاحتجت الآنسة دى لسبيناس لأسباب سوف تتضح فيما بعد . وفى حركة بطولية ألقى بالمخطوطة فى النار ، وربما كان يعلم أن هناك نسخة أخرى . وعلى أية حال طبع الكتاب فى ١٨٣٠ .

أنه عمل ثلاثى . وفى « المحادثة » الأولية بين ديدرو ودالمبير يعترض العالم الرياضى على مذهب صديقه المادى الحيوى بأنه ليس مقبولا أكثر من قبول مفهوم الله عند رجال اللاهوت فى القرون الوسطى . يقول ديدرو : « ليس بينك وبين الحيوان إلا فارق واحد فى الكائن الحى (درجة التطور العضوى) وكذلك الحال بين الحيوان والنبات » . ومن ثم فإن كل شىء فى الإنسان يجب أن تكون له بذرته أو نظيره فى النباتات» . ويسأل دالمبير : وفى المادة أيضاً ؟ فيرد ديدرو بالإيجاب ، لأنك « كيف تعرف أن الوجدان لا يلتئم مع المادة—أنت الذى لا تعرف جوهر أى شىء لا المادة ولا الوجدان؟ وليس ثمة إلا جوهر واحد فى الكون فى الإنسان وفى الحيوان [١١] » .

ويبرز الجزء الثانى من هذه الثلاثية دكتور بوردو والآنسة دى لسبيناس إلى جوار سرير دالمبير وهو نائم بعد أمسية قضاها فى الجدل والحوار مع ديدرو (وكانت الآنسة وقد اشتهرت فعلا بصالونها تقيم مع دالمبير فى لون من الحياة الأفلاطونية) . وتروى للطبيب أن صديقها رأى فيما يرى النائم حلما مزعجاً وأنه تحدث فى نومه حديثا غريبا وأنها دونت بعض ملاحظات عن هذا الحديث ، مثال ذلك إن دالمبير قال لديدرو « انتظر قليلا أيها الفيلسوف. أنا أستطيع أن أدرك بسهولة مجموعة . . من الكائنات الصغيرة التى تحس ، ولكن الحيوان ؟ هل هو كل . . بوعى من وحدته الخاصة به ؟ أنا لا أرى هذا [١٢] ويرى الحالم فى منامه أن ديدرو يروغ إذ من السؤال يتخذ موقفاً عفوياً « عندما رأيت المادة الهامدة تصبح فى حالة شعور فلا شىء يدهشنى بعد ذلك » .[١٣] . ويتابع ديدرو :«إذا كانت كل الأنواع الموجودة ستزول فإنها أو أية أشكال أخرى من الحيوان ستنتج على إمتداد الزمن تخمر الأرض والهواء . ويشترك بوردو والآنسة فى المناقشة ، ولكن تقاطعهما صرخة مفاجئة من الرجل الذى يحلم الذى يتحدث الآن مثل ديدرو . « لماذا أكون أنا الآن كما أنا ؟ لأنه لم يكن ثمة مفر من أن أكون كذلك . إذا كان كل شىء فى تغير عام متواصل فما الذى لا يمكن إنتاجه هنا أو فى أى مكان آخر

بمرور ملايين القرون وتقلباتها ؟ . . . ومن يدرينا أن الكائن المفكر الذى يحس ويشعر موجود على كوكب زحل ؟ . . . هل يمكن أن يكون للكائن المفكر الذى يحس ويشعر فى زحل حواس أكثر منا ؟ آه إذا كان الأمر كذلك لكان ساكن زحل سيء الحظ لأنه كلما ازدادت الحواس ازدادت الحاجات (١٤) » .

ويعلق بوردو على ذلك « أنه على حق طبقا لنظرية لا مارك فى التطور العضوى ، فإن الأعضاء تولد الحاجات وبالتبادل تولد الحاجات الأعضاء » .

ويصحو دالمبير لحظة ويجد بوردو يقبل لسبيناس فيحتج . ويأمرانه بالعودة إلى النوم فيمتثل . وينسى الطبيب وصاحبته الصالون ويتتبعان الأفكار التى بدأت فى الحلم ويشير بوردو إلى ولادة المخلوقات الإنسانية الغريبة ويتحدى المؤمنين بالتخطيط الالهى أن يفسروها . وتسنح للآنسة لمحة خاطفة بارعة « ربما كان الرجل مجرد صورة مشوهة من المرأة أو المرأة صورة مشوهة من الرجل(١٥) . ويضيف الطبيب إلى هـذا على طريقة ديدرو « الفرق الوحيد بينهما أن لأحدهما كيس يتدلى فى الخارج وللأخر كيس مثبت فى الداخل » . ويستيقظ دالمبير ويحتج « أنت تتحدث بكلام بذىء إلى الآنسة لسبيناس » وينهض بوردو لأنه كان على موعد مع مريض آخر ، ويتوسل إليه دالمبير أن يبقى ليفسر له : «كيف حدث أنه ظل كما هو بالنسبة لنفسه وللآخرين طوال التقلبات التى عاناها طوال سنى حياته على حين أنه ربما لم يعد لديه شيء قط من الجزئيات التى كانت له عند مولده » ؟ فيجيب الطبيب « أنها الذاكرة و . . . بطء التغيرات » . وتقدم الآنسة قياسا مثيراً « أن الدير يحتفظ بروحه لأنه يمتلىء بالرواد شيئا فشيئا وإذا قدم راهب جديد فأنه يجد مائة راهب قديم يقودونه إلى أن يفكر ويحس مثل ما يفعلون هم أنفسهم (١٦) » .

ويسيطر بوردو منذ الآن على المناقشة وهو يفرق بين النزعة الرومانتيكية والنزعة التقليدية القديمة حسبما تسيطر الحواس على الذهن الواعى أو يسيطر

الذهن الواعى عليها . ويرى ن لسبيناس مثال وأضح على الحالة الأولى ويقول لها فى رقة « إنك ستوزعين وقتك بين الضحك والدموع ولن تكونى أكثر من طفل » ويذكر تفسيرا فسيولوجيا للإحلام : « النوم حالة لا يعود يوجد فيها تنسيق بين الحواس عن طريق الوعى أو الهدف ، ولا يعود يوجد أى عمل مدبر أو نظام وضبط والسيد (النفس الواعية) ستسلم لهوى أتباعه (الحواس) . . . هل الخيط (الأعصاب) مشدود ؟ إذن يرى أصل الشبكة (المخ) . وإذا أراد خيط السمع فأنه يسمع . والفعل ورد الفعل (الأحساس والأستجابة) هما الشيئان الوحيدان اللذان يبقيان بينهما . وهذا نتيجة طبيعية لقانون الأستمرار والعادة . إذا بدأ الفعل بالغاية الشهوانية التى قدرتها الطبيعة للذة الحب ، وتكاثر النوع فإن أثره على أصل الحزمة (المجموعة) هو الكشف عن صورة المحبوب . ومن جهة أخرى إذا ظهرت هذه الصورة بادىء ذى بدء لأصل الحزمة فستكون شدة الرغبة الشهوانية وهياج السائل المنوى وتدفقه ، هذه كلها ستكون نتيجة رد الفعل . . . وفى حالة اليقظة تذعن الشبكة للصور التى يطبعها فى الذهن شىء خارجى . وفى حالة النائم ، فإنه من ممارسته شعوره الخاص ، ينبثق كل شىء فى نفسه . وليس فى الحلم شىء يصرف الأنتباه ومن ثم كانت حيوية ونشاطه[١٧] » .

وربما أحس بوردو بأن المريض الذى كان قد قرر زيارته قد يشفى بالطبيعة أسرع منه بالدواء ، والذلك نسيه ، وأنطلق يشرح الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر) ويصف « إحترام الذات ، والخجل والندم » بأنها صبيانيات مبنية على جهل وغرور شخصى ينسب لنفسه مزايا ونقائض فى لحظة لا مفر منها[١٨] .

وأفتتن ديدور بالطبيب بوردو ناطقا بلسانه ، حتى أنه فى الجزء الثالث « مواصلة المحادثة » أغفل دالمبير . وإذ تحرر الطبيب فإنه أنكر العفة باعتبارها أمرا غير طبيعى ، ويقر الأستمناء متنفساً ضروريا عن الحويصلات المكتظة أو المحتقنة « أن الطبيعة لا تجيز شيئاً غير ذى فائدة . فهل أكون ملوما فى

مساعدتها إذا أهابت بى لمعونتها فى أقل الأعراض شبهة وريبة ؟ ويجدر بنا إلا نستفزها أبدا ، بل نمد لهـا يد المعونة بين الحين والحين[١٩] » . ويختتم الطبيب كلامه بتحبيذ التجارب فى مجال الخلط المنتج بين مختلف الأنواع ، حيث يمكن أن ينتج هـذا الخلط نمطا من الإنسان الحيوان الذى قد يقنع بخدمة الإنسان . وتستبق الآنسة لسبيناس أناتول فرانس والبطارقة ، فتتسأل : وهل ينبغى تعميد أنصاف الرجال هؤلاء ؟

بوردو (وهو يهم بالخروج) : هل رأيت فى حديقة الحيوان ، فى قفص من زجاج إنسان الغاب (ضرب من القردة العليا الشبيهة بالإنسان يقطن فى بورنيو وسومطره) يبدو وكأنه سان جون يلقى المواعظ فى الصحراء ؟

الآنسة : نعم رأيته .

بوردو (وهو يغادر المكان) : قال له الكارد ينال دى بوليناك ، « تكلم وأنا أعمدك[٢٠] » .

وفى « مبادىء الفسيولوجيا » (١٧٧٤) صاغ ديدرو نظريته فى التطور ، متأملا فى الحلقة المفقودة ، فهو يقول « من الضرورى أن نبدأ بتصنيف الكائنات ، إبتداء من الجزىء الخامل غير الفعال (إذا وجد) إلى الجزىء النشيط الفعال ، إلى الحيوانات الدقيقة التى لاترى إلا بالمجهر . . . إلى النبات ، وإلى الحيوان ، وإلى الإنسان . . . يجدر إلا يصدق المرء أن سلسلة الكائنات قد عوقتها وأعترض سبيلها تباين الأشكال وتنوعها ، فالشكل مجرد قناع خداع . وربما وجدت الحلقة المفقودة فى كائن غير معروف ، لم يستطع علم التشريح المقارن بعد أن يحدد مكانه الحقيقى[٢١] .

٣ — ديدرو والمسيحية

كان ديدرو قد وعد صوفى فوللاند بأنه لن يتعرض للديانة فى « حلم دالمبير » والواقع بطبيعة الحال أن « الثلاثى » أورد فلسفة استغنت عن الألهة تماما . وظل ديدرو فى العلن ربوبيا متمسكا بأن الله هو « المحرك الرئيسى » فقط ،

منكرا العناية الألهية والتخطيط والتدبير الألهى . وكان من الناحية النظرية « لا أدريا » ينكر أى علم أو إهتمام بأى شيء فيما وراء دنيا الحواس ودنيا العلوم ، وتحدث أحيانا بشكل غامض عن وعى كونى تعثر وتخبط عبر زمان لا حدود له ، وقام بتجارب تنتج الأن أشخاصا غريبة عقيمة أو يسبب أحداثا سعيدة — لا يكاد يكون ألها بتقبل الصلوات والدعوات . ويمكن أن يصبح فى أحدى نوبات الغضب خصيماً عنيفا ، وأنبأ عن مبغض البشر الذى بث فكرة الإله ، أنتقاما من الحياة ، وأنتشرت الفكرة ، وسرعان ما تشاجر الناس وكره بعضهم بعضا ، وقطع الواحد منهم رقبة الآخر . وكانوا يفعلون نفس الشيء منذ جرى هذا الأسم الكريه على الألسنة . وأضاف ديدرو فى إبتهاج مقرون بالحذر « ربما ضحيت بحياتى فى سبيل القضاء على فكرة الألة قضاء مبرما[٢٢] . » ومع ذلك فأن نفس العبقرية المهوشة أحست بنظام الكون وعظمته المذهلتين ، وكتب إلى الآنسة فوللاند : « أن الألحاد أقرب ما يكون إلى الحراقة ، وكلاهما صبيانى طائش » ، ثم أضاف « لقد جن جنونى لأنى حائر متورط فى فلسفة شيطانية لا أملك إلا أن يقرها ذهنى وينبذها قلبى[٢٣] » وأقر فى سنيه الأخيرة بعد ذلك صعوبة أشتشقاق العضوى من غير العضوى أو الفكر من الأحساس[٢٤] » .

ولكن ديدرو لم يهدأ قط فى حملاته على المسيحية . وثمة فقرة مثيره من رسالة خاصة تلخص موقفه منها ، « من رأيى أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون فى تعاليمها ومبادئها ، كما أنها مستعصية على الفهم ، ميتافيزيقية مربكة غامضة إلى أبعد الحدود . ومن ثم كانت أكثر تعرضا للأنقسامات والشيع والأنشقاقات والهرطقات ، وأكثرها ايذاء وازعاجا للهدوء العام ، وخطرا على الملوك والحكام فى تسلسل مراتبها الكهنوتية واضطهاداتها ونظامها العام ، وهى أشد العقائد فتورا وكآبة وبعدا عن المدنية ، وعبوسا فى طقوسها ، وأشدها صبيانية وأنطوائية وبعدا عن الروح الاجتماعية فى اخلاقياتها . . . وهى متعصبة لا تحتمل إلا أقصى[٢٥] .

وفى « نزهة المتشكك » (١٧٤٧) كان ديدرو قد اعترف بخدمات الكنيسة فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ولكنه بعد ذلك رأى أن المسيحية، على حين تنهى عن الجرائم البسيطة ، تبعث على إقتراف الجرائم الكبيرة ، « سيأتى ، أن عاجلا أو آجلا . الوقت الذى نرى فيه أن نفس العقيدة التى حالت بين الإنسان وبين سرقة شلن واحد ، تكون سببا فى قتل ١٠٠ ألف شخص . تعويض رائع ![٢٦] ومهما يكن من أمر . فأن لأفكارنا الدينية أقل الأثر فى أخلاقنا [٢٧] ، والناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الآجلة والأله الذى لايرونه . أن القسيس نفسه قلما يعتمد على الدعاء والصلاة للالهة ، اللهم إلا إذا كان المرء لا يعنيه إلا قليلا[٢٨] . وفى ١٧٧٣ تنبا ديدرو بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود فى بحر سنوات قلائل فى كل مكان[٢٩] ويبدو أن النبؤة تحققت فى فرنسا فى ١٧٩٢ . ولكن ديدرو تنبأ أيضاً « بأن الإيمان بوجود الله سيبقى[٣٠] » .

ومثل معظم الذين فقدوا إيمانهم بالمذهب الكاثوليكى ، فإن نفس ديدرو الذى ذهب إلى أن المراسم والطقوس الكاثوليكية كئيبة حزينة ، ظل حساسا لجمال ووقار الشعائر الكاثوليكية . ودافع عنها ضد النقاد البروتستانت فى صالونه ١٧٦٥ ، فهو يقول : « أن هؤلاء المتشددين الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهرية على الناس . أنهم لم يشهدو قط توقير الصليب فى يوم الجمعة الحزينة ، وحماسة الجماهير فى موكب عيد القربان . وهى حماسة كانت فى بعض الأحيان تجرفنى أنا نفسى . أنى لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة فى ملابسهم الكهنوتية ، ومساعديهم الصغار فى ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس ، ولم أر هذه الجماهير الحاشدة التى تسبقهم وتعقبهم فى صمت دينى رهيب ، كما آن كثيراً من الناس ينبطحون على الأرض . ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التى ينشدها الكهنة وترددها فى حب وإخلاص الجموع الحفيرة من الرجال والنساء والأطفال ، إلا أهتز قلبى من الأعماق ، وذرفت عيناى الدموع[٣١] . »

ولكنه إستأنف الهجوم بعد أن مسح عينيه . ففي « مناقشة فيلسوف مع المارشال دى . . . (١٧٧٦) تخيل رجلا متشككا أسماه كروديلى (معناها بالأيطالية قاس) يتحدث مع أحدى سيدات المجتمع النبيلات ، تعتقد أن من ينكر « التثليث المبارك » إنما هو متوحش مصيره إلى المشنقة . وتدهش السيدة إذ تجد أن كروديلى الذى هو ملحد ، ليس أيضاً لصاً ومنغمساً فى الشهوات يقول « أظن أنه إذا لم يكن لدى شيء أخشاه أو آمل فيه بعد الموت فأنى سأستبيح لنفسى كثيراً من الملذات اليسيرة هنا » . ويسأل كروديلى « وما هى هذه الأشياء » ؟ « أنى أعترف بها للكاهن فحسب . . . . ولكن ما لذى يدفع الكافر غير المؤمن ليكون طيبا إلا إذا كان مجنونا ؟ » أنها تتراجع قليلا أمام حججه ثم تتخذ خط دفاع آخر : « ينبغى أن يكن لدينا ما نرهب به الأعمال التى تفلت من قبضة القانون القاسية وفضلا عن ذلك إذا قضيت على الديانة فاذا تضع محلها ؟ » . فيجيب كروديلى « هى أنه ليس هناك شيء يحل محل الدين . فلسوف يكون دائما على ية حال ضرر وظلم أقل » . إنه يصور المسلمين فى ثورة يذبحون فيها المسيحيين ، والنصارى يحرقون المسلمين واليهود .

المارشال : هب أن كل ما اعتقدته باطلا كان حقاً ، وأنك هالك . إنه لشيء رهيب مزعج أن تكون هالكاً ملعوناً وأن تصلى النار إلى الأبد .

كروديلى : يقول لافونتين بأننا سننعم بالراحة ، مثل السمك فى الماء .

المارشال : نعم ، نعم ، ولكن لافونتين أصبح وقوراً تقياً جداً آخر الأمر ، وأتوقع أن تكون كذلك .

كردريلى : أنا لاأستطيع أن أجيب بشيء إذا ضعف مخى .

أن أشد الفلاسفة عداوة لرجال الدين كان يحس بمرارة بالغة نحو ما بدا له أنه ضياع لحيوية البشر وطاقاتهم فى أديار الرهبان والراهبات . وفى إحدى

صفحاته الغاضبة أنحى بأعنف اللوم على الآباء الذين حكموا على بناتهم بالعيش بين جدران الدير وهن كارهات. إن من أروع كتاباته من الناحية الفنية، بعثاً خيالياً من جديد لحياة راهبة من هؤلاء. أنه كتب رسالة الراهبة فى ١٧٦٠ نتيجة مزحة كان يأمل جريم وديدرو من ورائها أن يعيدا إلى رفقتهما المركيز دى كرواكسمير من كاين إلى باريس. وحوالى هذه الفترة أثار ديدرو نداء وجهته الراهبة إلى برلمان باريس لاحلالها من القسم الذى أكرهها والداها عليه (كما تدعى). وتعطف المركز فكتب إلى البرلمان يناصر قضية الراهبة، ولكن دون جدوى.

إننا لانعرف عن هذه الراهبة شيئاً أكثر من هذا، ولكن ديدرو أعاد كتابة تاريخها فى تصوير واقعى يخلد ذكراها على مدى القرون. وافترض أنها هربت من الدير، وأرسل إلى كرواكسمير عدة رسائل — وكأنها بقلمها — تصف فيها معاناتها فى الدير، وتطلب أن يمد لها يد المساعدة لتبدأ حياة جديدة. وأجاب المركيز، ورد ديدرو، باسمها، واستمرت هذه المراسلات أربعة شهور فى مائة وخمسين صحيفة.

وصور ديدرو سوزان تعانى من رئيسة الدير الغليظة القلب، فهى تضطهدها وتحبسها وتجردها من ملابسها وتعذبها وتحرمها من الطعام، فتشكو إلى أحد الكهنة الذى يهيء لها سبيل الانتقال إلى دير آخر. وهناك كانت رئيسة الدير الجديد مساحقة وشغفها الراهبة حباً، وتوسلت إليها لمعاونتها. وربما بالغ ديدرو فى وصف قساوة الأمهات رئيسات الأديار وشقاء الراهبات وحزنهن. ولكنه جعل كل الكهنة فى قصته ودودين محبوبين مطبوعين على حب الخير، وعالج فكرة السحاق فى رقة نادراً ما ظهرت فى مؤلفاته. وتأثر المركيز وقدم إلى باريس. وتكشفت له الخدعة ولكنه تجاوز عنها وكانت هذه القصة الغريبة قد أدت إلى دراسة رائعة فى علم النفس، كانت متأثرة بقصة ريتشاردسن «كلاريسا» ولم يتعمق أى متشكك قط بمثل هذه القوة فى مشاعر القديس، وفاجأ أحد الزوار

الكاتب وهو يدون هذه الرسائل ، فوجده كما يروى جريم « حزينا غاية الحزن ... ويذرف الدمع [٣٢] واعترف ديدرو بأنه كان يبكى لقصته هذه، فما أسرع ماكانت الدموع تجرى فى عينيه ، مثل روسو. وكان فخوراً ، بشكل يمكن الصفح عنه ، بقصته الموضوعة على هيئة رسائل ، وباحتمال أن تكون صحيحة ، وبالعاطفة الدافقة فيها ، وبأسلوبها ، وقد عنى بمراجعتها وتنقيحها ، وأوصى بنشرها بعد موته . ورأت هذه القصة الثورة فى ١٧٩٦ فى عهد الثورة وفى ١٨٦٥ أحرقت قصة « الراهبة » علناً بناء على أمر من محكمة السين [٣٣] :

ومع قصة الراهبة ، نشر فى ١٧٩٦ ، كما أحرق معها فى ١٨٦٥ « جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيده » الذى أعتبره ديدرو أعظم إنتاجه [٣٤] ، بداعى التقارب فى الزمن . وربما كان الأمر كذلك ، ولكنه أيضاً أسخف ماكتب . وافتتن ديدرو بقصة « ترسترام شاندى » فاتخذ أسلوب ستيرن (قصصى انجليزى فى القرن الثامن عشر ١٧٦٠ — ١٧٦٨) فى تأليف قصة قائمة إلى حد كبير على اعتراض السياق ، فيقطعه من حين إلى آخر ، فى نزوة من نزواته ، ليتحدث إلى القارىء عن شخوص القصة . وبدأ الكتاب واختتمه بقطع وأحداث منقولة مباشرة من ستيرن . [٣٥] وفاق ستيرن فى إزعاج القارىء بين الحين والحين بفحش القول . إن شخصى القصة يعكسان أسلوب سرفنتيز فى التباين بين السيد وتابعه فى المزاج والفلسفة . فالسيد يرفض فكرة القضاء والقدر على حين يؤمن جاك بها . إن كل شيء يحدث هنا على الأرض مسطور فى كتاب هناك . [٣٦] إن جاك « يعتقد أن الإنسان يشق طريقه بالضرورة إلى المجد أو إلى الخزى والعار ، كما تنطلق الكرة متتبعة انحدار الجبل الذى تدحرجت عليه . إن رئيس جاك السابق كان قد ملأ رأسه بكل هذه الأفكار التى استقاها من سبينوزا الذى حفظه عن ظهر قلب [٣٧] وهو رئيس نادر المثال .

وفى أواسط القصة يتلكأ ديدرو ليروى فى حماسة وبراعة قصة

المركيزة دى لا بومراى عشيقة المركيز دى ارسيز . أنها أرتابت فى أنه سئمها ، فعزمت على أن تكتشف الأمر بالأشارة إلى أن علاقتها أصبحت عبئاً ثقيلا ، أنه أساء إليها أبلغ أساءة بتصريحه بأنه يود أن يفلت من عشيقة إلى صديقة ، فتدبر المركيزة إنتقاما فريداً فى يأبه . وتعثر على بغى جميلة ، وتتحمل نفقات أبدال ملابسها وتعلمها الأجرومية وآداب السلوك وتلقنها مبادىء التقوى المثيرة للاعجاب ، وتقدمها إلى المركيز على أنها سيدة من ذوات الحسب والنسب ، ودربتها على أن تثير نزواته وترفض عرضه لأن تكون صديقته ، وأرشدتها إلى الطريقة التى تنتزع بها منه إقتراحا بالزواج . وبعد بضعة أشهر من الزواج تكشف مدام لا بومراى للمركيز عن ماضى زوجته . ولكن يفسد على المركيزة أنتقامها تطور غريب . ذلك أن المرأة الآثمة التى أعيد تشكيلها وصلح حالها عرفت كيف تحب زوجها المركيز ، وأعترفت له خجلة بأكية بخدعتها وعرضت أن تختفى من حياته ، وفى الوقت نفسه كانت هى زوجة مخلصة ووفية إلى حد أن المركيز أكتشف أن فى الزواج سعادة أكبر مما هى فى الفجور والزنى . فيغتفر لها تضليلها ويأبى أن تفارقه ، ويعيش معها عيشة راضية ممتازة ، ويتحطم قلب بومراى من مرارة الهزيمة .

أن هذا الفاصل على أية حال هـو أكثر ما يأخذ بالألباب فى « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » فأنه يتميز بمتانة التركيب ، واللمسات الرقيقه للواقعية النفسية (السيكولوجية) ، والشعور العميق فى تعبير هادىء . وهذه كلها تعوزها القصة على وجه الأجمال . واعترف شيللر بأنها درة فى فن الأدب . وترجمها إلى الالمانية فى ١٧٨٥ .

٤ — ابن أخى رامو

أن « ابن أخى رامو » ، لا « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » هو أعظم كتب ديدرو وأسماه جوته « الكتاب الممتاز الذى ألفه رجل لامع(٣٨) » ، كتبه فى ١٧٦١ ومات قبل أن ينشر ، لأنه كان أقبح كتبه وأكثرها خزيا ، وفى

نفس الوقت أكثرها أصالة . وظاهر أنه رأى أنه غير مستساغ ليقدمه حتى لاصدقائه . وبعد موته تسربت نسخة منه إلى المانيا أحدثت هناك دويا شديدا. وارتاع له شيللر وثارت نفسه ، وحمله إلى جوته ، وكان آنذاك فى قمة الشهرة (١٨٠٥) فترجمه إلى الإلمانية . ودخلت هذه الترجمة إلى فرنسا وأعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (١٨٢١) ونشرت طبعة أخرى١٨٢٣ ولكن هـــذه لم تصل إلى المطبعة إلا بعد أن كانت أبنة ديدرو قد هذبتها وحذفت منها ما لايليق نشره . ولم تكتشف المخطوطة الأصلية إلا فى عام ١٨٩١ فى كشك للكتب على ضفة نهر السين وهى موجودة الآن فى مكتبة بيير بونت موجان فى نيويورك .

وأختار ديدرو لسانا ناطقا بأفكار غريبة شاذة إلى حد كان من العسير معه أن يعبر عنها ديدرو بضمير المتكلم . جان فرنسوا رامو هو ابن أخى الملحن المشهور جان فيليب رامو (الذى توفى ١٧٦٤) والذى كان لايزال على قيد الحياة حين كتب الحوار غير القابل للنشر . وعرف ديدرو الموسيقى معرفة جيدة ، وتحدث بطلاقة ودون تكلف عن لوكاتللى ، برجوليسى وجوميللى ، وجالوبى ، وليووفنسى ، وتارتينى ، وهاس ، وتنبأ بحق أنه فى العزف على الكمان سرعان ما سيحل العزف الشاق محل العزف الجميل ويزحزحه من مكانه(٣٩) .

وألف ابن الأخ موسيقى ، وأصاب بعض النجاح معلما للموسيقى . ولكن كان أسمه يقض مضجعه ويقلق باله . وكان يغار أشد الغيرة من عمه ويحقد عليه تفوقه . فتخلى عن المعركة ، وانغمس فى اللهو وأطلق العنان لشهواته ورغباته بشكل ينافى الأخلاق ، مما وصفه ديدرو فى قصته . وأكدت التقارير المعاصرة(٤٠) كثيراً من الصفات الأخرى التى نسبت إليه فى الحوار ، ولكن التاريخ لم يؤيد ماذهب إليه ديدرو من أنه كان قواد يتجر بجمال زوجته فى سوق الدعارة . وعندما فارقت هـــذه الزوجة الحياة فقد جان فرانسو كل احترام للنفس وجعل منه لسانه البذىء غير العف ، الشديد التهكم

والسخرية منبوذا فى المجتمع ، وطرد من دار مسيو برتان الثرى الذى كان لعدة سنوات قد إعتمد عليه فى تناول العشاء عندة ، وصار عليه أن يلتمس الزملاء فى مقهى « لا ريجانس » وفى أماكن أخرى تزخر بالأفكار التقدمية التى لاتغنى ولاتسمن من جوع . يقول ديدرو (لاحظ كيف يعكس حياته فى كتبه) : « فليكن الطقس معتدلا أو غائما معتما ، إن من عادتى أن أقصد سيراً على الأقدام فى الساعة الخامسة بعد الظهر إلى البالية رويال . وأنا الشخص الذى يمكن أن يقع بصرك عليه وحيدا دائما ، حالما على مقعد دارجنسون ، أبحث بينى وبين نفسى مشاكل السياسة والحب والذوق والفلسفة ، وأطلق لذهنى العنان . . . . وإذا أشتد البرد أو هطل المطر ، آوى إلى مقهى لا ريجانس ، أراقب لعب الشطرنج . . . وكنت ذات مساء هناك ، أتلفت إلى ما حولى ، أتكلم قليلا ، وأسمع قليلا بقدر الأمكان . حين دنا منى شخص من أغرب الأشخاص على الأرض[٤١] » .

وتجيء بعد ذلك شخصية رائعة : رجل أخنى عليه الدهر ، وهو يتذكر الخمر فى مرارة وكان فيما مضى كثير المال ناعم البال مع أجمل زوجة فى باريس ، واستقبل مرة فى كل دار أنيقة[٤٢] ، كما كان متمشيا مع كل الوان الثقافة فى فرنسا . ولكنه الآن يعانى الفقر والخزى والعار ، يعيش على ما يقتات به من موائد الذين يستشعرون الأشفاق عليه ، وعلى القروض المنسية ، لا يرى فى الحياة إلا الصراع والهزيمة ، ينبذ كل الديانة باعتبارها فرية جميلة ولكنها مرعبة ، وينظر إلى الاخلاقيات على أنها جبن وخداع ، ومع كل هذا يحتفظ بقد ركاف من ماضيه ليغلف تحررا من الوهم بفصاحة بارعة مهذبة ، ويكسو هذا التحرير رداء عقلانيا . ودعابته حادة مريرة : من ذلك قوله « أن السيدة (كذا) وضعت توأما ، سيكون لكل والد واحد منهما » أو قوله عن أوبرا جديدة « أن فيها بعض قطع جميلة والمؤلم حقاً أن هذه القطع لم توضع لأول مرة[٤٣] » . أن مأساته الكبرى هى أنه لايؤمن بشيء « وسمع بعض كلام روسو عن الطبيعة — كم هى أفضل من المدنية

وخير منها ، ولكنه يلاحظ أن فى الطبيعة يفتك كل نوع بالآخر ؟ والخاتمة الرهيبة هى التهام كل كائن وهو يرى نفس الألتهام والفتك (أكل الكائنات بعضها بعضا) فى دنيا الاقتصاد ، اللهم إلا أن فيها أناسا يستنزف بعضهم دم بعض عن طريق اجراء قانونى مقبول . وهو يرى أن الأخلاق مجرد خدعة يضلل بها ذوو الدهاء من الناس بسطاء العقول منهم ، أو يخدع بها السذج من الناس أنفسهم . أنظر إلى تلك المرأة التقية الورعة التى تغادر الكنيسة (بعد الصلاة) « أنها أثناء الليل تتدرب فى خيالها على مشاهد الفسق والخلاعة وعلى الأوضاع الشهوانية الداعرة عند أريتينو[٤٤] » ويرى ابن الأخ (جان فرنسوا) أن الرجل العاقل لأبد أن يسخر من الوصايا العشر « ويتمتع بكل الخطايا والآثام فى حكمة وتبصر » . مرحى أمرحى ! بالحكمة والفلسفة ! — حكمة سليمان : شرب أجود الخمور ، التهام أطيب الأطعمة ، مضاجعة أجمل النساء ، النوم على الفراش الوثير ، وكل ماعدا هذا تافه لاقيمة له[٤٥] ؛ وماذا بعد هذا يمكن أن يقول الفيسوف الإلمانى نيتشه أو الشاعر والكاتب الفرنسى بودلير وأمثالهما ؟ .

ويختتم ديدرو هذا العرض المفزع « للأفكار بأن ينعت ابن الأخ بأنه « بليد شره جبان ، روح من الطين » ويجيب رامو على هذا بقوله « أعتقد أنك على حق[٤٦] » وتجول بخاطرنا فكرة خبيثة : كيف كان يتسنى لديدرو أن يصور هذه الشخصية بمثل هذه القوة والحيوية ، إذا لم تكن تكمن بين جنبيه هو نفسه ؟ أنه يحتج على هذه الفكرة ، ولكنه يسلم بأنه ليس قديساً : « أنا لا أستنكر لذة الحواس ، فإن لى أنا أيضاً ذوقا يستسيغ أطباق الطعام الشهى والأنبذة الجيدة . كما أن لى قلبا وعينين أحب أن يقعا على سيدة جميلة ، وأحب أن المس بيدى أن رقبتها مستديرة ثابتة ، وأن تعتصر شفتاها شفتى ، وأن أرشف اللذة والمتعة من عينيها ، وأن ألفظ النفس الأخير بين ذراعيها . ولا يزعجنى الأنغماس البسيط فى الملذات فى بعض الأحيان مع أصدقائى ، حتى ولو كان صاخبا بعض الشىء . ولكن لا أخفى عليكم أنه

يبدو لى أنه يحلو لى أكثر إلى أبعد الحـــدود ، أن أمد يد المساعدة إلى المنكوبين ، أو أسدى نصيحة مفيدة ، أو أقرأ كتابا جيدا ، أو أتنزه مشياً على الأقدام مع رجل أو امرأة عزيزة لدى أو أقضى مع أولادى بضع ساعات أتولى فيها توجيههم وتثقيفهم ، أو أكتب صفحة جيده أو أؤدى واجبات عملى ، أو أصب فى أذن حبيبتى بضع كلمات حلوة رقيقة حتى تحيط عنقى بذراعيها وتعانقنى .. إن أحد معارفى رجل من ذوى الثراء فى قرطاجنة ، وكان الأبن الأصغر فى بلد جرت العادة فيه أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبن الأكبر ،وترامت إليه الأنباء فى كولمبيا أن أخاه الأكبر ، وهو شخص متلاف ، قد سلب أبويه اللذين دللاه وتساهلا معه كل ما كانا يملكان ، وطردهما من قصرهما . وأن هذين الوالدين الطيبين يعيشان الآن فى مدينة صغيرة فى الأقاليم يعانيان مرارة الفقر ، فماذا فعل هذا الأبن الأصغر الذى أساء والده معاملته إلى حد إنه رحل إلى أقصى الأرض يلتمس الرزق ؟ إنه أرسل إليهما معونة وعجل بتدبير أموره ، ليعود ثريا ميسوراً إلى أبيه وأمه ، واسترد لهما دارهماً ، وهيأ الصداق لأخواته ليتزوجن . آه يا عزيزى رامو ، إن هذا الرجل يعتبر تلك الشهور أسعد أيام حياته . إنه حدثنى عنها والدموع تغمر عينيه . أما أنا ، وأنا أقص عليك هذه القصة ، فإنى أحس بأن قلبى قد أرهقه الفرح والغبطة والسرور الذى لا أجد كلمات للتعبير عنه (٤٧) .

٥ — علم الأخلاق والسياسة

كان لديدرو مثلما لنا جميعا ، شخصيتان على الأقل : نفس بأطنة تختزن فيها خفية كل دوافع الطبيعة البشرية ، كما هو موجود فى الحياة البدائية بل حتى حياة الحيوان ، ثم نفس ظاهرة للعيان تتقبل على كره منها التعليم والانضباط والأخلاق ، ثمنا يجب أن يدفع مقابل الحماية التى يبسطها النظام الاجتماعى. ولا تزال له أنفس أوشخصيات أخرى : ديدرو الذى لم يكن قد نسى شبابه ، وحرياته البوهيمية وحبيباته وخلوه من المسئوليات اللهم الا

أمام الشرطة ، ثم ديدرو رب أسرة ، الذى لو تهيأت له سيدة قادرة على فهم كلامه وأفكاره ، لأمكن أن يكون هو أيضاً . أحيانا ، زوجا صالحاً وأبا شغوفا بأبنائه ، وحيواناً شبه مستأنس ، ورجلا يقدر بعض التقدير المسالى والأخلاق والقانون .

إن هذه الشخصيه المزدوجة ، « دكتور جيكل ومستر هايد » ، أنتجت فيما بين عامى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ . محاورتين توضحان تذبذب آرائه . ففى « حوار بين أب وأبنائه » يقدم صورة جميلة لأبيه وهو يشرح فى رفق«خطر أولئك الذين يتعالون على القانون أو يضعون أنفسهم فوقه » ولكنه بعد ذلك بعام بين كتب أكثر أعماله تطرفا .وكان لويس أنطوان بوجينفيل قد نشر لتوه (١٧٧٢) كتابه « رحلة حول العالم » عدد فيه خبراته وتجاربه فى تاهيتى وغيرها من جزر المحيط الهادى الجنوبى ووقع بصر ديدرو على بعض أجزاء من هذا الكتاب تبين تفوق الحياة البدائية فى بعض النواحى على المدنية .ورغبة من ديدرو فى إبراز نواحى التفوق والسمو هذه ، كتب فى ١٧٧٢ عما هو معهود فيه من حيوية وخيال وتميز وشغف ، « ملحق لرحلة بوجينفيل» ، وهو كتاب لم ير النور إلا فى ١٧٩٦ . واختار ديدرو رجلا عجوزاً من أهالى تاهيتى أورد بوجينفيل ذكره ، وتخيل أنه يلقى خطابا يؤدع فيه أمير البحر لدى الفرنسيين الراحلين عن الجزيرة : « وأنت يا زعيم عصابة اللصوص المطاع الذين يمتثلون لأوامرك ، إغرب بسفينتك عن شواطئنا . فنحن أبرياء سعداء ، وكل ما تستطيع أن تفعل لنا هو أن تفسد علينا سعادتنا . إننا ننهج نهج الفطرة النقية ، ولكنك تسعى لمحو أساس هذه الفطرة من نفوسنا . وهنا كل الأشياء ملك لكل الناس ، أما أنت فتبشر بتفريق غريب بين ما هو « ملك لك » وما هو « ملك لى » وكل بناتنا وزوجاتنا كانت لنا جميعا على الشيوع ، ولكنكم شاركتمونا هذه الميزة ودفعتم بهن إلى لوثات من الجنون ، ولم يكن لهن بها عهد من قبل . . وتناحرتم وقتل بعضكم بعضا من أجلهن وعدن مضرجات بدمائكم ... نحن أحرار ، واكن تأمل كيف أنكم نقشتم

على أرضنا عنوان عبوديتنا فى المستقبل ..إنكم كتبتم على هذا النصل المعدنى « هذا البلد بلدنا » . . . ولكن لماذا فعلتم هذا ؟ هل لأنكم حططتم رحالكم هنا ؟ وهل إذا رسا أحد أبناء تاهيتى ذات يوم على شواطئكم، ونقش على حجر عندكم « هذا البلد تابع لأهل تاهيتى » فماذا عساكم ترون فى مثل هذا العمل ؟ .. إن هذا التاهيتى الذى تريدون أن تمسكو به وكأنه حيوان ليس أخاً لكم .. وأى حق لكم عليه ليس له حق مثله عليكم ؟ إنكم جئتم إلينا ، فهل سطونا عليكم ؟ وهل أعملنا السلب والنهب فى مراكبكم ؟..كلا . لقد احترمنا ذاتنا فى شخصكم . . . اتركوا لنا عاداتنا وأعرافنا ، أنها أحكم وأشرف من عاداتكم وأعرافكم . وليست بنا من حاجة أو رغبة فى مقايضة ما تسمونه جهلنا بالمعرفة القيمة لديكم » (٤٨) .

ويمضى حكيم تاهيتى فيذكر الأوربيين بما قوبلوا به من ترحيب حار ، ركيف أسكنوهم وأطعموهم وأحبوهم . ولم يكن فى الجزيرة « وصية سادسة» (كما افترض ديدرو) كما لم يكن ثمة حقد ولا حسد . فلم يفهم نساء الجزيرة ما تحدث به قسيس السفينة عن الخطيئة والعار ، وأحطن البحارة بكل الكرم والرعاية .وماذا كانت النتيجة ؟ إن مرض الزهرى الذى لم يعرفه سكان الجزيرة من قبل ، ظهر الآن بين نسائها ، ثم انتقل إلى رجالها . ويتوسل الرجل العجوز إلى الزائرين أن يرحلوا إلى غير رجعة .

وأضاف ديدرو « مناقشة بين القسيس وأورو « وهو مواطن من تاهيتى كان قد تعلم الأسبانية ، صدرت إليه الأوامر بايواء القسيس فى كوخه . ويعرض أورو على القسيس أن يختار لمشاركته فراشه بين زوجته وإحدى بناته ، ويوضح القسيس أن قانونه الأخلاقى يحرم عليه قبول مثل هذا العرض الكريم . ولكن إحدى البنات تمسه بيدها فيصبح رجلا . ويقضى القسيس الأيام الثلاثة التالية يشرح لأورو الأخلاق المسيحية والليالى الثلاث التالية مضاجعا البنات واحدة بعد الأخرى ، أما الليلة الرابعة ، وكأنما ارتبط بكلمة الشرف ، فأنه يخصصها لزوجة مضيفة (٤٩) وأمدت محاولات القسيس لتحويل أورو إلى المسيحية ديدرو بصحيفة سارة بهيجة .

القسيس — ما هو الزواج عندكم ؟

أورو — اتفاق على المشاركة فى كوخ واحد ، والمشاركة فى سرير واحد كلما طاب لنا أن نفعل ذلك .

القسيس — وإذا رغبتم عن ذلك

أورو — نفترق :

القسيس — وماذا يحدث للأبناء ؟

فيقول أورو إن هذه ليست مشكلة : تعود السيدة بأبنائها إلى بيت أبيها، وسرعان ما يتزوجها رجل آخر يسعد بقبول أبنائها ، لأن الأولاد فى المجتمع الزراعى كسب اقتصادى عظيم .

القسيس — هل يستطيع الوالد أن يضاجع ابنته ؛ والوالدة ابنها ،والأخ أخته والزوج زوجة رجل آخر ؟

أورو — ولم لا ؟

القسيس — أظن أنه حتى هنا — مهما يكن من أمر ، لا يضاجع الأبن أمه غالباً .

أورو — لا . اللهم إلا إذا كان احترام هذا الأبن لأمه شديدا[٥٠]

ويخرج القسيس من هذا وهو يكاد يحبذ كل التحبيذ طرق معيشة أهل تاهيتى ، ويقر بأنه « أغرى بخلع ملابسه الكهنوتية فى السفينة ليقضى بقية أيام حياته بين أبناء الطبيعة هؤلاء .

وينتهى ديدرو إلى مثل ما انتهى إليه صديقه القديم روسو ، الذى كان يناقش فى كتابه « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥٠) و « بحث فى منشأ عدم المساواة» (١٧٥٥) « هل تريدون لمحة موجزة عن كل تعاستنا وشقائنا تقريبا؟ هاكم هذه اللمحة . لقد وجد إنسان طبيعى ثم أدخل إلى هذا الإنسان الطبيعى إنسان صناعى ، ونشبت حرب أهلية استمرت طيلة الحياة . . وكان الإنسان الطبيعى فى بعض الأحيان هو الأقوى ، كما حطمه فى أحيان أخرى الإنسان

الصناعى الأخلاقى . وفى كلتا الحالتين يعامل العملاق بقسوة ويضيق عليه الخناق ويعذب ، ويسام الخسف .. إنه دائما تعس منكوب » (٥١) .

وكان ديدرو بطبيعة الحال لا يعرف إلا القليل عن أهل تاهيتى ، وكان بوجينفيل قد وصفهم بأنهم متمسكون بالخرافات والمحرمات ، يرهبسون أرواحاً شريرة خيالية ، يستسلمون للكهنة ، ناهيك بالعديد من أنواع الحشرات والأمراض . إن ديدرو الذى كان يضيق ذرعا بالزواج بواحدة ، لم يكن فى حاجة إلى أن يدرك لمـاذا وضعت ضرورات النظام الاجتماعى مثل هذه القيود الكثيرة على الغرائز الجنسية غير المشروعة لدى الجنس البشرى ، وكان نموذجا آخر للفكر الفردى الذى يتصور نفسه أحكم وأعقل من عادات البشر وأعرافهم .

وثمة تناقض طريف بين الفلسفة الأخلاقية عند ديدرو الكاتب وديدرو الإنسان من الناحية النظرية ، وفى بعض الأحيال أشرفت آراؤه الأخلاقية على الفوضوية ، ففى تلك الأوقات وصف الطبيعة البشرية بأنها خيرة فى أساسها ، وبناء على هذا الفرض اقترح « إن نتبع الطبيعة أى الغريزة » ، وأحس ديدرو أنه عن طريق الغرائز وحدها يمكن للانسان أن يحرر نفسه من القيود التى يفرضها الدين والمجتمع بآلاف التقاليد والمحظورات والقوانين . وفى هذا المزاج وصف الاتصال الجنسى بأنه « أعلى مراتب السعادة » (٥٢) ، وعرف الحب بأنه « احتكاك شهوانى بين غشائين » و « فقدان شهوانى لبضع قطرات من السائل » (٥٣) وأكد لخليلته أن الزنى « خطأ يستحق لوما أو توبيخا أقل مما تستحق أتفه كذبة (٥٤) . كان ديدرو فيلسوفا يتوق إلى أن يحيا حياة الديك الذى يختال عجباً بين الدجاجات .

ولما عركه الدهر وزادت خبرته بالحياة نقض كل آرائه الأخلاقية . ومنذ انحرف عن روسو إلى فولتير ، فأنه نظر إلى الإنسان نظرة تزداد كآبة وقتا ما ، على أنه شرير سىء بالطبيعة . أو بسبب تدهور النظام الاجتماعى على حد سواء . « وليس ثمة شىء يوضح أن الطبيعة البشرية كريهة بغيضة ؛

مثل السهولة التى يتقبل بها الناس أسوأ الأعمال حين لا يكون (كما هو الحال فى حشد منهم) .. هناك من هو مسئول شخصياً عن الشر الذى وقع [٥٥] ويقول جاك المؤمن بالقضاء والقدر : « صدقنى نحن لا نشفق على أحد إلا على أنفسنا » [٥٦] ويلغى ديدرو الآن مبالغاته القديمة بمبالغات جديدة . فربما « لوى الإنسان الطبيعى عنق أبيه ليضاجع أمه ، لولا تنمية عقله يفضل التعلم [٥٧] ولما تضاءلت حاجيات ديدرو الجنسية ، اتفق مع ابيقور على أن « ملذات أو مباهج النفس » مرضية بشكل أكثر اطرادا من الملذات الجنسية ، أو المادية [٥٨] وهو يتساءل « هل هناك متعة أو لذة مادية فحسب فى اقتناء امرأة جميلة ؟ وهل هناك ألم مادى فحسب فى فقدها بسبب الموت أو التحول عنها ؟ أليس التمييز بين المادى والمعنوى قائماً وطيدا مثل التمييز بين الحيوان الدقيق الذى لا يرى إلا بالميكرسكوب والذى يحس ، وبين الحيوان الذى يفكر ويتأمل ويعقل [٥٩] .

وإذ وصل الآن ديدرو إلى المفهوم البيولوجى للفضيلة — صفة تعمل على البقاء ، فقد تسنى له فى شىء من الغموض أن يدرك أن اسمى الفضائل هى تلك التى تعمل على بقاء المجموعة ، حيث أن التنظيم الاجتماعى هو الوسيلة الرئيسية لبقاء الفرد ، وفى قصة « أبن أخى رامو » تبين ديدرو ماذا يحدث لمن يحاول تحطيم القيود المفروضة على الفرد من أجل الاحتفاظ بالجماعة أو الإبقاء عليها . ومثل هذا الإنسان يصبح كما مهملا ومنبوذا بغير عقيدة أو طعام أو زوجة أو أمل . وبذلك يختتم ديدرو حلمه عن تاهيئ بشىء من الاعتدال فى بطء : « إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ولكننا فى نفس الوقت سنخضع لها . إن من يكون من سلطته أن ينتهك حرمة قانون سىء يعطى لكل إنسان غيره الحق فى انتهاك حرمة القانون الصالح إنه أقل إزعاجا أن تكون مجنونا بين المجانين من أن تكون عاقلا بمفردك» [٦٠] .

وعندما اكتملت وبرزت مفاتن الأنوثة فى أنجليك ابنة ديدرو ، بدأ

يساوره القلق بشأن أخلاقها، وكان يقظا حريصا على عذريتها باعتبارها ذخرا ثمينا وسلعة رائجة . ولما رأى أنه قد تم زواجها فى أمان ، حذرها من الزنى ، قائلا إن مجرد الارتياب فى خيانتها لزوجها سيقتل الزوج كمدا ، وستقضى عليه بسبب الخزى والفضيحة .[٦١] وفى نقده للفنون عاب على الفنان بوشيه فساده وفسقه ، وامتدح التواضع وغيره من الفضائل المسيحية كما صورها جريز وشاردان . وبشر ديدرو فى رواياته بالفضائل القديمة مثل أى برجوازى راسخ الأركان مزدهر الأحوال . وتسلى ديدرو ببعض قطع من المرح الطائش مثل « ملحق رحلة بوجينفيل » وبعض المرح الصاخب وشطحات الخيال على مائدة العشاء عند دى هولباخ . حتى إذا عاد أدراجه إلى بيته أصر على الاستمساك بكل فضائل الطبقة الوسطى ، وحاول أن يمارسها إذا أجيز له شىء من الزنى على نطاق ضيق فقط .

وكانت أفكارة السياسية مهوشة مثل آرائه فى الأخلاق . وسلم هو بهذا فى صراحته المحببة . ولم يتفق مع فولتير فى أن الملك المستنير هو أفضل أداة ممكنة للأصلاح . واتهم فردريك الأكبر بأنه طاغية ، وحاول أن يحول كاترين الكبرى إلى الأفكار الديموقراطية . ووافق على الملكيةالدستورية ولكنه اقترح جمعية وطنية ينتخبها المـلاك لأن لهم سندا أو مصلحة فى حكومة اقتصادية صالحة .[٦٢] (وعندما كتب هذا لم يكن من المتصور أن يكون بديلا ممكنا للأرستقراطية فى حكومة فرنسا إلا الطبقة المتوسطة من الملاك) وحلم ديدرو بمجتمع كريم تتحقق فيـه للجميع الحرية والمساواة كلتاهما (وهما العدوان الطبيعيان) ولكنه ارتاب فى جدوى أية اصلاحات، حتى يرفع انتشار التعليم من مستوى تفكير الناس وعقولهم ( )

(*) الأبيات التى كثيرا ما اقتبست وشوهت هى : وقد تلوى يداه أحشاء الكاهن ، لعدم وجود حبل لشنق الملوك « وضعها ديدرو عن لسان أحد المتعصبين فى رواية « المجانين بالحرية » ولا يمكن أن تؤخذ على أنها وجهة نظر ديدرو ، لأنه استنكر صراحة قتل الملك : « لا يجوز أن يرى الشعب=

وكانت آراؤه الاقتصادية متطرفة من الناحية النظرية ، معتدلة عند التطبيق ، وحتى فى سنى الشيخوخة تعاق ديدرو بشيوعية فوضوية ، مثلا أعلى له : « إنى مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشرى أية سعادة حقيقية الا فى دولة اشتراكية ليس فيها ملك ولا قاضى ولا قسيس ولا قوانين ،ولا يكون فيها هذا لك ، وهذا لى ، وليس فيها حق تملك ، وليس فيها رذائل أو فضائل [٦٥] ولكنه اعترف بأن هذه النظرية « مثالية إلى حد شيطانى»[٦٦] وتعجب أبن أخى رامو قائلا « أى اقتصاد اجتماعى شيطانى عندنا ! فهناك أناس يتوافر لديهم كل شىء إلى حد التخمة ، على حين هناك آخرون يتضورون جوعا ولا يجدون ما يتبلغون به » [٦٧] وأدرك ديدرو فى ساعات العسرة أن عدم المساواة فى التملك سيبقى ببقاء عدم المساواة أو التكافؤ فى القدرات ، وطرح فكرة الاشتراكية لأنها غيرعملية ، حيث لم يوجد انذاك إلا بروليتاريا صغيرة غير منظمة لا تكاد تكون واعية ، ولكن راوده الأمل فى أن يرتفع مستوى هؤلاء العمال ويتحسن وضعهم وشيكا . ولما انتهى الأمر إلى الاصلاحات العملية ، أيد ديدرو الفيزيوقراطيين ووقف إلى جانب الرأسمالية الناشئة . وأعلن أن حق التملك يجب أن يكون مقدسا مطلقا ، واستنكر أى اعتداء على هذا الحق من جانب الدولة . وانضم إلى كنى وترجو وفولتير فى الدعوة إلى تحرير الصناعة والتجارة من أية قيود حكومية [٦٨] .

وحبذ الإعانات الحكومية للزراعة بوصفها أكثر فروع الاقتصاد حيوية وأهمية ، على حين أنها أيضا أكثر الفروع وقوعا تحت رحمة سائر الفروع [٦٩] . إن ديدرو مثلنا جميعاً أصبح أكثر محافظة (على القديم) كلما تقدمت به السن وزاد دخله .

= الدم الملكى مسفوحا لأى سبب مهما يكن [٦٤] ولا يمكن أن يكون لهذه الأبيات أى تأثير على مصير لويس السادس عشر ، لأنها لم تنشر إلا فى ١٧٩٥ .

٦ — ديدرو والفن

ن هذا العلاج المتجول للاهوت والأخلاق والسياسة والاقتصاد لا يشكل إلا بعض جوانب يسيرة من ديدرو المتعدد الاهتمامات والأنشطة ، فهناك غير هذا كثير . ومن كان يظن أن هذا الرجل الفظ الذي يزدحم رأسه بأفكار كثيرة سيصبح بين عشية وضحاها أعظم ناقد فنى فى عصره ؟ .

فى ١٧٥٩ كان صديقه جريم مشغولا بشئون الحرب وبمدام دى ابيناى ، فطلب إلى ديدرو أن يقوم مقامه فى تغطية أنباء معارض بينالى الرسم والنحت فى اللوفر من أجل قراء « كورسبوندانس — الرسالة » التى كان يصدرها جريم . وذكر ديدرو أنباء المعارض فيما بين عامى ١٧٥٩ — ١٧٧١ ، وعامى ١٧٧٥ — ١٧٨١ وكان فى بعض الأحيان يسهب فى ذلك أيما اسهاب لأنه كان فى هذه المذكرات يطلق لقلمه العنان ليعرض لكل مظاهر الحياة البشرية تقريبا. ولم يظهر فى مجال النقدالفنى شىء يمثل هذه القوة والصراحة وفى الصميم . وجاء بعض هذا النقد فى صيغة محادثات مع الرسامين أنفسهم فى المعرض أو على شكل رسالة شخصية إلى جريم . كما حدث فى ١٧٦١ : هاك ياصديقى الأفكار التى جالت بخاطرى عندما شاهدت اللوحات والرسوم الموجودة فى معرض هذا العام . ولقد دونتها دون أن أعنى كثيراً بفحصها أو التدقيق فيها أو إيضاحها .. وكل ما كان يدور بخلدى هو أن أوفر لك شيئا من الوقت تستغله استغلالا أفضل (٧٠) .

وأقبل على مهمته الجديدة فى ابتهاج متحمس ، وشكر لجريم إرغامه أياه على أن ينظر إلى الفن المعروض لا نظرة الجمهور العابرة ، أى نظرة سطحية زائفة ، بل العزم الأكيد على دراسة كل رسم وكل تمثال ، حتى شعر بحق بالبراعة الفنية فى العمل المعروض وقيمته وأهميته . ولم يكن ديدرو معداً من الناحية الفنية ولكنه تحدث إلى الفنانين أنفسهم — شاردان لا تور ، كوشان ، فلكونيه . . . ودرس طريقتهم فى التأليف والعمل ،

وشغل الفرشاة والتلوين . « فتحت قلبي للآثار التى ينتجها جهد الفنان ، وأدركت سحر الضوء والظل وعرفت اللون ، واكتسبت شعور الجسد (٧١)

وأصبح ديدرو آخر الأمر ناقداً قديراً للأسلوب الفني ولكنه أنكر أية معرفة تقنية أوفنية ، فإنه عرض أن يقول ماذا يعنى عنده كل عمل فنى ، فعمد بادىء ذى بدء إلى شرح الموضوع أوالقصة فى شىء من التفصيل ، حيث أن بعض قراء جريم لم يكن يتيسر لهم قط رؤية القطع الفنية التى هى موضوع البحث ، كما أن نفراً منهم اشتروا اللوحات على أية حال ، بناء على تقريظ ديدورلها . إنه غالباً ما يتخيل ثم يعيد كتابة المسرحية الحية التى لم يمثل منها الفنان إلا اللحظة المعبرة المركزة . وحول فى بعض الأحيان الفن إلى أدب ، ثم تباهى آخر الأمر بقوله . « إن شاردان ولاجرينيه ، وجريز وغيرهم . . . أكدوا لى أننى الأديب الوحيد الذى يمكن لصوره أن تمر على قطعة القماش المعدة للرسم مثلما تعاقبت فى رأسك الواحدة بعد الأخرى تقريباً (٧٢) .

إن ديدرو أوضح ما يحب وما يكره ، أو مايؤثره وما لايعجبه بصراحة لا خجل فيها. إنه بعد أن استنكر كل شىء تقريباً فى المدنية الفرنسية المعاصرة عاد فدافع عن الرسامين الفرنسيين فى حماسة مشربة بحب الوطن . ورمى هوجارت بالكذب والجهالة لأنه قال إن فرنسا ليس فيها رسامون برعوا فى استخدام الألوان ، ورد على ذلك بقوله « ربما كان شاردان من أبرع من استخدموا الألوان فى كل عصور فن الرسم » (٧٣) وكان قاسياً مع ناتييه وعاب على بوشيه لوحاته العارية ولكنه استمتع بها . وبعد أن نقد العيوب فى إحدى هذه اللوحات قال « كله يستوى عندى فلاحصل عليها كما هى ، ولا أظن أنى سأضيع الوقت فى الشكوى من أن شعرها فاحم إلى حد بالغ . وأغضبته لوحة تمثل يوسف يرفض عروض زوجة بوتيفار « لا يمكن أن أتخيل ماذا كان يريد ، وما كنت أنا أتطلب شيئاً خيراً من هذا ،

وغالباً ما أرتضيت أقل منه [٧٤] وأبدى عطفاً نحو الفنانين الذين يرسمون الصور العارية ، وبصفة خاصة نحو المثالين الذين يصبونها . وفوق كل هذا « ماذا تفعل فى التماثيل بالأزرار والنفثات [٧٥] وأحب صور جريز التى تمثل براءة الفتيات وشارك جريز نزعته العاطفية وبصفة خاصة قدر لوحاته التى رسمها لزوجته التى كانت عشيقة ديدرو أيام شبابه . واستساغ المناظر الطبيعية الموحشة فى الفن الهولندى والفلمنكى ، ووجد شعراً أكثر فى شجرة بمفردها تعانى من كر السنين وتعاقب الفصول ، منه فى واجهة قصر منيف فلابد أن يكون القصر أطلالا حتى يثير الاهتمام وتكون اللوحة مشوقة [٧٦] واستهجن التوكيد القديم الكلاسيكى — التقليدى على العقلانية والنظام والتناسق ، وامتدح الخيال الخلاق وأثره على التفكير التحليلى . ودعا إلى « تآليف مرعبة أو حسية ... تنقل الحب أو الرعب إلى أعماق القلب وتذيب الحواس وتطهر النفس ، فثمة شىء فى هذا الذى لا يمكن أن تحققه أية قواعد . [٧٧] واحتقر فكرة « الفن للفن » فكان يرى أن للفن مهمة أخلاقية هى « تمجيد الفضيلة والتنديد بالرذيلة [٧٨] .

وكان ديدرو واثقاً من ملاحظاته على معرض ١٧٦٥ إلى حد أنه أضاف إليها مقالا عن الرسم « ووجد مثل أفلاطون وأرسطو ، إن جوهر الجمال يكمن فى علاقة التناسق بين الأجزاء فى كل واحد ، ولكنه ارتأى أن يضاف إليها أيضاً تناسق بين الشىء وبيئته والغرض المقصود منه . ومن الوجهة المثالية عرف الجمال بأنه تكيف كامل مع الوظيفة فالإنسان الذكى الصحيح الجسم لابد أن يبدو جميلا . وينبغى على الفن أن يختار فى منظرما ، المعالم والقسمات التى تحدد مغزاه ، كما ينبغى أن يستبعد العناصر التى لا علاقة لها ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن يكون الفن تقليداً صاغراً حقيراً للهدف والواقع ومع ذلك يجدر بالفنان أن يدرس الشىء الطبيعى لا النماذج القديمة أو القواعد الشكلية فإن تنير Teniers واحد خير من إثنى عشر واتو Watteau خياليين . وأحس ديدرو بشىء من التنافر بين الفن والعقل ، وتبين له أن

قواعد بوالو التقليدية الكلاسيكية قد عوقت الشعر الفرنسى أو أصابته بالشلل. وهنا خالف فولتير لينضم إلى روسو فى أن الفن يجب أن يكون فوق كل شيء صوت الوجدان ونتاجه. لذلك رفع من شأن اللون على حين أن رينولدز فى نفس العقد من السنين كان يطرى التصميم. وسلم ديدرو بأن التصميم يعطى الكائنات شكلا ولكن اللون يعطيها حياة[٧٩]. ووجد جوته فى هذا المقال أشياء كثيرة بدا له أنها خطأ، ولكنه ترجم نبذا منها ووصفها لشيلر «بأنها عمل رائع، أنها تتحدث بشكل أنفع حتى للشاعر منه للرسام، ولو أنها للرسام كذلك مشعل قوى الضوء يهديه على الطريق[٨٠]».

٧ — ديدرو والمسرح

كتب ديدرو يقول «ترددت عندما كنت شابا، بين السوربون (الكهنوت) والمسرح[٨١]. وفى ١٧٧٤ كنت قد قضيت نحو ثلاثين عاماً أكتب الموسوعة على غير هوى منى، وكتبت روايتين أثنتين[٨٢]» وأولى إهتماما أكبر لرواياته منه لقصصه. ولما كان معظم قصصه لم ينشر إلا بعد وفاته فقد كان لرواياته أثر أكبر على شهرته وعلى حياته، كما أنها شكلت ما يقرب من الثورة فى تاريخ المسرح الفرنسى.

وكان ديدرو قد قرأ فى شغف زائد قصص ريتشاردسن. وفى ١٧٦١ كتب مقالة «فى مدح ريتشاردسن سما فيها إلى التغنى بالثناء على الرجل الإنجليزى، لأنه ينفخ فى القارىء من روحه وبغرس الفضائل، كما أنه أوتى الشجاعة ليصور حياة الطبقة الوسطى الجديرة بفن جاد وفوق هذا كان ديدرو قد تأثر برواية جورج لاو Lillo «تاجر لندن» (١٧٣١) التى كانت قد أبرزت بنجاح عواطف طبقة رجال الأعمال وبلاياهم على المسرح الإنجليزى. وقال أن الرواية «من مستوى رفيع» حتى لوقورنت بسوفوكليس. لماذا لا تكون القلوب الكسيره جديرة بمسرحية «مأساوية على الرغم من أنها ليست من ذوات الحسب والنسب؟ وعندما لجأ ديدرو إلى تأليف الروايات فى الأسلوب الجاد نراه قد أزعج وروع التقاليد الفرنسية بأستخدامه لروايته

شخوصا من الطبقة الوسطى وبالكتابة نثرا . وهكذا أرسل إلى المسرح والمطبعة فى ١٧٥٧ « الأبن الطبيعى أو المحرومون من الفضيلة ولم تلق نجاحا على خشبة المسرح ، ومثلت مرتين فى الأقاليم (١٧٥٧) ولم تمثل إلا ١٧٧١ فى باريس ، وواضح أنها مثلت مرة واحدة آنذاك ولكنها كانت حدثا هاما وحققت نجاحاً ورواجا وهى مطبوعة فى كتاب .

والقصة ممتعة إلى حد كبير فإن دورفال الأبن غير الشرعى المتمسك بالفضيلة الذى يعيش فى بحبوحة ، يجد نفسه قد وقع فى غرام روزالى المخطوبه لمضيفة كليرفيل ، ويحس دورفال أن الفتاة تبادله حبه فيعتزم أن ينأى بنفسه حتى لا يحطم زواج صديقة . وعندما كان على وشك مغادرة المكان رأى رجالا مسلحين يهاجمون كليرفيل ، فاشتبك فى قتال معهم وأنقذ حياة صديقة وعندما علم بأن والد روزالى التاجر فقد كل ثروته ولم يعد يستطيع أن يقدم لهـــا صداقا ، فأنه يعوض الخسارة خفية ومن ثم أصبح التاجر المفلس والد دورفال ووالد روزالى معاً ، وتوطن النفس على أن تكون أختاله وتتزوج من كليرفيل ، ويتزوج دورفال من أخت صديقه كنستانس وتختتم الرواية وقد غمرت الجميع دموع الفرح . وهذا كان اسهام ديدرو فيما كان النقاد قد أسموه بالفعل « مسرحية الدموع » .

أن الذى هيأ للرواية مكانا فى التاريخ الفرنسى سلسلة من الحوادث نشرت معها ، سميت فيما بعد « مناقشات حول الأبن الطبيعى » وجرت تقاليد المسرح الفرنسى على أن المسرحية الجادة (تمييزاً لها عن الهزلية) يجب أن تقتصر على أشخاص النبلاء ويجب أن تكتب شعرا . وأوضح ديدرو آنذاك فكرته فى أن المسرحية الجادة ينبغى إلا تخشى إستخدام شخوص وأعمال رمهن برجوازية ومشاهد من حياة الأسرة وللبيت فى شكل واقعى ، مع كتابة الرواية نثراً . ورأى ديدرو أن يبين أن عبارة « سيد مهذب من الطبقة الوسطى » ليست التناقص اللفظى الساخر الذى كان قد اوتآه موليير ، ولكنه تطور المجتمع الجديد الذى تصاعدت فيه ثروة البرجوازية ومكانتها وسلطتها ، واحتج بأنه

يجدر بالكاتب المسرحى إلا يعرض كثيراً من الدراسة للشخصية بل كثيراً من ظروف الحياة الواقعية فى الأسرة ، فى الجيش ، فى السياسة ، فى المهن ، بل حتى فى الصناعة . وحيث كانت الطبقات الوسطى منبع الفضيلة فى فرنسا فقد أصر ديدرو على أن يكون من وظائف المسرحية الجديدة أن تغرس فى الناس حب الفضيلة ومقت الرذيلة « ودمغ الفن المقصود به مجرد الترفيه بأنه ترف الطبقة الخاملة » فلابد أن يكون لكل فن وظيفة وفائدة اجتماعية . وأى هدف أن يسعى المسرح إلى تحقيقه أفضل من أن يكسو الفضيلة فتنة وسحراً وجلالا !

أن الرواية وما صاحبها من بيانات وتصريحات فرقت أهل الفكر فى باريس إلى معسكرات متنابذة ، وتناول باليسو وغيره من أعداء الفلاسفة آراء ديدرو بالتسفيه والتسخيف . أما فريرون فأنه لم ينقد الرواية بأنها تعليمية جافة كئيبة متبلة ببعض المشاعر والفضائل الزائفه فحسب ، بل أنه كذلك أوضح فى إعداد متواليه من « السنة الأدبية » التى كان يصدرها تشابها مريبابين النصف الأول من « الأبن الطبيعى » وبين كوميديا « الصديق الحق » التى كان جولدونى قد مثلها فى البندقية ١٧٥٠ . وأعترف ديدرو بقوله : لقد إستحوذت عليها وكأنها ملك خاص بى ولم يكن جولدونى أكثر تدقيقا فأنه إستحوذ على رواية موليير « البخيل » . وماكان يدور بخلد أحد أن هذا غير لائق . ولم يحلم أحد منا باتهام موليير أو كورنى بالسطو والأنتحال لأنه أقتبس ضمنا فكرة أحدى الروايات من مؤلف إيطالى أو مسرح أسبانى(٨٣) .

وهذا يصدق بطبيعة الحال على رواية كورنى « السيد Lecid » ورواية موليير « مأدبة الصخرة » Le Feslin de Pierre (دون جوان) .

وبتشجيع من الأصدقاء وتحديا للأعداء ، ووسط أشدما يلاقى من عناء فى الموسوعة ، ألف ديدرو ونشر (١٧٥٨) رواية أخرى أسمها « رب الأسرة » وأضاف إليها موضوعا أثار الغضب : بحث فى الشعر المسرحى ، وهو عنوان يذكرنا بالعنوان الذى إستخدمه دريدن لبحث مماثل منذ تسعين

عاماً . وأخرجت الرواية فى تولوز ومرسيليا فى ١٧٦٠ ، وعلى « المسرح الفرنسى » فى باريس فى فبراياً ١٧٦١ ، حيث مثلت سبع ليال مما أعتبر نجاحا متواضعا . ووافق فولتير على تأجيل عرض مسرحيته Tanerede من أجل رواية ديدرو هذه، وكتب إلى منافسه الجديد « أيها الأخ العزيز ديدرو ، تخليت لك عن مكانى عن طيب خاطر وبودى أن أتوجك باكليل الغار » فرد عليه ديدرو « شكرا لك يا أستاذى العزيز وأنى لأعلم كم كنت ترغب فى أن يلاقى تلميذك نجاحا . وقد تأثرت لهـذا كثيراً، لك حبي وأحترامى إلى أخر لحظة فى حياتى[٨٤] » وأعيد تمثيل الرواية من جديد بنجاح فى ١٧٦٩ على المسرح الفرنسى وأصبحت عنصرا هزيلا فى إنتصار الفلاسفة .

وموضوع الرواية يتصل إلى حد ما بالسيرة الذاتية ، فالوالد تذكير جميل بديدييه ديدرو ، اللهم إلا فى أنه يعظ أكثر كثيراً مما قيل لنا عن الرجل الطيب ديدييه : أما الابن سانت ألبان (وهو صورة قريبة جداً من دنيس ديدرو) فانه يسعى فى الحصول على موافقة أبويه على زواجه من صوفيا ، وهى إحدى بنات الطبقة العاملة ، ويوافق الولد على أن يراها ويحبها ، ولـكنه يرفض أن يتزوج إبنه بمثل هذه البنت الفقيرة . وبعد خمسة فصول وبمحض الصدفة التى خدمت ألف مسرحية يتبين أن هذه الشابة إبنة أسرة كريمة ويرق قلب الوالد ويجرى كل شيء على مايرام ويمكن أن يغتفر لفريرون قوله أن الرواية مثيرة ميكانيكية سخيفة . وأثار أحد النقاد إلى أن التغنى بالفضيلة كان مقصوداً به جريم الذى كان يشارك روسو إحدى البغايا ، وكان الآن عشيق مدام أبيناى ، وأن ديدرو أطلق على بطلة روايته إسم هذه العشيقة م صوفى فوللان Volland أما فولتير فانه على حين إمتدح المؤلف على مافى الرواية من « أشياء رقيقة فاضلة » كتب إلى مدام ديفان يتساءل « هل قرأ لك أحد رواية رب الأسرة ؟ أليست مضحكة تدعو إلى السخرية ؟ أن قرننا ، فيما يختص بالعقيدة والايمـــــان فقيرا إذا قورن بقرن لويس الرابع عشر »[٨٥].

ومهما يكن من أمر فإن ديدرو أحس بأن مسرحية القرن السابع عشر فى فرنسا كانت على شكل غير طبيعى تماماً فى أسلوبها الخطابى الحماسى الطنان الرنان ، وفى وحداتها المحكمة المتزمتة فى العمل والمكان والزمان ، وفى تقليدها الكئيب للروايات الكلاسيكية القديمة لا الواقع الحى ، وكانت رواياته وهى عاطفية حسية دون موازنة أوخجل بشائر رد الفعل الرومانتيكى ضد المذهب العقلى والكبت العاطفى فى العصر الكلاسيكى ، وكان تأثير ديدرو محسوساً أيضاً فى الواقعية المتزايدة فى إعداد المسرح تبعاً لمختلف الفصول ، وفى دقة ملابس الممثلين بالنسبة لعصور التاريخ وفى الحفاظ على الخصائص القومية فى النطق . واشترك ديدرو مع فولتير فى الحملة التى شنها لاخلاء خشبة المسرح من النظارة . وقال جوستاف لانسون إن كل تحسين طرأ على فن الإخراج فى المائة والخمسين عاماً الماضية نبع من ديدرو»[٨٧] اللهم الا أن المناظر الآن تميل إلى أن تكون تخيلية أكثر منها واقعية . وكذلك تجاوبت ألمانيا مع ديدرو الذى أطلق عليه سانت بيف أقرب الفرنسيين إلى الألمان . وترجم لسنج رب الأسرة والمقالات المسرحية ، وصرح بأنه ليس ثمة ذهن أكثر ميلا إلى الفلسفة وتأثراً بها إنشغل بالمسرح منذ عهد أرسطو إلا ديدرو[٨٨].

الكوميدى كذلك كان لديدرو رأيه فى فن التمثيل المسرحى ، وفى مقال طابعه التحدى تحت عنوان « تناقض حول الممثل الكوميدى « ١٧٧٨ اعترض على القول بأنه من أجل تحريك شعور جمهور المتفرجين والتأثر فيهم يجب على الممثل ألا يستسلم للعاطفة التى يعبر عنها بل يجب أن يكون هادئاً رابط الجأش ، وهذا بالطبع تسفية لرأى هوراس الذى نصح الشعراء بقوله « إذا أردتمونى أن أبكى فلتجهشوا أولا بالبكاء » . ويـــرد عليه ديدرو : « يجدر بالممثل أن يضم بين جنبيه مشاهداً أو متفرجاً لايتأثر وغير متحيز . ويجب أن يكون لديه حسن الإدراك والتمييز ، لا الحساسية . . . وإذا كان الممثل مليئاً حقاً بالشعور والوجدان فكيف يمثل نفس الدور مرتين بنفس الروح ونفس النجاح ؟ وإذا كان ممتلئاً حماسة ونشاطاً فى العرض

الأول ، فلابد أن يهن ما اشتد من قوته أو يصبح جامداً كالصخر فى العرض الثالث ، أملأ المسرح بأناس يذرفون الدموع ، ولكنى لا أسمح لأحد منهم بأن يكون على خشبته (ممثلا)[٨٩].وتلك نصيحة قلما إتبعها ممثلو مسرحيات ديدرو . وكان ثمة تناقض فى ديدرو نفسه ، ذلك أنه فى ١٧٥٧ كتب يقول إن الشعراء والممثلين يحسون بقوة ولكنهم لايعكسون إلاالقليل من أحاسيسهم[٩٠] ولكنه الآن يناقض نفسه ، وربما كان هذا راجعاً إلى أنه شاهد فى باريس فيما بين عامى ١٧٦٣/ ١٧٧٠ دافيد جارك Gorrick يثير إنفعالات وأحاسيس متباينة فى تعاقب سريع ، متى أراد . أو أنه كان قد وجد المفارقة فى هملت وهو يأمر الممثلين السنيور : « وسط السيل والعاصفة (كما يمكن أن أقول) ودوامة الانفعال تذرعوا بشىء من الاعتدال الذى يضفى عليها شيئاً من الهدوء والرفق » [٩١] ورفض سير هنرى أرفنج تحليل ديدرو ولكن ناقدا حديثاً يعتقد أنه « ظل حتى اليوم أهم محاولة لمعالجة مشكلة التمثيل » [٩٢] . ويمكن أن يكون الممثلون عاطفين فى الحياة ولا يجوز أن يكونوا كذلك على خشبة المسرح . (وربما يؤدى ضبط النفس على المسرح إلى الانطلاق والتحرر فى الحياة ، ومن ثم يجب أن يغفر لهم خطايا كثيرة) . وينبغى عليهم أن يدرسوا الاحساس المعين فى أسبابه وعلله ، ويعبروا عنه بإيماءاتهم واشاراتهم وكلامهم . ولكن يجب « أن يتذكروا فى هدوء وسكون »[٩٣] . ووتوصل ديدرو إلى إيضاح الفرق فى رسالة إلى الآنسة جوردان : « ن الممثل الذى لا يتحلى إلا بحسن التقدير والتمييز فاتر بارد ، أما هذا الذى يتميز بالحيوية والحساسية فهو مجنون »[٩٤] .

إننا إذا ألقينا بنظرة إلى الوراء فى العرض غير المرتب الذى أوردناه لذهن ديدرو المشوش نغفر له إضطرابه وسط هذا العدد الوفير من الأفكار والآراء ومجالات إهتماماته . ولم يكن شىء من الانسانيات غريباً عليه أو بعيداً عنه ، اللهم إلا الدين . بل إنه حتى بالنسبة لهذا ، فأن ديدرو لم يخل من الشعور الدينى : وكان من خصائص ديدرو أن يبدأ بالرياضيات والفيزياء

وينتهي بالمسرحية والموسيقى . ولم يكن فى مقدوره أن يكون من جهابذة العلوم ، لأنه لم يكن يطيق صبرا على البحث والتجربة ، ومن ثم قفز مبتهجاً إلى التعميات . على أنها كانت كثيراً ما تنير العقل . وعرف من الموسيقى الشيء الكثير حتى أنه كتب عن طريقة إستعمال المفاتيح ، ورسالة عن علم الايقاع ، وألف أعظم الروايات أثراً وأحسن القصص فى عصره ، ويتفرق فى القصة القصيرة على كل معاصريه فيما عدا فولتير . ولكنه بز فولتير نفسه فى أنه أضفى على القصة القصيرة من تركيز الفكر والعمل ما حدد لها شكلها حتى يومنا هذا . وحيث أدمن ديدرو على الحديث والنقاش وتدرب على إرتياد المنتديات (الصالونات) فانه طور الحوار إلى درجة من الاشراق والحيوية ، نادراً ما سمع بها قبله أو بعده . وكتب فى الفلسفة ، ولكنه لم يكتب لغة غامضة للابراج العاجية ، وإنما كتب مناقشة حية فى موضوعات حية بين أناس إندفعوا إلى معترك الحياة أو إلى خضم العالم راضين طائعين .

* * *

٨ — ديدرو

وراء هــذا الذهن المتغير الأشكال والألوان ، كان ثمة إنسان تجمل بفضائل كثيرة ، كما أنه لم يبرأ من كل الأخطاء تقريباً ، مما لعب كل منها دوره على مسرح حياته ، وعند مارسم فانلو لوحة لديدرو ، أحتج هذا على أن الوجه فى الصورة لم يظهر من صاحبه إلا جزءا سريع الزوال ، فلم يبرز إلا مجرد تعبير واحد عن حالة نفسية واحدة أومزاج واحد وقال : إن لى مائة من التعبيرات المتباينة فى كل يوم ، تبعا لحالتى النفسية أو مزاجى فى كل لحظة : كنت هادئا حزينا حالما رقيقا عنيفا منفعلا متلهفا . أن العلامات الخارجية الظاهرة لحالات ذهنى الكثيرة المتباينة كانت تلاحق بعضها بعضا بسرعة على وجهى إلى حد أن عين المصور وقعت على شخص مختلف من لحظة إلى أخرى ولم تقع على الشخص الحقيقى قط[٩٥] » .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الوجوه الكثيرة أندمجت شيئا فشيئا فى قالب مركب ، وتركت له التقاطيع والقسمات المجعدة التى نراها فى اللوحة التى رسمها له جريز Greuze مثل قيصر أضناه الالتحام العنيف مع جيش من الأفكار والأعداء ، كما أرهقته محاولاته التعبير بأدق عبارة وأجلى بيأن عن قبوله أو رفضه أى عن قوله نعم أولا . وكان له حاجبان عاليان يطلان على رأس نصف أصلع واذنان كبيرتان وأنف كبير منحن ، ولسان ناطق وذقن متجلد ، وعينان سمراوان ، ثقيلتان حزينتان ، وكأنما تستذكران من الأخطاء مالا يجوز تذكره ، أو تتأكدان من عدم قابلية الخرافة للتخريب ، أو تلاحظان أرتفاع معدل السذاجة ، وكان أمام الناس عادة يضع شعرا مستعارا ، وقد يخلعه إذا نسى نفسه فى نشوة الحديث ، وقد يلعب به أو يضعه على حجره ، وكان مستغرقا فى الحياة ، ولم يكن لديه فسحة من الوقت للتظاهر .

ولم يذعن لأى إنسان فى تقدير أخلاقه . وسلم « بأنى قد يغلبنى التأثر لحظة ولا ألبث إلا قليلا حتى أعود سيرتى الأولى ، الإنسان الصريح الوديع

المنصف المتسامح الأمين المحسن الذى يأسر الناس بحسن صنيعه . أستمر من فضلك فى قصيدة المديح لأنها لم تكمل بعد . إنى لم أذكر شيئا بعد عن ذكائى». وساوره الشك فى أن يوجد على ظهر البسيطة إنسان أكثر منه أمانة . وكان واثقا من أنه حتى « أعمدة الكنيسة » تستطيع أن تعتمد على كلمته . وكتب إلى خليلاته : « أية نفوس جميلة نفسك ونفسى ونفسه » وهنا أدخل جريم فى هذا الثالوث . وغمرته نشوة الفرح والابتهاج وهو يتحدث عن مؤلفاته ورواياته واثقا من خلودها . وأعتقد أن أخلاقه قويمة . والحق أنه احتفظ بسيدة واحدة فى وقت واحد . وتحدث عن نفسه على « أنه » الفيلسوف . « وسلم بوجود شبه بينه وبين سقراط وتساءل : « ماذا يهمنى إذا كنت أدين بمناقبى ومآثرى للطبيعة أو للخبرة مادامت ثابتة وطيدة ولن يفسدها الغرور[٩٦]

والواقع أن ديدرو تحلى بمعظم الفضائل التى نسبها لنفسه ، لقد كان أمينا بمعنى صريح ، ولو أنه اقترف كثيراً من الكذب فى شبابه . ولم يكن يتكلف أو يتظاهر ، وكان وديعا رفيعا ، اللهم إلا فى الحديث ، حيث كثيراً ما كان متهورا ، وفى بعض الأحيان خشنا جافا إلى حد كانت تضطر معه مدام جيوفرين إلى أن تنبهه إلى التزام النظام واللياقة . إنه يقينا كان شجاعا لأنه أستمر يناضل حين تخلى عنه الكثير من أصدقائه ، بل حتى نصحه فولتير بأن يكف . وكان منصفا اللهم إلا مع التقوى ومع روسو ، وقد ندرك فيما بعد أنه لم يكن يستسيغ كثيراً حساسية جان جاك روسو . وكان كريما بلا منازع مستعدا لمعونة من يلجأون إليه ، أكثر ثناء وأطراء للناس منه لنفسه . وقضى أياما كثيرة فى القيام بأعمال جريم فى صحيفة كورسبندانس ، « وصياغة محاولات أصدقائه الأدبية فى الشكل الملائم . وساعد نفرا كبيراً من الفقراء بمنح قدمها إليهم من دخله المتواضع . وإذا عرض عليه أحد الصحفيين المحتاجين قطعة هجاء فى ديدرو نفسه طالبا إليه أن يراجعها معللا ذلك بأنه إنما يسعى وراء القوت أجابه ديدرو إلى طلبه وراجعها ونقحها . بل أقترح

عليه إهداءها إلى دوق أورليان الحالى الذى يولينى شرف كراهيته لى » وهذا ما حدث فعلا وأرسل الدوق للصحفى الناشىء خمسة وعشرين جنيها[٩٧]. وكان متساهلا فى نقده للكتب واللوحات والرسوم (فيما خلا رسوم بوشيه) قائلا أنه يؤثر الأشاره إلى الأعمال الجيده على السخرية من الأعمال الرديئه[٩٨] » وكان أكثر الفلاسفة أنسا وودا . وأيد روسو حتى ١٧٥٨ ، وجريم حتى النهاية تقديراً من ديدرو لخلقه هو نفسه . وقالت مدام أبيناى أنهم تحدثوا عنه « بأعظم الأجلال والأحترام » وأعجبوا بعبقريته ، ولكن خلقه كان مثار حماسة خاصة بينهم . ويقول جريم إنه أكمل من عرف من البشر[٩٩] . وكانت أخطاؤه فى نظر مثل هؤلاء الاصدقاء أخطاء طفل صريح إلى حد السذاجه . وأعتبروا أنه أعمق من فولتير .

ومن المحقق أنه كان أكثر ثراء فى الأفكار من فولتير ، لأنه لم يكن ثمة قيود ولاضوابط فى بنيانه ، وكان أكثر خيالا وأقل عقلانية . وكان أكثر تهورا وطيشا ، ولم يكن ناضجا قط . يقول فولتير « أن ديدرو أتون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه[١٠٠]» . ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولاخبزها ، وكان شديد الحساسية مثل روسو رقيق العاطفه مثله ، كما كان ، مستعدا ليبكى على جمال الطبيعة ومآسى الحياة وأعلن رأيه فى الدين وربما عبر هذا الرأى عن نفسه : أن فى ذرف الدموع بالنسبة للنفس الحساسة الرقيقة لذة وبهجة[١٠١] . ورآه زواره أحيانا يذرف الدمع — أو فى سورة غضب — على كتاب ، وربما كانت صداقته مع روسو قائمة على التماثل فى المشاعر ونفس قـوة الوجدان ، ونفس حب الطبيعة ونفس المفهوم الرومانتيكى للعبقرية على أنها غريزه وأنفعال وخيال ، ونفس التحمس لقصص رتشاردسن . وتلهف على تحذير كلاريا من Loclace وعندما قرأ عن الملوك القساة كان من اليسير عليه أن يتخيل أنه يستخدم خنجراً فى سهولة عجيبة[١٠٢] أن فولتير + روسو = ديدرو . ولم يغفر أى من هذين الرجلين له أنه جمع بينهما كليهما ، على حين بقى هو فريدا مع نفسه .

وعبرت عاداته عن تناقص صفاته ، فأنه أحب الطعام إلى حد الشرة والأصابة بالحصى . ولكنه كان يقظا لكل النتاج الثقافى فى زمانه . وكره الترحال ولم يحبذه[١٠٣] ولكنه عبر قارة أوربا ليقدم إلى كاترين الثانية قيصرة روسيا شكره وتقديره ، وأنهمرت دموعه للشعر الجميل ، وانغمس فى البذاءة الفاحشة ، وأحتقر المال وتحدث عن الفقر صديقا ملهما للفلاسفة ، ولكن عندما مات والده قصد إلى لا نجرز (١٧٥٩) ، وسر بحصوله على ثلث التركة . ومن ثم بلغ دخله فى ١٧٦٠ نحو أربعة الآف جنيه سنوياً . فقال عند ذاك « أنا فى حاجة إلى عربة وإلى مسكن مريح ، وإلى فراش وثير وإلى سيدة معطرة ، ومن ثمأستطيع بسهولة أن أصبر على بلايا دولتنا المتمدينة . أو هنا كبح جماح فولتير فى ديدرو ، وجماح روسو فيه وسخر منه .

وشغلت زوجته بالأمومة المثبطة للهمة وبأعمال البيت غير المعطرة إلى حد لم تستطع معه أن تلقى أذنا صاغية إلى أفكار زوجها وآرائه المتكاثرة . وجأر مثل ملتون بطلب الطلاق على أساس عدم التكافوء العقلى ، ولما لم يجيزوا له الطلاق لجـأ إلى ما لايزال الفرنسيون يلجأون إليه ألا وهو إتخاذ خليله — وصفوة القول كانت هناك الآنسه بابوتى Babuti التى لازمته عشر سنين . وفى جريز Greuze ثم مدام بوسييه Puisieux التى لأزمته عشر سنين . وفى ١٧٥٥ وجد ضالته المنشودة فى سيدة شابة وفرت له لمدة ثمانية عشر عاماً الحب والأخلاص وحسن التفاهم . تلك هى لويز هنريت فوللان Volland ، وعاد فأطلق عليها أسم صوفى Sophie (لأنها بدت فى عينيه روح الحكمة) وكانت عندما التقيا لأول مرة فى الثامنه والثلاثين من عمرها غير متزوجه ريانة ممتلئة الجسم قصيرة البصر ، ووصفها بأنها تضع منظاراً على وجه « جاف » تقريباً . وكثيراً ما عنفها بين الحين والحين لأنها كانت تنافسه فى حب القراءة ، لكنها جمعت الكتب بدلا من العشاق ، وقرأت كثيراً حتى فى السياسة والفلسفة ، وكانت حلوة الحديث ، ولكنها أستمعت أكثر ممـا تحدثت ، ووجد ديدرو أن ساقيها غليظتان أكثر ممـا ينبغى ، ولكنه كان

شاكرا لهــا حسن أصغائها إليه ، مولعا بعقلها وقلبها . وكتب يوما إلى جريم يقول « آه ياعزيزى جريم ، أية سيدة هذه ! كم هى لطيفة جميلة أمينة رقيقة حساسة . ولسنا نعرف أكثر مما تأتى به هى من عادات وأخلاقيات ومشاعر فيما لا يحصى من الأشياء العامة . أن لها حكمها على الأشياء ، ووجهات نظرها وأراؤها وأفكارها وطريقة تفكيرها الخاصة بها ، كل أولئك قائم على العقل والحق وحسن الأدراك . ولا يثنيها عن شيء من ذلك الرأى العام أو الساطات أو أى شيء أخر[١٠٤] » ولا يمكن أن يكون كل هــذا هياما وغراما ، أما جوهر الموضوع فإن دكتور ترونشين رأى فيها روح نسر تسكن بيتا من السحاب[١٠٥] أى أنها أحبت الثياب الفاخرة والتحليق فى سماء الفكر والعقل .

وكتب إليها ديدرو طيلة عشرين عاماً أرق رسائله التى ستظل من ذخائر القرن الثامن عشر الأدبية . وقد استطاع أن يكتب إليها فى كل شيء بصراحة ويرسل إليها قصصه الداعرة وآخر تأملاته وأفكاره . فكتب لها كما لو كان يتحدث إليها « إذا كنت بجوارك وذراعى يطوق ظهر مقعدك[١٠٦] » . وفى علاقته بها تحقق مما لم يتحقق من مثله قط من قبل : تحقق من الدور الذى يمكن أن يلعبه الوجدان والعاطفة فى الحياة ، وكاد أن يكون من العسير عليه إلا أن يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) وبدا بعيداً عن التصديق أن تبادلهما المزدوج للأخلاص والحب والأفكار نتيجة فيزيوكيميائية لسديم بدائى . واستطاع وهو فى مثل هذه الحالة النفسية أحياناً أن يتحدث حتى عن الله . وإنه ليروى لصوفيا كيف أنه بينما كان يسير فى الريف يوماً مع جريم التقط سنبلة من القمح وأستغرق فى التفكير فى سر النمو فسأله جريم « ماذا تفعل » ؟ فأجاب « استمع » « ولكن من الذى يكلمك ؟» فرد عليه « الله » [١٠٧]

وبعد اثنى عشرة سنة من اتصاله بصوفيا فوللان فتر حبه لها . وأصبحت رسائله إليها موجزة ، كما أصبح توكيد الإخلاص أكثر تكلفاً . وفى ١٧٦٩ وهو فى السابعة والخمسين ، خلف صديقه المتوفى داميلافيل عشيقاً لمدام دى مو ، وكانت فى الرابعة والخمسين ، وبعد عام واحد أزاح ديدرو عن مكانه عاشق شاب ، على أن دنيس (أى ديدرو) ظل فى الوقت نفسه يؤكد لصوفى حبه الأبدى.

وفى كل شطحات قلبه وذهنه احتملت زوجته أنطوانيت بكل الصدق والإخلاص ، ولم تكف عن لومه وتوبيخه . والتمست السلوى والعزاء فى الدين ولعب الورق ولم ينقطع الشجار بينهما يومياً تقريباً ، ولم يضيق الزمن الهوة بين الرجل الذى تدور برأسه ألف فكرة والمرأة التى تعبد رباً واحداً ولم يتوقف أصدقاؤه قط لتحيتها عندما كانوا يأتون لزيارته . ولما اكتشفت علاقته بصوفى ثارت ثائرتها التى بدت له فرصة غير ملائمة للافتراق عنها تماماً . ولفترة من الوقت ظل يتناول طعامه فى مكتبه ، وكتب إلى جريم يقول « إنها بدأت تحس بنتائج هذا الفراق البسيط . إن نفاد نقودها وهو ما أراد وشيكا ، سيؤدى حتما إلى الصلح وعودة الإمور إلى مجاريها[١٠٨] . وإنتابها المرض فرق قلبه لها وتولى رعايتها متذمراً ، وتجاوبت معه فى رقة ظن منها أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة . ومهما يكن من أمر فإنه فى رسالة بعث بها إلى صوفى وصف مرض زوجته أنطوانيت مازحاً . وعندما فكر صديقه سوارد فى الزواج نصحه ديدرو أن يلقى بنفسه فى لجة اليم بدلا من الزواج . (وكان زواج سوارد من أسعد الزيجات فى عصر الشقاء هذا) .

وكان من الجائز أن يولى ديدرو الفرار من داره لولا أنه أحب وسائل الراحة فى بيته ، وشغف حباً بابنته الجميلة . وكانت أنطوانيت (١٧٣) فى الثالثة والأربعين حين وضعت طفلها الرابع . وشبت مارى أنجليك واكتملت لها كل مفاتن الأنوثة ، فركز ديدرو كل اهتمامه عليها وتعلق بها ، فشاركها فى ألعابها . وأنا لنتصور الرجل الذى أثقلت الفلسفة رأسه يلعب مع ابنته الصغيرة الغمضية والحجلة والطفل المعصوب العينين « كنت شغوفاً بابنتى الصغيرة إلى حد الجنون . أية شخصية محبة هى : أو أية سيدة أستطيع أن أخلق منها إذا سمحت لى امها بذلك » . وعنى بتلقينها كل الفضائل المسيحية . ولما قاربت سن البلوغ زودها بتوجيهات صريحة لتصون نفسها من ذئاب باريس . وماذا كانت تعنى عروضهم ؟ « إنها تعنى يا آنسة رضاء لى ، هلا جللت نفسك بالفضيحة والعار ، وفقدت مركزك الاجتماعى

وتواريت عن أنظار المجتمع ، وحبست نفسك فى أحد الأديار وجعلت أباك وأمك يموتان حزناً وجزعاً (١٠٩)؟

ومن ثم فإنه مثل أى أب فرنسى أدخر مالا ليدفع لها الصداق ، واتصل بمختلف الأسرات ليجد لها زوجاً فى الوقت المناسب ، واستقر رأيه على اختيار زوج ابنته ورفضته أمها انطوانيت ، ولكن وافقت عليه الآنسة مارى وزفت إليه (١٧٧٢) ، وبكى ديدرو لفراقها ، ولكن اغرورقت عيناه أكثر بدموع الفرح عندما رأى سعادتها الزوجية ، وعاون الزوجان الصغيرين بسخاء قائلا « أليس من الأفضل أن أعاونهم فى وقت الشدة أكثر من أن أنتظر إلى الوقت الذى لايعودان يحتاجان إلى فيه » . وأصبح زوج الإبنة هذا صاحب مصنع ناجحاً كما أصبحت ذريته بعد عودة حكم البوربون (١٨١٤) من المحافظين الحذرين الحريصين .

ولما نضج فى ديدرو الاحساس بالأبوة بدأ يحسن فهم أبيه ، وينظر بين الاجلال والتقدير القانون الأخلاقى الذى ساعد رجلا على تنشئة أسرة طيبة ، ولكن قدراً كبيراً من البوهيمية ظل يلازمه . وعلى الرغم من أنه حب عرينه وملابسه وأخفافه القديمة ، وأولع بتدفئة أصابع قدميه أمام النار ويلزم البيت ، فإنه كان يحرم نفسه من هذه المتعة بين والحين ، مثلما قضى مرة شهراً مع دى هولباخ فى جراندفال Grandval وظل يرتاد المقاهى ، وكان شخصية مألوفة فى بعض الصالونات ، وأحبته مـــدام جبوفرين على الرغم من خشونته فى الحديث . وفى نوبة من نوبات عطف الأمومة أرسلت إليه مكتبا جديداً وطاقماً من الكراسى المريحة المصنوعة من الجلد وساعة حائط ضخمة من الذهب والبرونز ومبذلا فاخراً — « روب دى شامبر » وقدم لها الشكر وتخلى عن أثاثه القديم وهو حزين ولكنه عبر عن أعمق الأسف لردائه الذى نبذه ! « لم لم احتفظ به أنه قد صنع من أجلى ، ولا يصلح إلا لى ولا أصلح إلا له ، والتأم مع كل ثنية فى جسمى دون أن يزعجنى ، وكان رداء جميلا مليحا على حين أن الرداء الجديد جامد يابس

وكأنه يجعل منى تمثالا لعرض الأزياء (مانيكان) . وكانت طبيعته الطيبة الودودة تسارع إلى تلبية كل نداء وتأدية كل خدمة ، فإذا علا التراب أحد الكتب أمكن استخدام أحد جوانب الرداء منفضة . وإذا كان الحبر على قلمي سميكا لا يتدفق كان جانب الرداء على أهبة الاستعداد . وإنك لترى من خلال الخطوط السوداء الطويلة كم من الخدمات أدى هذا الرداء . إن هذه الخطوط والأشرطة السوداء هي التي أنبأت عن الأديب وعن الكاتب وعن المجد الكادح ، أما الآن فيبدو على انى ثرى خامل الذكر ، لا يعرفني أحد وكنت صاحب السلطان المطلق على ردائى القديم أما الآن فقد أصبحت عبداً أسيرا للرداء الجديد »(١١٠)

واعتبر ديدرو أن صداقاته هي أكبر ساوى وأعظم إلهام له في حياته . وكان ارتباطه بجريم أوثق وأبقى من سائر محبيه . وفى ١٧٧٢ بعد أن كان الواحد منهما قد عرف الآخر لمده اثنتين وعشرين عاما كتب إليه « عزيزى صديقى الوحيد ، لقد كنت دائماً وستكون دائماً صديقى العزيز الوحيد (١١١) ومع ذلك أساء فتور جريم وتظاهره بعدم الاكتراث فى بعض الأحيان إساءة بالغة إلى ديدرو . إن جريم الألمانى استغل طيبة قلب ديدرو وكثيراً ما أنابه عنـــه فى تحرير صحيفته « كورسبندانس » وحل محاه لا فى كتابة أخبار المعارض فحسب ، بل فى عرض أحدث الكتب كذلك . وفى بعض الأحيان اشتغل أثناء الليل حتى آخر لحظة حددها جريم لإنجاز العمل (١١٢) وعرض جريم على ديدرو أجراً فرفض أن يؤجر . ومن المؤسف أن نروى أنه فى ١٧٧٣ سمع ستانلاس بونياتوسكى ملك بولنده أن ديدرو كان يعد العدة لزيارة سانت بطرسبرج ، وفكر فى دعوته للتوقف لعدة أيام فى وارسو ، فما كان من جريم إلا أن نصح الملك بأنه لا غناء فى التعرف على الفيلسوف « إن ديدرو بدلا من استغلال وقته فى اقتسام مجد العبقرية مع فولتير يضيعه فى كتابة شذرات لصحيفة كورسبنداس أو يضيعه سدى مع كل من يجد فى نفسه الجرأة ليسأله . وأستطيع أن أؤكد لجلالتكم أنه سيموت مغموراً غير معروف (١١٣) » .

وربما كانت أسعد ساعات ديدرو (عدا الوقت الذى كان يقضيه مع ابنته أنجليك) هى تلك التى كان يقف فيها خطيبا فى أمسيات دى هولباخ أو مدام جيوفرين للعشاء ، وينطلق فى الحديث بفصاحة فى أى موضوع وهو لا يكون فى أفضل حالاته فى الاجتماعات التى يغلب عليها الأدب والتهذيب والتى يكون فيها الظرف هو المطلوب لا الأفكار . وكم انزعجت مدام جيوفرين نفسها من تحمساته ، وكانت نصائحها له بالاعتدال والتزام آداب اللياقة قدر شطحاته هو ، ولكن على مائدة البارون التى اجتمع إليها كما أكدوا لهيوم ، سبعة عشر ملحدا أطاق ديدرو لنفسه العنـــان ومن ثم (كما أجمع كلهم تقريباً) لا يكون فى أحاديث باريس الممتعة ما هو أكثر امتناعا وسحرا من حديث ديدرو ويقول مارمونتل « إن الذى عرف ديدرو من كتاباته وحدها لا يعرفه إطلاقاً ...لقد نعمت منه بمتعة فكرية أعظم[١١٤] أما هنرى ميستر الذى كثيرا ما نسمعه فإنه يصفه فى مقارنة ملائمة « إنى عندما استرجع ديدرو فى ذاكرتى وأرى شدة تنوع أفكاره وغزارة علمه المذهلة وتحليقه وشطحاته السريعة وحرارته واضطراب خياله المتهور وكل ما فى حديثه من فتنه وسحر وتشويش ، أتجاسر فأشبه شخصيته بالطبيعة نفسها تماماً ، كما تعود أن يتصورها ، غنية خصبة تكثر فيها الجراثيم من كل جنس ، وديعة عنيفة بسيطة فخمة ، قيمة مهيبة ولكن على غير مبدأ أو قاعدة ، ودون سيد ذى سلطان ودون إله [١١٥] .

واستمع إلى تقرير مباشر عن حديث ديدرو عن نفسه « بدا أنى شاذ غريب عليهم ، ملهم سماوى . إن جريم نفسه لم يتهيأ له من البصر ما يرانى به ولا من السمع ما يستمع إلى به ، ودهشوا جميعا وأحسست أنا نفسى بين جنبي بشيء من الرضا لا أستطيع التعبير عنـــه ، إنه كان أشبه بنار تضطرم فى أعماق تلفح صدرى ، انتشرت بينهم وألهبتهم . كانت أمسية من الحماسه كنت أنا مضرمها »[١١٦] .

وكانت شهرته المعاصرة أعظم بين من عرفوه منها بين أولئك الذين

أوا فقط أعماله المنشورة ، وأهمها دائرة المعـــارف ورواياته وأحسنها التمسك بالدين وجاك المؤمن بالقضاء والقدر ،وحلم دالمبير وابن أخى رامو، ولم تكن قد طبعت عند وفاته . ومل أجل هذا السبب من ناحية ولتطرف آرائه وأفكاره فى الدين والجنس اخفق ولم يحاول قط اللحاق بالأكادنمية ومهما يكن من أمر فإنه فى نظر اصدقائه كان الفيلسوف زعيم جماعة الثائرين المتمردين . إن روسو حتى بعد أن كرهه باعتبـــاره عدوا خفيا كتب فى اعترافاته « سيبدو ديدرو لعدة قرون قادمة فذا أعجوبة ، وينظر الناس من بعيد إلى هذا الرأس العالمى بمزيج من الأعجاب والدهشة كما ننظر نحن الآن إلى رأس أفلاطون وأرسطو (١١٧) .

وافتتن جيته وشيللر ولسنج بكتابات ديدرو وشارك ستندال وبلزاك ودلاكروا فى الاعجاب به واعتبره كومت أسمى عبقـــرية فى ذاك العصر المثير (١١٨) واسماه ميشيليه « بروميثيوس الحقيقى (فى الأساطير اليونانية هو الشيطان المعبود الذى سرق النار من السماء وعلمها لأهل الأرض) . وقال إن المرء ليستطيع أن ينهل من كتابات ديدرو لمدة مئة سنة ومع ذلك تتبقى ذخائر لا حصر لها (١١٩) وهلا استمعنا إلى مدام جيوفرين التى عرفته حق المعرفة ، ولكنها لم تقرأ كتبه ، إنها كتبت تقول « أنه رجل طيب ورجل أمين ولكنه عنيد متشبث برأيه (ولو كان خطأ) غير متزن إلى حد أنه يرى ويسمع الأشياء على ما هى عليه ومثله دائماً كمثل رجل يحلم ثم هو يؤمن بأنه أحلامه صادقة (١٢٠) .

كان ديدرو طيبا وسيئاً ، أمينا وخائنا ، عنيداً ونزاعا إلى الحق ، قليل التوازن وخلاقا مبدعاً بشكل بارع ، كما كان حالماً ومناضلا ومتنبئاً ، يبدو أن مكانته فى التاريخ تعلو وتسمو كلما ابتعد زمانه ، حتى إن بعضهم اليوم ليعتقد أنه أعظم شخصية امتاعا وإثارة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر (١٢١) ولنقف الآن عند هذا الحد حتى نلتقى به مرة أخرى وجها وجها مع امبراطورة ثم فى لقاء الفلاسفة مع الموت .

الفصل الحادى والعشرون

إتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ — ١٧٧٤

هلفشيوس ١٧١٥ — ١٧٧١

١ — تطوره :

إنحدرت الأسرة من أصل سويسرى ألمانى سثل هؤلاء الأقوام الأشداء الممتلئين نشاطاً الذين تزهو وتزدهر بهم اليوم برن وزيوريخ . واتخذ أحد الأعضاء فى نيوشاتل إسم Schweitzer ومعناه سريسرى . وحمل آخر إنتقل إلى الأراضى الوطيئة إسم Helvetius ومعناه أيضاً سويسرى ، وانتقل هذا الفرع الثانى إلى باريس حوالى ١٦٨٠ ، وهنا أصبح جان كلود أدريان هلفشيوس طبيباً للملكة مارى لزكزنسكا . ومن أولاده العشرين يعنينا هنا كلود أدريان الذى ولد فى ٢٦ يناير ١٧١٥ والذى نشأ وترعرع فى كنف الطب الذى ترك بعض بصمات على فلسفته وبعد أن تلقى تعليمه على يد الجزويت فى كلية لويس العظيم تتلمذ على يد أحد جباة الضرائب . وسرعان ما أثرى . وفى سن الثالثة والعشرين بلغ دخله نحو ٣٦٠ ألف جنيه فى السنة [1] وكان وسيما وراقصاً ومبارزاً بارعاً كما كان محبوباً لدى رجال الحاشية ونسائها ، وعين سديراً للشئون الداخلية للملكة . ولم يكن مستعداً بأية حال ليكون فيلسوفاً ، اللهم إلا أنه كان يحذق تأليف الكتب :

والـ،،نه فى ١٧٣٨ ألتقى بفولتير فروعه عقله وشهرته وراوده حلم الكتابة والتأليف . فهلا يكون إمتيازاً غريباً أو غير مألوف أن يكون رأسمالياً وفيلسوفاً فى وقت معا ؟ وقضى بعض الوقت فى بوردو ضيفا على منتسكيو ،

ثم فى برجندى مع بيفون . وعمل تأثير هذين الرجلين على تشكيل هلفشيوس ، وأصبح صديقاً وثيق الصله بمليونير آخر هو البارون دى هولباخ الذى كان الزعيم المادى فى هذا العصر . وفى أمسيات العشاء لدى البلرون وفى صالون مدام دى جرافينى التقى بديدرو وجريم وروسو ود يكلوس وجاليانى ومارمومنتيل وترجو . ومن ثم تحولت إتجاهاته .

وفى ١٧٥١ إتخذ قرارين خطيرين ، فتخلى عن منصبه الوفير الكسب وهو منصب الملتزم العام للضرائب ، ولجـــأ إلى ضيعة إقطاعية فى Vore - au perche وتفرغ لتأليف كتاب يهز العالم وفى العام نفسه وهو فى السادسة والثلاثين تزوج من آن كاترين دى لينيفيل دى أوتريكورت ؛ وهى كونتيسه من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت آنذاك فى الثانية والثلاثين من من العمر وهى من أجمل السيدات وأكثرهن كياسة وعقلا فى فرنسا وأخذها على الفور إلى بلدته فوريه حتى لاتفسدها باريس على حد قول جريم . وهناك أو فى باريس دخل فونتيل وكان يناهز مائة عام إلى حجرة ملابس الكونتيسة الجميلة وهى تكاد تكون عارية تماماً ، فصرخ وهو يرتد من من الحجرة فرحا : آه ياسيدتى لو أنى كنت فى سن الثمانين فقط (٢).

واحتفظ الزوجان السعيدان كذلك بدار فى باريس . وهناك جذب إليها كرم هلفشيوس ومفاتن زوجته كثيراً من قادة الفكر مثل ديدرو ودى هولباخ وفونتنيل وبيون ودالمبر وبيفوت وترجو وحالبانى وموريلى وكوندرسيه وهبوم . ويقول مارمونتيل : كم أصبحت هذه الدار ملائمة مريحة لرجال الأدب(٣) وحاول هلفشيوس فى حفلات العشاء أن يوجه المناقشة إلى الموضوعات التى فكر فى أن يكتب فيها ، ويثير النقد لأفكاره وأبدى أنه يصغى كل الاصغاء لما يقال من نقد ، وشكا موريليه من أن هلفشيوس يؤلف كتابه شركة بينهم(٤).

وظل هلفشيوس يعمل فى إعداد الكتاب سبع سنين دأبا ، حتى خرج

الكتاب المرموق فى ١٥ يولية ١٧٥٨ بعنوان « الذكاء » ولشد ما كانت دهشة الأصدقاء الذين رأوا المخطوطة حين ظهر الكتاب متمتعا بالترخيص الملكى الثمين بالنشر . ذلك أن مالشرب كان قد عهد إلى جان بيير ترسيية بمراجعة الكتاب تمهيداً لنشره (عمل الرقابة على المصنفات) ، فقرر ترسيبه « من رأيى أنه ليس فى الكتاب ما يحول دون نشره[٥] ولكن المحامى العام فى برلمان باريس دفع الكتاب فى ٦ أغسطس بأنه محشو بالهرطقة والكفر ، وألغى مجلس الدولة فى ١٠ أغسطس الترخيص بالطبع ، وسرعان ما عزل ترسيبه عن مناصبه المربحه . ودفع يهاجم المسيحية قائلا : بأى لون من الإلحاد والكفر يتهموننى ؟ أنا لم أنكر فى أى جزء من الكتاب التثليث أو ألوهية المسيح أو خلود الروح أو بعث الموتى أو أية ناحية أخرى من نواحى العقيدة البابوية ، ومن ثم فانى لم أهاجم الديانة بأى شكل من الأشكال[٦]. وخشى فولتير أن يرسل هلفشيوس إلى الباستيل فنصحه بالرحيل ، ولكن هلفشيوس كان مستريحا فى ذاك إلى حد لا يضحى معه من أجل الكتاب ، فأصدر تراجعا فى صيغة رسالة إلى قسيس ، فأعلنت الحكومة بأن هذا غير كاف فنشر هو اعتذارا يقول جريم « أنه مذل إلى حد لايدهش معه المرء أن يرى رجلا يؤثر أن يلجأ إلى الهوتنتوت (قبائل السود فى جنوب أفريقية) على أن يضع اسمه على مثل هذه الاعترافات[٧] » وقصدت مدام هلفشيوس إلى فرساى لتشفع لزوجها ورضيت الحكومة بأن يأوى إلى ضيعته لمدة عامين ، وربما أصبحت العقوبة أشد من ذاك لولا أن الملك تذكر أن والد هلفشيوس أنقذ حياته ذات مرة حين كان طبيبا للملكة . وفى ٣ يناير إتهم البابا كليمنت الثالث عشر الكتاب بأنه مخز فاسق لا يلتزم قواعد الدين ، وفى فبراير أحرق علنا بأمر من البرلمان . ولقد رأينا كيف أن هذه « الضجة حول مسألة تافهة كما سماها فولتير قد أسهمت مع مقالة دالمبير عن جنيف فى تضييق الخناق على موسوعة ديدرو ، وبكل هذا الإعلان الواسع النطاق عن كتاب « الذكاء » تهافت الناس على قراءته أكثر مما أقبلوا على أى كتاب

لعب دوراً فى الحملة على المسيحية . وظهرت منه عشرون طبعة بالفرنسية على مدى ستة أشهر . وسرعان ماترجم إلى الإنجليزية والألمانية واليوم لايعرف عنه شيئاً إلا القليل من العلماء والباحثين ويكاد يكون من المتعذر الحصول على نسخة منه .

ولم ينشر هلفشيوس شيئاً بعد ذلك ، ولكنه استمر يكتب . وصرح ثانية وتوسع متروياً غاضباً فى شرح وجهات نظره فى رسالة «عن الإنسان» وهى التى هاجم فيها رجال الدين بوصفهم باعة متجولين يتجرون فى الرجاء والخوف وينشرون الجهل ويقتلون الفكر . وفى هذين الكتابين نجد كل مثله العليا فى هذا العصر الطموح ، الحرية والمساواة والأخوة : حرية الكلام والصحافة والاجتماع والعبارة ، والمساواة بين الجنسين كليهما ، وبين كل الطبقات فى فرص التعليم وأمام القانون، وتأييد يكاد يكون إشتراكياً لدولة الخير العام حماية وتعويضاً للفقراء السذج ضد الأغنياء الأذكياء » . وكل هذه الآراء والمثل العليا يتوجها إيمان شبيه بالايمان الدينى فى إمكان بلوغ الجنس البشرى مرتبة الكمال المطلق . وهنا أيضاً إذا أصغينا جيداً لسمعنا صوت الثورة .

٢ — فلسفته :

ومثل كل الفلاسفة تقريباً يبدأ هلفشيوس بلوك . فكل الأفكار مستمدة من الإحساس ، ويلى ذلك من خبرة الفرد . فكل الحالات العقلية عبارة عن مجموعات متضامة من الأحاسيس يشعر بها الإنسان حالياً أو تنبعث من جديد من الماضى عن طريق الذاكرة ، أو يتصورها مستقبلا عن طريق الخيال . أما إصدار الحكم أو إتخاذ القرار فهو الاحساس بالفوارق بين الأحاسيس . أما العقل فهو مجموعة من الأحكام أو القرارات .

وليس الذهن والنفس شيئاً واحداً فالذهن هو تجمع أو تعاقب للحالات العقلية . أما النفس فهى حساسية الكائن الحى أى القدرة على إستقبال

الأحاسيس وكل الإحساس مادى . وكل النفس قوة فى المادة . أن كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعى تثبت بوضوح أن هذه القوة . . . تبدأ بتكوين أعضاء الجسم ، وتبقى ما بقيت ثم تنقضى هذه النفس بانحلال هذه الأعضاء وفنائها(٨) . وللحيوانات أنفس . ويسموا الإنسان على الحيوان بفضل نموه واستواء قامته حيث تتحول قوائمه الأمامية تدريجاً إلى أيد قادرة على الامساك بالأشياء ومعالجتها .

وحيث بدأ هلفشيوس بجون لوك فأنه يتابع المسيرة مع هوبز . فكل عمل رغبة تستجيب لاحاسيس حالية أو مبتعثة . والرغبه هى تذكر اللذه التى أقترنت بأحاسيس معينة ، والأنفعال رغبة ملحة ، وتختلف فى شدتها تبعاً للألم أو اللذة المتذكرة والمتوقعة . والأنفعالات تؤدى بنا غالبا إلى الخطأ ، لأنها تركز إنتباهنا على ناحية معينة من شىء أو موقف بعينه ولا تهيىء لنا المجـــال لتدبره من جميع جوانبه(٩) . والذكاء بهذا المعنى هو تأخر رد الفعل ليهيىء إدراكا أوسع وإستجابة أوفى . وعلى الرغم من ذلك فالأنفعالات بالنسبة للخلق هى الحركة بالنسبة للمادة . وهى تزودنا بالدافع حتى الدافع إلى المعرفة . فالأنجاز العقل لأى شخص يختلف تبعاً لحدة أنفعالاته فالإنسان العبقرى إنسان ذو إنفعالات قوية والإنسان الغبى مجرد منها(١٠) . والأنفعال الأساسى هو حب القوة والسيطرة ، وهو أساسى لأنه يزيد فى قدرتنا على تحقيق رغباتنا .

وعند هذا الحـــد إستحق عمل هلفشيوس ما وصفه به فولتير من أنه « عجة بيض » أى خليط من الأفكار التى كانت سائدة منذ عهد طويل فى دنيا الفلسفة ، ولكنه إنطلق الآن إلى أكثر آرائه ومسائله إمتيازا . فحيث أن كل الأفكار تنبع من خبرات الفرد وتجاربه فإن التباين بين أفكار الأفراد والأمم وخلقها يعتمد على الفوارق بين بيئة الفرد أو الأمة . ولدى كل الناس عند مولدهم استعداد متساو للفهم والحكم وليس ، هناك تفوق فطرى أو طبيعى فى الذهن . لقد وهب الجميع قـــوة وقدرة على الأنتباه كافيتين

للأرتفاع بهم إلى مرتبة الرجال اللامعين المرموقين إذا كانت البيئة والتعليم والظروف ملائمة لهم . وعدم المساواة فى القدرة والأهلية هـو دائما نتيجة الاختلاف فى الموقف الذى تصادف أن وضعوا فيه[١١] .

« وفى اللحظة التى يخرج فيها الطفل من بطن أمه . . . . يدخل إلى الحياة دون أفكار ودون انفعالات . وكل ما يحس به هو الجوع . إننا فى المهد (أى عن طريق الوراثة) لا نتلقى انفعالات الزهو والكبرياء والجشع والطمع والرغبة فى حسن التقدير والمجد والعظمه . إن هـذه الأنفعالات المثيرة للشقاق والشغب التى تتولد بين البلدان والمدن تفترض مقدما وجود تقاليد وقوانين قائمة بالفعل بين الناس . . . ومثل هذه الأنفعالات لا تكون معروفة لدى من تحمله ساعة مولده عاصفة إلى صحراء مقفرة يغذيه ذئب مثل روميلوس . وحب المجد والعظمة شيء مكتسب ، ومن ثم فهو نتيجة درس وتعليم[١٢] » .

وحتى العبقرية نفسها نتاج البيئه ، أى الخبرة بالأضافة إلى الظروف ويضيف العبقرى الخطوة الأخيرة إلى خطوات أكتشفت وإتخذت قبله . وهذه الخطوة الأخيرة تكون تبعاً للظروف . وكل فكرة جديده هى نعمة من نعم الصدفة ، أى سلسة من النتائج والآثار لأندرك لها سبب[١٣] .

« ومن أين يأتى عدم المساواه التامة فى الفهم والذكاء » ؟ السبب فى هذا هو أن أى إنسان لأيدرك على وجه الدقه نفس الأشياء ، وليس هو على وجه الدقة فى نفس الموقف ، ولم يتلق نفس التعليم ، كما أن الصدفة أو الحظ الذى يسمو على تعليمنا لايؤدى بكل الناس إلى كنوز غنية مثمرة بقدر سواء . وإننا من أجل هذا ننسب إلى التعليم — بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . مع أخذ فكرة المصادفة والحظ فى أعتبارنا — ننسب عـدم المساواة فى الفهم والذكاء[١٤] .

ومن الجائز أن هذا التحليل النفسى وهو سخى بصفه خاصة من أحد أصحاب الملايين ، مشتق أو نابع من وضع سياسى . فالمحافظون يؤكدون

فوارق الوراثه وتأثيرها ، والحاجة إلى الحرص والحذر فى تغيير النظم المتأصلة فى عدم المساواة الطبيعية والمحلية فى القدرة والخلق . أما دعاة الأصلاح فيؤكدون على فوارق البيئة وتأثيرها ، ممـا يجعل عدم المساواة فى القدرة والقوة والثروة يبدو راجعاً إلى المصادفة والحظ ، إلى مفارقات المولد وميزات الظروف أكثر منه إلى جدارة فطرية . ومن ثم يمكن خفض عدم المساواة بالمساواة فى التعليم وتحسين البيئة . ويطبق هلفشيوس نظريته فى المساواة الطبيعية على الأجناس والأفراد . فكان يمكن أن تصل كل الأجناس إلى نمومتساو إذا تساوت الفرص البيئية لديها . وينتج عن هذا أن الغرور القومى أو الأعتزاز بالجنس مثل الغرور الفردى أو إعتزاز الفرد بنفسه ، ليس له فى الواقع أى مبرر . أن الحرية التى يفاخربها الأنجليز . . . ليست جزاء لشجاعتهم بقدر ما هى نعمة الحظ — « أعنى القنال الانجليزى والبحار التى تحميهم (الحرية الداخلية إذا تساوت الأشياء الأخرى تتفاوت عكسيا مثل الخطر الخارجى) .

وواضح على هذه الأسس أن طريق التقدم يتبع تحسين التعليم والمجتمع والحكومة . « إن التعليم قادر على التأثير فى كل شىء » . ألا يدرب التعليم الدب على الرقص(١٥) ؟ أن كل التقدم ، حتى فى الاخلاق يتوقف على إنتشار المعرفة وتدريب الذكاء . إقض على الجهل وبذلك تقضى على كل بذور الشر(١٦) ومن أجل الأقتراب من هذا الهدف يجدر أن يعاد بناء نظام التعليم فى فرنسا كما ينبغى أن يحرر من ربقة الكنيسة ويعهد به إلى الدولة ، كما يجب أن يكون فى متناول كل الأفراد من الجنسين كليهما وفى كل الأعمار . ويجدر أن يحل تدريس العلوم والتقنيات محـل تعليم اللاتينية والأغريقية ، ويجب أن يكون ثمـة تركيز جديد على بناء الأجسام الصحيحة « والعقول السليمة المتمسكة بالفضيلة(١٧) » .

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل فى دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة فى فرنسا . أنه يهاجم الكنيسة من

وجهة نظر اجتماعية لا لاهوتية ، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية فى تمجيد العزوبة والفقر ، ولكنه يطرب ويبتهج لأن قلة ضئيلة من المسيحيين هم الذين ينظرون إلى هذه الأفكار بعين الجد . « أن ميلا خفياً إلى الشك وعدم التصديق يقاوم هذا الأثر الخبيث المؤذى للمبادىء الدينية[١٨] أنه يتهم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنها تعوق التقدم الفنى والعلمى فى الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب ، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لأخضاعه للسيطرة الكهنوتية[١٩] .

« إن رغبة رجال الدين فى كل العصور إنصرفت إلى القوة والنفوذ والثراء . وبأية وسيلة يمكن أشباع هذه الرغبة ؟ ببيع الرجاء (فى التعليم) والخوف (من الجحيم) . إن الكهنة وهم تجار جملة فى هذه السلع كانوا يحسون ويدركون أن هذا البيع سيكون مؤكدا رابحا[٢٠] . . . . . وتتوقف قوة الكاهن وسلطانه على الخرافات ، وعلى تصديق الناس فى غباء وحمق لهم . وليس لتعليمهم قيمة لديه . وكلما قلت المعرفة عندهم ازدادوا إمتثالا لأوامره[٢١] . . . . إن أول هدف للكهنة فى كل ديانة هــو خنق حب الاستطلاع عند الناس ، والحيلولة دون فحص أية تعاليم ومبادىء يكون سخفها ملموسا محسوسا إلى حد لا يمكن إخفاؤه[٢٢] . . . لقد ولد الإنسان جاهلا ، ولكنه لم يولد مغفلا أبله ، وليس إلا بالجهد والمشقة ليكون كذلك ، ولابد لذلك وليكون قادرا على أطفاء هــذا النور الطبيعى فى داخله من إستخدام كثير من الخداع والحيل والأساليب ، ومن ثم يكدس التوجيه والتربية فى ذهنه أخطاء فوق أخطاء[٢٣] وليس ثمة شيء تعجز قوة الكهنوت بمساعدة الخرافة عن تنفيذه ، لأنها تسلب الحكام والقضاة سلطانهم وسيادتهم ، والملوك سلطتهم الشرعية . وبذلك تخضع الناس وتحرز السيطرة عليهم . وغالبا ما تكون هــذه أعلى من سيادة القوانين ، ومن ثم تفسد فى النهاية المبادىء الاخلاقية نفسها[٢٤] .

ويضيف هلفشيوس ثمانية فصول عن التسامح .

« أنه التعصب أو عدم التسامح الديني هو ربيب الطمع الكهنوتي وصرعة الصديق الغبي الأحمق[٢٥] . وإذا أنا صدقت مربيّ أو معلميّ إن كل ديانة أخرى باطلة زائفة ، وديانتي وحدها هي الصحيحة الحقة . ولكن هل يعترف العالم كله بهذا ؟ لا ، فإن الأرض لاتزال تئن تحت وطأة المعابد الكثيرة الموقوفة على الخطأ[٢٦] . وماذا يعلمنا تاريخ الأديان ؟ أنها أضاءت في كل مكان مشعل التعصب وملأت السهول بالجثث وخضبت الحقول بالدماء واحرقت المدن وإقامت أمبراطوريات مهلهلة[٢٧] . أليس الأتراك ، ودينهم دين جهاد وحرب ، أكثر تسامحا منا ؟ إننا نشهد الكنائس فى القسطنطينية واكنا لأنرى مساجد فى باريس[٢٨] . أن التسامح يخضع الكاهن للأمير ولكن التعصب يخضع الأمير للكاهن[٢٩] .

ويميل هلفشيوس إلى القول باستثناء واحد فى جانب التعصب ، حيث يقول : « هناك سبب واحد يمكن أن يكون فيه التعصب ضاراً بالشعب ، حيث يكون التسامح مع عقيدة تتسم بالتعصب مثل الكاثوليكية . فإن مثل هذه العقيدة التي تصبح أقوى ما تكون فى دولة ما سوف تسفك دائماً دماء حماتها الأغبياء . لا تسمحوا للكاثوليك المتملقين أن يستغلوا البروتستانت . إن القساوسة الذين يعتبرون التعصب فى بروسيا أمـــراً بغيضاً وخرقاً للقانون الطبيعي والسماوي ينظرون إلى التسامح فى فرنسا على أنه جريمة وهرطقة . وماذا يجعل الإنسان مختلفا عن غيره فى مختلف الأقطار ؟ ليس إلا ضعفه فى بروسيا وقوته فى فرنسا. وإذا تأملنا فىسلوك المسيحيين الكاثوليك، لوجدنا أنهم فى البداية حين يكونون ضعافاً يبدون وكأنهم حملان وديعة حتى إذا أصبحوا أقوياء كانوا وحوشاً ضارية[٣٠] .

وأدلى هلفشيوس من حين إلى حين بكلمة طيبة عن المسيحية ، وبخاصة عن البروتستانتية ولم يكن ملحداً ولـكنه كره تصوير الأصفار المقدسة للإله

طاغية . . . يعاقب على الهنات الهينات بالعذاب المقيم [٣١] . وراوده الأمل فى ديانة عالمية « تقيم تحت رقابة الدولة « أخلاقيات طبيعية » متحررة من الثواب والعقاب بعد الموت [٣٢]. ووضع العقل الإنسانى فوق كل دعاوى الإنسان للوحى الإلهى . فإن الرجل الأمين سوف يمتثل دائماً لعقله مؤثراً إياه على الوحى . لأنه سيقول بينه وبين نفسه عن يقين بالغ بأن الله هو منشىء العقل البشرى أكثر من أنه مؤلف كتاب بعينه [٣٣]

ولكن أليست المعتقدات الخارقة والوازع الدينى ضرورية لفاعلية القانون الأخلاقى ؟ يقول هلفشيوس . كلا « ليس على الدين ولكن على التشريع أو القانون وحده تتوقف رذائل الناس وفضائلهم وقوتهم وهناءتهم . . . إن كل جريمة لايعاقب عليها القانون تقترف كل يوم فأى دليل أقوى من هذا على عقم الدين وعدم جدواه ؟ ...

ومن أين ينشأ الأمن الحالى فى باريس ؟ هل ينشأ من تقوى أهلها وتبتلهم ؟ كلا إنما ينشأ من نظام الشرطة ويقظتهم . . . وفى أية فترة أصبحت القسطنطينية وكر الرذائل ؟ فى نفس اللحظة التى قامت فيها المسيحية هناك ... إن أشد الملوك تمسكاً بالمسيحية لم يكونوا أعظم الحكام . إن قليلا منهم تحلوا بفضائل تيتس أوتراجان أوانطونينس وأى أمير تقى ورع يمكن أن يقارن بهؤلاء ؟ [٣٤]

ومن هنا بدا لهلفشيوس أن مهمة الفلسفة أن تبتكر وتنشر أخلاقيات مستقلة عن العقيدة الدينية .ومن وجهة النظر هذه كتب ما أسماه أحد الباحثين « أعظم اختيار على الأخلاق الاجتماعية خطه يراع أى فيلسوف [٣٥] أنه عقد العزم على ألا ينتقص من قدر الطبيعة البشرية أو يجعلها مثالية ، بل يأخذها كما وجدها بكل ما فيها من أنانية ، ويحاول إن يبنى عليها أخلاقاً طبيعية . إن الإنسان ليس خيراً أوشراً بالطبيعة . إنه مخلوق حاول أن يحافظ على ذاته فى عالم يحاول كل كائن آخر فيه أن يفتك به إن عاجلا أوآجلا [٣٦] . إن الصورة التى كان قد رسمها روسو حديثاً للمجتمع البدائى بدت لهلفشيوس خيالا تافهاً

غير ذى قيمة . وكان هوبز أقرب إلى الحقيقة حين وصف « حالة الطبيعة » بأنها صراع كل فرد ضد الجميع . إن لفظتى الخير والشر فى تطبيقهما على الناس ليس لهما معنى إلا فى مجتمع ، وكل الطيبة فضيلة اجتماعية وهى نتاج التدريب أو التعليم الاجتماعى على الغايات والأغراض الاجتماعية . « إن الأمير الذى يثق فى استقامة الخلق الفطرى المتأصل فى النفوس شقى تعس . إن روسو يفترض وجود هذه الاستقامة ، ولكن الخبرة تنكر وجودها . وكل من يتأمل فى هذا سينتهى إلى أن الطفل يقتل الذباب ويضرب كلبه ويخنق عصفوره أى أن فى الطفل كل رذائل الرجل . إن الرجل وهو فى أوج سلطانه ، (متحرراً من كل القيود والضوابط الاجتماعية) غالباً ما يكون جائراً ظالماً . والطفل القوى مثله تماماً : فإنه إذا لم يكبح جماحه وجود رفاقه مثل الرجل فى أوج سلطانه يستحل لنفسه حلوى رفيقه وأدوات لعبه ويستولى عليها [٣٧]

ومن الواضح عندئذ أنه ليس هناك حاسة أخلاقية فطرية ، فكل الأحكام على الخطأ والصواب تنمو عن طريق خبرة الفرد نتيجة لتعاليم أسرته وجماعته وحكومته وكنيسته ، وفرضها عليه قسراً . فإذا تحرر الفرد من هذا القسر . كما هو الحال فى الحكم المطلق أو الحرب أو الزحام فإنه يميل إلى العودة إلى مخالفة القانون والتمرد عليه ، وإلى عدم التمسك بالمبادىء الأخلاقية . وهنا « لاتكون الأخلاق فى معظم الأمم آنئذ إلا مجرد مجموعة من تعاليم وقواعد سلوكية يمليها ويفرضها الأقوياء ليضمنوا سيطرتهم وسيادتهم ، مع الاستمرار فى ظلمهم وطغيانهم ، مع الافلات من أى عقاب » ولكن الأخلاق بمعناها الصحيح هى « معرفة الوسائل التى يبتدعها الناس ليعيشوا معاً وجنباً إلى جنب فى أسعد حال... وإذا كان من بيدهم الأمر والسلطة لايعارضون تقدم المعرفة بهذه الوسائل فإنها تنهض وتتقدم كلما اكتسب الناس معرفة جديدة» [٣٩] .

وهلفشيوس يعتنق صراحة مذهب المتعة (اللذة أو السعادة) . وهى الخير الرئيسى أو الأوحد فى الحياة : فالسعادة هى هدف الحياة هنا على الأرض ، والسعادة هى استمرار اللذة ودوامها ، وكل اللذة حسية أو فسيولوجية

أساساً (٤٠)« إن نشاط الذهن واكتساب المعرفة . هما أعظم اللذات إشباعاً على الدوام (٤١) ولكنهما ماديان أيضاً بصفة جوهرية . والزهد أو التقشف ضرب من الحمق . واللذة الجنسية مشروعة تماما إذا لم تؤذ أحداً . وليست الفضيلة هي الأمتثال لشرائع الله بل هي السلوك الذى يوفر أعظم اللذة لأكبر عدد من الناس . وهنا وبشكل واضح يصوغ هلفشيوس الأخلاق النفعية التى جاء بها بالفعل هتشنسون (١٧٢٥) والتى شرحها بنتام فيما بعد(١٧٨٩). « لكى تكون فاضلا يجب أن تجمع بين نبل النفس والعقل المستنير . وهذا الذى يجمع بين هاتين النعمتين إنما يتجه إلى المنفعة العامة . وهذه المنفعة هى قاعدة كل الفضائل الإنسانية وأساس كل تشريع . . . وكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ أو قاعدة واحدة وهى نفع الناس جميعا أى أكبر عدد من الناس فى ظل الحكومة نفسها . . . فهذا المبدأ يتضمن كل الأخلاقيات وكل التشريع (٤٢).

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأفعال فى رأى هلفشيوس مهما كانت اخلاقية وفاضلة أنانية . وقد لا تكون الأفعال بالضرورة أنانية ، فكثير منها يتسم بالغيرية (حب الغير) بمعنى أنه مقصود به نفع الآخرين وفى بعض الأحيان تكلف فاعلها ثمناً غالياً . ولكن حتى مثل هذه الأفعال أنانية بمعنى أن الدافع إليها هو إرضاء الذات . أننا غيريون (نحب الغير) إننا بالفطرة أو بالتعليم والمران يمكن أن نجد لذة كبيرة فى إدخال السرور على الآخرين وإسعادهم .وهكذا قد تضحى الأم من أجل طفلها أو البطل من أجل وطنه. إننا إذ نفعل الخير لغيرنا فذلك يرجع إلى أننا عن قصد أو عن غير قصد نتذكر فى اللذة وسرور ما قوبلت به مثل هذه الأفعال فى الماضى من حب أو تقدير اجتماعى .وبهذه الطريقة قد تصبح بعض الأفعال الغيرية عادة لدينا: وقد نشعر بالانزعاج أو الخوف إذ لم نقم بها . وقد يبدو النسك أو التبتل الدينى عملا فاضلا إلى درجة عالية ، ولكنه « مجرد استثمار طويل الأجل فى سندات السماء » أى مجرد محاولة طويلة الأمد لضمان حسن الجزاء فى السماء

« فإذا فرض ناسك أو راهب على نفسه قانون الصمت وجلد نفسه بالسوط فى كل ليلة وعاش على الحبوب والماء وافترش الأرض على القش فإنه يظن أنه بفضل النحول والهزال سيحظى بمنزلة رفيعة فى الجنة(٤٣). وإذا لم يحكم المجتمع المحلى على أى تصرف أو فعل وحشي قاس بالإدانه ويستنكره فان هؤلاء الرجال المقدسين سيرتكبونه دون خجل أو لجوء إلى القانون : مثال ذلك إحراقهم المهرطقين(٤٤). إن الصداقة نفسها ضرب من الأنانية : فهى تبادل خدمات حتى ولو كانت مجرد تأييد ، وحيثما انقطع مثل هذا التبادل تقطعت أواصر هذه الصداقة ، وليس ثمة شيء إستثنائى أو غير مألوف أكثر من الصداقة التى لا تدوم طويلا (٤٥)، وجوهر الحقيقة إننا دائماً نحن الذين نحب أنفسنا فى غيرنا (٤٦) .

وحين هبط لاروشفوكول بالمثل بمختلف الدوافع إلى حب الذات فأنه شعر بالأسى باعتبار أن حب الذات هذا رذيلة . ولكن هلفشيوس ارتضاه على اعتباره فضيلة ، على أنه سعى للمحافظة على الذات . وعلى أية حال فتلك حقيقة عامة من حقائق الحياة «فالغضب أو الشعور بالضيق من الأفعال القائمة على حب الذات وهو مثل الشكوى من رخات المطر فى الربيع أو من حر الصيف ... أو صقيع الشتاء »(٤٧). ومن منطلق عمومية حب الذات تماماً يقترح هلفشيوس إقامة أخلاقيات « علمية » . فالتعليم والتشريع يمكن أن يشكلا الأخلاق والعادات إلى حد الانزعاج والشعور بالملق والضيق بالأفعال أو التصرفات غير الاجتماعية ، والشعور باللذة والسرور فى الفضيلة — أى فى الأفعال التى تفيد الجماعة وتسدى إليها خيرا . ويجدر بالفيلسوف أن يدرس السلوك الإنسانى والحاجة الاجتماعية بقصد اكتشاف أى أشكال السلوك أكثر نفعا وخيراً لأكبر عدد من الناس ، ويحاول مع المعلمين والمشرعين التماس المغريات والمحاذير التى يمكن مع الاستعانة بحب الذات أن تشجع السلوك الاجتماعى ، وأية فوائد تعود على الجنس البشرى من مثل هذا الاتفاق بين

الفلاسفة والملوك ؟ » إن فضائل الشعب وسعادته لا تنبع من قدسية عقيدتهم الدينية ونقاوتها بل من حكمة قوانينهم [٤٨] .

وهكذا تحول هافشيوس فى قمة فلسفته إلى دراسة التشريع والحكومة . أنه من الناحية السياسية أشد الفلاسفة تطرفا . أنه لا يشارك فولتير إيمانه « بالحاكم المطلق المستنير » فان مثل هؤلاء الحكام قد ينزعون إلى إخماد أية آراء غير آرائهم هم أنفسهم ، التى قد تكون خاطئة ضارة . ويقتبس قول فردريك الأكبر لأكاديمية برلين « ليس ثمة ما هو أفضل من حكومة استبدادية يرأسها أمير عادل إنسانى عطوف متمسك بالفضيلة ، وليس ثمة شيء أسوأ من حكم الملوك العاديين البسطاء »[٤٩]. والملكية المحددة السلطة أو الدستورية مثل انجلترا صالحة طيبة ، والأحسن منها اتحاد من جمهوريات ديمقراطية تعاهدت على العمل المشترك ضد أى ظالم [٥٠] . والارستقراطية جائرة نظرياً حيث أن المقدرة العليا نتاج الصدفة ، ولكن الديمقراطية الكاملة غير مرغوب فيها ، ما دام الفقراء غير متعلمين لا يملكون شيئاً . ومن ثم فان المشرع الحكيم يسعى إلى نشر التعليم وحسن توزيع الملكية .

إن هذا « المليونير » الخبير بشؤون المال يرثى لتركيز الثروة وتيسير هذا التركيز عن طريق الاقتصاد القائم على المال : « إن هذا الشقاء الذى يخيم على كل الناس والأمم تقريباً إنما ينشأ من قصور قوانينهم والتوزيع البعيد كل البعد عن المساواة لثرواتهم . وفى معظم الممالك توجد طبقتان فقط من المواطنين : واحدة فى مسيس الحاجة إلى الضروريات والأخرى تبذر تبذيرا [٥١] ... وإذا كان فساد السلطة فى الشعب أبرز ما يكون فى عصور الترف والبذخ فما ذاك إلا لأن ثروة الأمة فى تلك العصور كانت مركزة فى أيدى أقل نفر من الناس [٥٢] .

إن الاستعاضة بالمال أو النقود عن الأرض رمزاً للسلطة والقوة ونقطة ارتكاز لهما ، ينشأ عنها سباق على الثروة ، وفيه تفويض للاستقرار الاجتماعى وتصعيد للصراع الطبقى ، كما أنه يؤدى إلى تضخم مدمر . « وفى الأمة التى

تزداد تدريجا ثروتها ومالها — وبخاصة العملة الورقية — ترتفع أسعار الحاجيات وأجور العمال باستمرار .. وكلما أصبح العمل غالى التكلفة فى أمة غنية فإنها لا بد أن تستورد من الأمم الأخرى أكثر مما تصدر إليها . وإذا ظلت كل العوامل الأخرى على حالها ... فإن أموال الأمة الغنية سوف تنتقل أو تتسرب دون أن يشعر بها أحد الى الأمة الأفقر التى ستدمر نفسها بدورها وبنفس الطريقة إذا أصبحت غنية (٥٣) .

وهل ثمة مهرب من تركيز الثروة أو التزاحم على المال ؟ « يجدر بالإنسان أن يضاعف عدد الملاك عن طريق توزيع جديد للأرض . . فاذا زادت أرض أحد الناس عن قدر معين من الأفدنة فيجب أن تفرض عليها ضرائب تفوق قيمة إيجارها . ومثل إعادة توزيع الأرض هذه قد تكون مستحيلة تقريبا فى اقتصاد يقوم على المال . ولكن إذا أمكن تداركها بحكمة فمن المستطاع تنفيذها بتغيرات دائمة غير محسوسة (٥٤) .

فلنعمد إلى انقاص ثروة بعض الناس وزيادة ثروة آخرين ونهيىء للفقراء حالة من اليسر والرخاء حتى يتمكنوا بسبع أو ثمان ساعات من العمل فى اليوم أن يوفروا لأنفسهم ولذويهم وسائل العيش ويسدوا حاجتهم ، ومن ثم يصبح الشعب سعيدا بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية (٥٥) .

٣ — تأثير هلفشيوس :

وهنا فى كتابين لرجل واحد نجد كل الأفكار التى صنعت الثورة الفرنسية وكل الأفكار التى تعتلج فى صدور الأمم وتحركها اليوم . فلا عجب أن وضعت الفئات الفرنسية المتعلمة المثقفة فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر هلفشوس فى منزلة سواء تقريبا مع فولتير وروسو وديدرو ، ورحبت بكتابه الأول وهللت له مما كاد لا يحظى به كتاب غيره فى ذلك العصر . وقال برونيتيير « إن أى كتاب غيره لم يحدث مثل هذه الضجة فى زمانه ، ولم ينشر فى الخارج أفكارا أكثر أخذت تشق طريقها إلى العالم بأسره (٥٦) .

وذكر بريسو فى ١٧٧٥ «لقى منهج هلفشيوس وآراؤه أعظم رواج وشعبية»؛ وشكا ترجوعلى حين كان يعارض هذا المنهج من أن الناس امتدحوه وأثنوا عليه فى شيء من الشدة والعنف: وقال آخر « إن هذا الكتاب كان يوجد على كل منضدة [٥٧] » . وأطرى كل النقاد وضوح أسلوبه وقوة حكمة وتصويراته البارعة والروح الإنسانية البارزة فى رجل يدافع عن إعادة توزيع الثروة على حين أنه ثرى أوتى كل شيء .

ومهما يكن من شيء فان الفلاسفة أنفسهم انتقدوا « منهج هلفشيوس» باعتباره قائما على مفاهيم خاطئة . ودافع فولتير عن دعاوى الوراثة . فكل الناس عند الميلاد ليسوا متساويين فى التفوق الذهنى والخلق الكامن ورأى أن العبقريات مولودة لا مصنوعة [٥٨]. واتفق ديدرو مع فولتير فيما ذهب إليه . وفى « تفنيد لكتاب هلفشيوس بعنوان « الإنسان » (كتب فى ١٧٧٥ ، ولكن لم ينشر إلا بعد مائة عام من تأليفه) ، دفع ديدرو بأن الأحاسيس تنتقل بأشكال مختلفة إلى مختلف الأفراد بفعل الفوارق الموروثة فى تركيب المخ وبنيته [٥٩] « لا يولد الإنسان غفلا أو خاليا من كل شيء ، حقا أنه يولد بدون أفكار أو انفعالات موجهة ، ولكنه منذ اللحظة الأولى يوهب استعدادا أو ميلا إلى التصور والمقارنة والاحتفاظ ببعض الأفكار فى تلذذ واستمتاع أكثر من غيرها . وميلا ونزعات مسيطرة تنتج عنها فيما بعد الانفعالات الواقعية [٦٠]

وهنا نجد ديدو ، الذى كان قد بدأ بجون لوك يتحول إلى ليبنتز ويمد يده إلى كانت . أن تأثير البيئة والتعليم فى نظر ديدرو ، محدود دائما بالوراثة « إننا لانستطيع أن نعطى ما رفضته الطبيعة ، وربما نقضى على ماتهبه الطبيعة .. إن التعليم يعمل على تحسين ماتهبه لنا »[٦١] واستاء من الهبوط بالمباهج الفكرية إلى لذة حسية ، واشترك فى الاحتجاج العام على فكرة هلفشيوس التى تقول بأن كل الغيرية (حب الغير) أنانية غير محسوسة أو محتجبة .

وكانت مدام دى ديفان واحدة من النفر القليل الذين اتفقوا مع هلفشيوس فى هذه النقطة . وقالت « إن هذا الرجل كشف الغطاء عن سر كل إنسان »(٦٢) أما آدم سميث الذى كان يتبع صديقه هيوم فإنه أصر على أن الغيرية مؤسسة على مشاعر عطف فطرية مثل الأنانية سواء بسواء ، ولكنه فى كتابه « ثروة الأمم » أسس نظريته الاقتصادية على شمولية حب الذات . وفى نشوة الثورة أثار هلفشيوس إشمئزاز مدام رولان . « لقد شعرت أنى مدفوعة بكرم لم يعترف هو به قط . . . . وواجهت نظرياته بالابطال العظام الذين خلدهم التاريخ(٦٣) .

ولا يمكن حل هذه المسائل بسهولة فى فقرة من الفقرات ، ويبدو واضحا أن الاختلافات فى التكوين الوراثى أو الخلقى توثر تأثيرا جوهريا فى عمل البيئة والتعليم . وكيف إذن نفسر بأى شكل آخر الخلق والنمو المتباينين كل التباين فى الإخوة على الرغم من التشابه فى النشأ والأصل والفرص ؟ ومع ذلك فإن هلفشيوس كان على حق ؟ فى نطاق الحدود التى فرضتها البيئة ، فيمكن أن تحدث تغييرات جسيمة فى سلوك الأفراد والجماعات، بفعل الاختلافات فى البيئة والتعليم والتشريع ، وإلا كيف نفسر إنتقال الانسان من الهمجية إلى المدنية ؟ وربما يجدر بنا أن نسلم لهلفشيوس بأنه ليس ثمة إنسان يعمل واعيا بطريقة أشد إيلاما من بديلتها . ولكن بعض الغرائز الاجتماعية — حب الأم ، حب العيش مع أبناء جنسه ، حب الاستحسان — على الرغم من أنها لاتقدر على منافسة غرائز النزعة الفردية فى كمال القوة ، فانها أى الغرائز الاجتماعية قوية إلى حد تستطيع معه توليد أفعالى إجتماعية قبل أى ترجيح واع للذة أو الألم أو النتيجة . فكل منا ذات أو « أنا » ولكن بعض الذوات أو « الأنا » تتسع لتشمل أسرتنا أو جماعتنا أو ووطنا أو الجنس البشرى بأسره . وعلى هذا الأساس تكون أوسع « أنا » هى الأفضل .

وعلى أية حال فان كثيراً من الناس تأثروا وتحركوا للتفكير والعمل بفضل إراء هلفشيوس . ومن الجائز أنه تحت تأثير هلفشيوس بدأ لاشالوتيه

حملته لابدال مدارس كهنة القرى وكليات الجزويت بطرق تعليمية تشرف عليهـــا الدولة . وترجع المدارس العامة فى أمريكا إلى مقترحات كوندرسيه الذى سمى نفسه تلميذ هلفشيوس ومريده[٦٤] وأكد بكاريا Beccaria إن كتابات هلفشيوس هى التى أوحت بكتابة دفاعه التاريخى عن إصلاح قانون العقوبات والسياسه . وصرح بنتام بأنه « مدين لكتاب هلفشيوس « الذكاء » بكثير من أفكاره « — بما فى ذلك مبدأ المنفعة بالتماس أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس فى الأخلاق وفى التعليم [٦٥] . وشهد « الميثاق الوطنى » فى ١٧٩٢ بتقدير تأثير هلفشيوس فى الثورة ، بأن منح بنات هلفشيوس لقب «بنات الأمة» . وبنى وليم جودون Goduin بحثه فى العدل السياسى « (١٧٩٣) على تعاليم هلفشيوس . أما زوجته مارى ولستونكرافت فقد وجهها إلى حد ما إلى تأليف كتابها المؤذن بعهد جديد « حقوق المرأة » ، دعوى هلفشيوس بأن الفوارق بين الجنسين ترجع إلى حد كبير إلى التفاوت فى التعليم وفى الفرص [٦٦] .

وقابل كثير من معاصرى هلفشيوس بين نظريته فى شمولية الأنانية وبين كرم خلقه وحياته الموسومة بالخير والإحسان . وكتبت عنه مارمونتيل : « ليس ثمة رجل أفضل منه ، فهو متحرر كريم جواد دون تظاهر أو تصنع ، محسن من صميم قلبه [٦٧] ووصف جريم الذى نادراً ما كان مسرفاً فى مدحه ، هلفشيوس بأنه « رجل مهذب وديع حقا « منصف متسامح ، ليس سريع الغضب أبداً ، زوج صالح ووالد عطوف ،وصديق وفى وإنسان طيب [٦٨] .وكان يصدق على شخصه ذلك الذى جاء فى مؤلفه « الذكاء » « من أجل أن نحب الناس يجدر أن نتوقع القليل منهم . . . إن كل إنسان ما دامت أهواؤه وانفعالاته لا تغشى عقله سيكون أكثر تسامحاً كلما ازداد استنارة . . . فإذا كان الرجل العظيم هو دائماً أكثر تسامحاً ... وإذا كان يقابل أخطاء الآخرين ببلسم الاشفاق الشافى ويتمهل فى الكشف عن هذه الأخطاء ، فما ذاك إلا لأن سمو عقله لايجيز له أن

يطنب فى رذائل أفراد بعينهم وحماقاتهم ، بل يحوم حول رذائل وحماقات الجنس البشرى بصفة عامة (٦٩) .

إنه فى فورى وفى باريس عاش مع زوجنه وأطفاله أنشودة الأخلاص والسعادة . وفى عام ١٧٦٤ تجول فى انجلترا وألمانيا . وقابل هيوم وجيبون وفردريك الأكبر . وفى عام ١٧٧٠ أسهم فى تكاليف التمثال الذى أقامه بيجال لفولتير . وفى ١٧٧١ فارق الحياة على فراشه مع دى هولباخ وغيره من الأصدقاء . ووفاء لذكراه رفضت أرملته كل من طلب يدها للزواج ، بما فيهم بنيامين فرنكلين . وعمرت بعد وفاة زوجها تسعاً وعشرين سنة . ومرت بعهد الثورة فى سلام وأمان وقضت نحبها فى عام ١٨٠٠ ، فى سن الواحدة والثمانين .

٢ — فلاسفة مساعدون

فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر إنضم حشد كبير من الفلاسفة الأقل شأناً إلى الهجوم على المسيحية . وعملوا بكل الجد والحماسة اللتين تميز بهما المسيحيون الأوائل فى نشر الانجيل والدين الجديد ، أو المسيحيون الأسبان فى طرد العرب من بلادهم ، ودبجوا فيضاً من المقالات والرسائل . ولما نضب معينهم عمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين ، من لوكريشيس إلى هوبز وابتدعوا تقويماً جديداً للقديسين والشهداء ، وضموا إلى قائمة القديسين جوليان المرتد وآلهوا بومبو ناتزى وبرونو وكامبانللا وفانينى وبيل وغيرهم من ضحايا الاضطهاد وأدانوا بنى إسرائيل لا لأنهم تقاضوا فوائد على القروض بل لأنهم أنجبوا المسيحية . وأنزلوا « يهوه » عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية ، وإلهاً للحرب ، وأول من عمد إلى الإبادة الجماعية . وسخروا من الخطيئة الأولى ومن « الآب » الذى كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل إبنه ويضرب بالسياط ويصلب ليهدئ من غضبه وهو الآب » الذى أثارت امرأة

فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة . ودمغوا الحروب الصليبية بأنها حملة لاغتصاب الأرض واحتكار التجارة ، واحتقروا العصور الوسطى باعتبارها عصوراً مظلمة ، ونظروا بازدراء إلى الكاتدرائية القوطية على أنها وحشية بشعة . ولحظ عليه دالمبير « قدرا من التسامى بالأفكار وقلقاً واهتياجاً وفورانا عـــاماً فى الأذهان اكتسح منه بشىء من العنف كل ما وقف فى طريقه »(٧٠).

وكان هناك جاك أندريه نجيون Noigeon الذى وصفه سانت بيف بأنه « شماس » متعصب للالحاد(٧١) أنه عاش وعمل مع دى هولباخ مترجماً وقوراً، ونشراً معاً على مدى عشر سنين ثلاثين كتاباً صغيراً أو كبيراً أصلا أومستورداً، وكلها ضد المسيحية . وقال عنها ديدرو « إنها قنابل تتساقط كالمطر فى بيت الرب(٧٢) . كما كان هناك نيقولا بولانجيه ، وهو أيضاً أحد أصدقاء دى هولباخ . واشترك فى هذه الحملة على المسيحية حتى وفاته (١٧٥٩) وخلف وراءه مخطوطة عنوانها « إماطة اللثام عن عهد قديم » احتفظ بها دى هولباخ حتى عام ١٧٦٥ حين أصبح شوازيل على رأس الوزارة وكان صديقا لجماعة الفلاسفة . وعندئذ دفع بها إلى المطبعة مع مقـــدمة مثيرة بقلم ديدرو . يقول بولانجيه : « أن الديانة نشأت من خلال مخاوف الإنسان البدائى من الفيضانات وغيرها من الكوارث الواضح أنها خارقة للطبيعة ونظمها (أى الديانة) ، أقامها قسيسون وملوك فى مؤامرة لتبرير الطغيان فى سبيل فرض جائر لعقيدة تقليدية ، ولن يجد الجنس البشرى مطلقا مهربا من هذه المؤامرة الشريرة إلا باتباع نور العقل تحديا للقساوسة والملوك (٧٣).

وأهم من هذا كان أندريه موريليه . وهو نتاج آخر لليسوعيين وراهب آخر تدرج فى مراتب المتمردين . ولد فى ١٧٢٧ وعاش طويلا حتى وصفته مدام نكر بأنه « دب » وعلى الرغم من ذلك أوتى من الصراحة والاخلاص والأستقامة بالأضافة إلى ألف من الصفات الحسنة وقدر كاف من الدين

ما يجعله يرتاب فى وجود إله . ويصرح أحيانا بذلك إلى أصدقائه اعتماداً منه على حكمتهم فى أنهم لن يفضحوا سذاجته وسرعة تصديقه(٧٤) . وكتب تحت إشراف ديدرو بعض المقالات لدائرة المعارف . وعلى مائدة العشاء لدى هولباخ كانت سخريته لأذعة حتى أن فولتير أسماه « الأب الموقر السيد عضهم إنهشهم » ولكن قال عنه ما رمونتيل « أنه كان لدية أفكار عميقة ... وكان قويم الخلق كما كان ثابت الجنان »(٧٥). وفى ١٧٦٢ نشر « كتيبا عن أعضاء محاكم التفتيش » عبارة عن مختارات من « إدارة محاكم التفتيش » لنقولا أمريكو الذى قد عمل فى حماسة وغيرة محققاً وعضوا هاماً فى محاكم التفتيش من ١٣٥٦ إلى ١٣٩٩ . وكان الفرنسيون قد نسوا تقريباً محاكم التفتيش الأسبانية ولكن موريليه أعادها إلى ذاكرتهم بمجرد إقتباس اجراءات هذا النظام وعقوباته فى أوج عظمته . ومنح مالشرب موريليه ترخيصا حكوميا بطبع الكتاب قائلا أن قانون العقوبات الفرنسى كان لايزال من الوجهة العملية مطابقا لقانون محاكم التفتيش(٧٦) . وكاد موريليه إلا يصدق هذا ، ولكن فى السنة التى رأى فيها الكتاب طريقه إلى المطبعة وجد برلمان تولوز يقضى على جان كالا Calas فى آلة التعذيب .

وذكر جريم الرزين الرصين عادة عن راهب أخر هوجوبوم رينال Raynal فى صحيفته « كورسبندانس » عن ١٧٧٢ « منذ صدور كتاب مونتسكيو روح القوانين ربما لم يظهر فى أدبنا كتاب أجدر بالأنتقال إلى أبعد الأعقاب والأجيال القادمة أو الرفع من شأن تقدم الاستنارة لدينا من كتاب رينال « التاريخ الفلسفى والسياسى للمستعمرات والتجارة الأوربية فى جزر الهند الشرقية والغربية(٧٧) » وربما كان جريم يتخذ بصفة خاصة موقفا وديا من المؤلف لأن رينال هو الذى أفتتح فى ١٧٥٣ وأوصى فى ١٧٥٥ بصحيفة الكورسبدانس الأدبية لجريم ، وعليها عاش جريم . وأكثر من هذا فإن ديدرو صديق جريم كان قد عاون فى إعداد كتاب رينال الخالد الذى لا يفتح ولا يقرأ فى أيامنا هـــذه أو يبدو أن رأى جريم أكده ما نال

الكتاب سالف الذكر « التاريخ الفلسفي والسياسي » على الفور من شعبية فبيعت منه أربعون طبعة قبل ١٧٨٩ عدا طبعات لا تحصى مسروقة أو مترجمة وحظى الكتاب بتقدير فوانكابن وجيبون وروبرتسون . وأوحى هذا الكتاب إلى توسان لوفرتير Toussain L, Boaverturn بجملته المخلصة لتحرير العبيد (١٧٩١) ، وذهب ناقد واسع الإطلاع إلى أنه كان لهذا الكتاب تأثير على الثورة الفرنسية أعظم حتى من تأثير كتاب روسو « العقد الاجتماعى[٧٨] » .

دخل رينال باريس قسيسا فقيراً . وتكشف أسطورة عن طبيعة المرح والأبتهاج عند المتسردين ، فتنسب نجاته من الموت جوعاً إلى أن الراهب بريفوست كان قد تلقى عشرين سو (عملة فرنسية قديمة قيمتها خمسة سنتيات) ليقيم قداسا على روح أحد الموتى ، وأن بريفرست أعطى الراهب دى لا بورت ١٥ سو ليقيم القداس بدلا منه ، وأن هذا الراهب الأخير نفح رينال ثمانية فقط ليقيم القداس بدلا منه[٧٩] . وابتهج رينال بالأكل على موائد هلفشيوس ودى هو لباخ ، وأثبت أنه جليس أنيس . ويبدو أنه حظى بمعونة كثير من المؤلفين فضلا عن ديدرو فى جمع مادة كتابه . بل حتى فى تأليف بعض فصوله . أن روسو الذى تشاجر وتنازع مع كل الناس بلا أستثناء وجد رينال مسالما غير مشاكس ، وقدم له الشكر فى « إعترافاته » على وفائه بحق الصداقة وتقديره للمساعدة المالية[٨٠] .

ولأبد أن رينال قد جمع مالا بطريقة ما ، حيث قيل إنه رشا الرقيب للحصول على ترخيص بأصدار كتابه[٨١] . أنه قضى عشرين عاماً يعمل جاهداً فى إعداده ، وفصل القول تفصيلا فى جشع الأوربيين وخيانتهم وعنفهم فى معاملة السكان الأصليين فى جزر الهند الشرقية . واستنكر هـذا كله وحذر الرجل الأبيض من الأنتقام الرهيب الذى قد تعمد إليه الأجناس الملونة إذا عادت إليها السلطة[٨٢] . وكان الكتاب أول أتهام فرنسى للاستغلال الأستعمارى ، كما كان من أوائل الكتب التى أكدت على أهمية التجارة فى تحديد التاريخ الحديث ، وأسهم بطريقة عابرة فى إضفاء المثالية على المواطنين

الهنود وإعجاب المتحررين الأوربيين بحضارة الصين . وزخرت المجلدات المسهبة بالموضوعات والأفكار الرئيسية فى عصر الاستنارة : مقت الخرافة وحرفة الكهانة وبغض تسلط الدولة والكنيسة على الحياة والفكر . وأيد رينال فكرة أن الكثلكة كانت خداعا أو دجلا جمع فيه الحكام والكهنة قواهم ليدعم كل فريق منهم الأخر عن طريق الأساطير والخرافات والمعجزات والدعاية والظلم والمذابح . وأهاب بحكام أوربا أن يحلوا انفسهم من أى أرتباط بالكنيسة ، ويسمحوا بحرية الكلام والنشر ، ويمهدوا الطريق للحكرمة الديمقراطية . ولم تنج البروتستانتية منه ، حيث قال أنها كذلك ارتكبت جريمة التعصب . ووصف تعصب البيوريتانيين فى إنجلترا الجديدة واضطهاد السحرة فى سالم Salem (مدينة فى ماساتشوست) .

وعلى الرغم من الوقت الطويل الذى قضاه رينال فى إعداد كتابه ، فأنه قضى عليه بالأهمال فى زوايا النسيان نتيجة لمـا ورد فيه من أخطاء . إنه لم يتحر الحقائق فأعتبر الأساطير تاريخا ، وأهمل تواريخ الأحداث ، ولم يورد أسماء المراجع الموثوقة ، وشوش المادة وأفسدها ، واستخدم ديدرو (أو سمح لديدرو أن يشغل نفسه فى كتابة الخطب المسرفة والنداءات العاطفية مما لايكاد يليق بمؤلف فى التاريخ ولكن هذه لم تكن عصور تجرد أو نزاهة ، فالكتاب كان سلاحا ، ولا يجوز أضعاف قوته بعرض الجوانب المتعارضة فإن الحرب كانت حربا وصراعا . وهكذا قدرت الحكومة الفرنسية فأصدر برلمان باريس أمرا بأحراق الكتاب ، كما صدر الأمر إلى رينال بمغادرة فرنسا ، فهوب إلى الأراضى الوطيئة ، ولكنه رأى ضمانا للأمن والسلامة أن يعود فى عام ١٧٨٤ فى عهد أكثر ملوك البوربون إعتدالا .

وكان رينال من الفلاسفة للقلائل الذين شهدوا الثورة الفرنسية وعمروا بعدها ، ورأى عنف الثورة واستخدامها لكل وسائل التعصب وعدم التسامح القديمة . وفى ٣١ مايو ١٧٩١ وهو فى سن الثامنة والسبعين وجه إلى الجمعية التأسيسية رسالة يحذرها من التطرف ، فكتب يقول « لقد تجرأت لأمد طويل

على تنبيه الملوك إلى واجباتهم ، فاسمحوا لى اليوم أن أنبه الشعب إلى أخطائه » فأشار إلى أن طغيان الأهالى قد يكون قاسيا وجائرا قدر طغيان الملوك وجورهم . ودافـع عن حق رجال الدين فى التبشير بعقيدتهم ، مادام معارضوهم يتركون أحراراً فى التعبير عن آرائهم . واحتج على القوانين التى تفرض دين دولة ما وعلى إعتداء الجماهير على القساوسة . وأغرى روبسبير الجمعية بالسماح للرجل العجوز بتفادى المقصلة ، ولـكن الحكومة صادرت ممتلكات رينال ومات فقيراً معدما (١٧٩٦) وسط إنتصارات الثورة واوهامها .

٣ — دى هولباخ

١ — الملحد اللطيف :

كان أحب جماعة الفلاسفة إلى باريس ألمانى ولد (١٧٢٣) فى اديشيم فى أمارة سبيير Speyer الأسقفية (فى بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ ديتريش فون هولباخ ، ونشأ كاثوليكيا . وجمع جده ثروة من إدخال عرق الذهب من هولند إلى فرساى . وفى ليدن درس بول العلوم وتعلم اللغة الانجليزية . وبعد صلح أكس لأشابل (١٧٤٨) إستقر به المقام فى باريس وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال ، وحصل على النبالة بأستثماره ١١٠,٠٠٠ جنيه بفائدة ٥ ٪ فى شركة سكرتيرى الملك . « وسماه المحيطون به » البارون « لأنه كان يمتلك فى وستفاليا ضيعة تدر عليه ستين ألف جنيه سنوياً . وبلغت جملة دخله السنوى مائتى ألف جنيه . ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالا أشرف ولا أنفع منه للعلم والفن[٨٣] وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور ما سيناس بالنسبة لهم ، وهو راعى هوراس وفرجيل فى القرن الأول ق.م) وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعى .

وأصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء « مقهى أوربا » وجعلت منه

ولائم العشاء عنده وصالونه فى باريس أو فى داره الريفية « جراند فال » على حد تعبير هوراس وولبول « قهرمان الفلسفه » وأعدت مدام دى هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لاثنى عشر ضيفا . ولم يكونوا هم أنفسهم دائما فى كل مرة ، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية: ديدرو ، هلفشيوس ، دالمبر ، رينال ، بولا نجيه ، موريليه ، سانت لأمبرت ، ما رمونتيل ، وأحيانا بيفون ، ترجو ، وكنى ، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاع للالحاد الذى يتدفق من حوله ، وهناك كان ديدرو فى ذروة الحماسة والعنف ، أما الراهب جاليانى فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية . وكان عقد هذا الكنيس — كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات — يلتئم فى الساعة الثانية يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة . وتلك كانت الأيام التى كانت فيها المناقشه إدبا غير مسطور وليس ثمـــة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور . ولم يكن هناك موضوعات محظور الخوض فيها ، أو كما قال موريليه « هذا هو المكان الذى تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتثقيفا بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة ، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك . . . وهناك فوق كل شيء أثار ديدرو عقولنا وألهب نفوسنا[٨٤] وذكر ديدرو نفسه للآنسة فوللان أنهم تحدثوا فى الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود ، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والملوك والفضاء والزمن وعن الموت والحياة[٨٥] . وقال ما رمونتيل « ظننت أحيانا أنى أستمع إلى تلاميذ فيثاغورس وأفلاطون[٨٦] . أو « إذا كان الطقس جميلا أستبدلنا بولائم العشاء أحيانا نزهات فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين ، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة ، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك ، وعادة إلى سان كلو ، وكنا نقصد مبكرين فى أحد القوارب لنستنشق نسيم النهر ونعود فى المساء عن طريق غابة بولونيا[٨٧] .

وبلغ صالون دى هولباخ من الشهرة حدا استخدم معه بعض زوار

باريس من الأجانب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضروا هذه اللقاءات . ومن ثم جاء فى أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول وفرانكلين وبريستلى وآدم سميث وبكاريا . وقد أزعجهم فى بعض الأحيان وجود هذا العديد من الملحدين هناك . وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول (لروميللى) أنه حين كان هيوم يشك فى الوجود الفعلى للدلمحدين كان البارون يؤكد له « أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر[٨٨] . » وروى جيبون أن فلاسفة باريس « سخروا من تشكك هيوم الموسوم بالحذر ، وبشروا بتعاليم ومعتقدات الملحدين مـــع نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين (الدوجماتية أى الجزمية : توكيد الرأى بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين وصبوا اللعنات على المؤمنين فى تسخيف وازدراء .[٨٩] » كذلك روى بريستلى أن « كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم فى باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية بل صرحوا بأنهم ملحدون[٩٠] ومهما يكن من أمر فان موريليه لحظ « أن عدداً كبيراً منا كانوا ملحدين ولم يخجلوا من ذلك . ودافعنا بشدة عن انفسنا ضد الملحدين ، على الرغم من إننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبتهم .[٩١] ورأى وولبول أن « وكر الفلاسفة » لدى دى هولباخ يؤذى ذوقه الانجليزى . وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة انجلترا ومستعمراتها أكثر مما يعرف هـــو إلى حد أنه إدعى الصمم . أما بيان هيوم فكان فيه مجاملة بالغة ، أن رجال الأدب هنا (فى باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم ، وكلهم رجال ذوو شهرة واسعة يعيشون فى انسجام تام (أو يكاد يكون تاما) بينهم جميعا ، ولا تشوب اخلاقهم شائبة ، وقد يكون مبعث أعظم الرضا عندك إلا يكون بينهم ربوبى وأحد .[٩٢] والارجح أن هذا التصريح يدعو إلى الحيرة والأرتباك .

ولكن اتفق رأى الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيفين مثاليين وشخصيتين محببتين إلى النفوس . وعلى حد تعبير جريم : عاشت مدام دى هولباخ لزوجها فقط ، فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم آوت إلى ركن منعزل وانصرفت إلى شغل الأبرة ، دون أن تشترك فى مناقشاتهم ،[٩٣] وماتت فى عام ١٧٥٤ فى ريعان شبابها وظل دى هولباخ لبعض الوقت يعانى يأسا تاما [٩٤] وبعد عامين تزوج من اختها التى اثبتت أنها مخلصة قدر اخلاص اختها . وكان متواضعاً فى سلوكه وعاداته وديعا فى مناقشته ، لا تعلم شماله ما فعلت يمينــه من بر وإحسان ،[٩٥] حتى لم يكد أحد يرتاب فى أنه كتب مثل هذا الدفاع القوى عن الالحاد فى كتابه « نهج الطبيعة » فكتبت مدام جيوفرين منافسته فى عقد الندوات وإقامة المآدب فى صالونها : « لم أر قط رجلا فى غاية البساطة مثله ، [٩٦] أما روســو الذى درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريباً فإنه احتفظ باعجابه بشخصية دى هولباخ وخلقه إلى حد أنه اتخذه نموذجا لفولمار الفاضل الذى يعتنق مذهب اللاأدرية فى رواية « هلواز الجديدة » . وكتب جريم الذى حلل كل إنسان فيما عدا روسو فى موضوعية رصينة :

« كان طبيعيا أن يؤمن البارون دى هولباخ بأمبراطورية العقل ، فقد كان هواه ، (ونحن دائما نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادىء القويمة فى المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضمر الكراهية لاى من الناس ، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفى مقته الصريح لرجال الدين ... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضى بطبيعته »[٩٧] .

ومن هنا ساند دى هولباخ « دائرة المعارف » أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته . وطمأن ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمبر وفولتير عن المشروع ، وكانت مقالاته فى معظمها عن العلوم الطبيعية ، فأنه من الجائز أن البارون كان فى هــذا الحقل أوسع الفلاسفة أطلاعا . وكتب جريم فى ١٧٨٩ . « لم التق قط برجل أكثر منه علما وأطلاعا ، ولم أرقط رجل أقل منه أهتماما بالتظاهر بالعلم فى أعين الناس » .[٩٨] وترجم عن الإلمانية كثيراً من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون ، ومن أجل هذا عين عضواً فى أكاديميتى برلين وبطرسبرج ، ولم يحاول قط أن يلتحق بالأكاديمية الفرنسية .

وأفتتن دى هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضا سريعاً بحياة الإنسان، ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداء إلى الكنيسة التى بدا أن سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية ، فانتهز كل فرصة لمهاجمة رجال الدين فكتب مقالتى « آباء الكنيسة » و « الحكومة الدينية » لدائرة المعارف . فمنذ ١٧٦٦ فصاعدا نظم مع نيجبون مصنعا حقيقيا لاخراج الأدب المعادى للكنيسة . ثم ظهر فى تعاقب سريع « قائمة القديسين » ، « والوقفة المقدسة » و« آباء الكنيسة بغير قناع » و « القساوة الدينية وتحطيم الجحيم » وهنا جاء البشير بأنباء سارة — القضاء على الجحيم .

وفى ١٧٦١ صدر عن هذا الذى أطلق عليه بعضهم معمل الألحاد كتاب عنوانه « المسيحية فى خطر » كتبه أساساً دى هولباخ ، ولكنه نسب فى صحيفة العنوان إلى بولانجيه الراحل . وبسبب بيع هذا الكتاب أتهم ووصم بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف فى السفن الشراعية لمدة خمس سنين . ولقى مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام إشترى هذا الكتاب ليبيعه ثانية .[٩٩] وكان الكتاب هجوما مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة كما أنه إستبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها « أفيون الشعوب » .

« إن الديانة هى فن تخدير الناس بالحماسة (وفى القرن الثامن عشر كانت هذه اللفظة تعنى الغيرة الدينية) لتحول بينهم وبين مناهضة المساوىء والمظالم التى يعانونها من حكامهم . ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس . وهى ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة . . . وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضا على الناس أن يعانوا ويحتملوا فى صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية ، وفرض عليهم أن يأملوا فى السعادة فى الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين فى هذه الحياة الدنيا»[١٠٠] .

ورأى دى هولباخ فى إتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر الأساسى فى فرنسا . « أنى بوصفى مواطنا أهاجم الديانة لأنها تبدولى ضارة

بسعادة الدولة معادية للعقل البشرى ومناقضة للفضيلة الحقة أو الخلق القويم »[١٠١] .

« إن المسيحى يلقن ، بدلا من الفضيلة والأخلاق القويمة ، الخرافات الخارقة القائمة على المعجزات والمبادىء والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافى تماما مع العقل السليم . إن هذا المسيحى منذ أول لحظة فى دراسته يتعلم إلا يثق فيما تشهد به حواسه وإن يخضع عقله . . . . . ويعتمد إعتمادا أعمى على ما يقرره أستاذه . إن أولئك الذين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لأحول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التى رضعوها مع ألبان إمهاتهم »[١٠٢] .

ودفع دى هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة ، لأن هـــذه المعتقدات عرضة للتغيير وقد يدمر إنهيارها القانون الأخلاقى القائم على أساسها أو المتفق معها .

« إن كل من يكتشف ضعف أوزيف البينات التى قامت عليها ديانته . . . لابد يميل إلى الأعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذى قامت عليه . وهذا يوضح كيف أن لفظتى « كافر وخليع » أصبحتا مترادفتين ، ولن يكون ثمـــة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلا من أخلاق لاهوتية ، وبدلا من تحريم الزنى والجرائم والرذائل لأن الله والدين حرماها ، يجد ربنا القول بأن كل إفراط يؤذى الإنسان ويحول دون صيانته والأبناء عليه ويجعله جديرا بالأزدراء فى أعين المجتمع . . . وهـــو كذلك إفراط يحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التى تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة[١٠٣] .

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلا نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يحث على تأليفها . وفى ١٧٦٧ أخرج « اللاهوت السهل الحمل Theologie portative سخر فيه سخرية بالغة من المبادىء المخيمه ، وأجمل كل اللاهوت فى رغبة الكنيسة فى التسلط والسيطرة . وفى ١٧٦٨ نشر « العدوى المقدسة أو التاريخ

الطبيعى للخرافة » متظاهرا بترجمته عن « جان ترنشارد الانجليزى » . وفى نفس العام أصدر « رسائل إلى أوجينى » أو الضميانة ضد الآراء المسبقة (دون تمحيص) والمزعوم أنه بقلم فيلسوف ابيقورى فى سكو Sceaux . وفى ١٧٦٩ صدر « بحث فى الآراء المسبقة » من تأليف مسيو دى مارسى Marsais يوضح أن العلاج الوحيد لمساوىء الدين هو نشر التعليم والفلسفة . وفى ١٧٧٠ نشر البارون النشيط تحفته الرائعة ، وهو أقوى كتاب قد صدر فى الحملة ضد المسيحية .

٢ — منهج الطبيعة :

كان المزعوم أن كتاب منهج الطبيعة أو قانون العالم المادى والعالم المعنوى طبع فى لندن . ولكنه طبع فى الواقع فى أمستردام فى مجلدين كبيرين يحمل أسم مسيوميرابو Mirabaud وكأنه المؤلف . وهــذا الرجل الذى كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وجاء فى المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطيب المثالى ميرابود ألف مثل هذا الكتاب المخزى .

وفى ١٧٧٠ بعد أن قررت جمعية رجال الدين التى تجتمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية ، والتى إنتشرت كثيراً فى فرنسا . فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الأجراءات فورا . وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتابا دى هولباخ « فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة » ، باعتبارها بعيدة عن التقوى ، مليئة بالتخريف ، محرضة على الفتنة ، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن الالوهية ، وإلى اثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته ، والقضاء على كل مبادىء الأمن العام والأخلاق . وصرف الناس عن واجب الطاعة والأذعان لمليكهم . وكان ينبغى أحراق الكتب وأعتقال مولفيها وعقابهم عقاباً صارما . ويقول موريليه أن كثيراً

من الناس عرفوا أن دى هولباخ هو المؤلف وأنهم كتموا السر لمدة عشرين عاما . وظلت الندوة تعقد الاجتماعات . ودعت مدام دى هولباخ إلى بعضها كانون برجييه الذى كان لتوه قـد تلقى معاشا من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة التى كتبها دفاعا عن الكنيسة الكاثوليكية . وارتاب كثير من الناس فى أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه فى جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب ممـا يستبعد أن يكون بقلم ديدرو ، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألقة البليغه للطبيعة فى آخر الكتاب . وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمائنينه فى باريس ورأى من الحكمة أن يزور لانجرز .

ووصل كتاب « منهج الطبيعة » مهربا من هولنده ، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهال والسيدات(١٠٤) . وسر به ديدرو فقال « إن ما أحب هو فلسفة وأضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة فى كتاب منهج الطبيعة ، والمؤلف ليس ملحداً فى أى من الصفحات ، وهو ربوبى فى بعضها . وفلسفته تجرى على نسق وأحد ».(١٠٥) وهذا يختلف عن ديدرو كل الأختلاف . أن ما أحبه فى الحقيقة هو أن دى هولباخ كان ملحداً فى كل صفحات الكتاب . ومع ذلك فإن الكتاب كان مشربا بروح تقارب التفانى الشديد أو الأخلاص الدينى فى سعادة المبشر . أن دى هولباخ رأى عالما يسوده البؤس والشقاء . حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس سيكونون أسعد حالا لوأنهم ولوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلاسفه . وإن العبارات الأولى فى الكتاب لتنبىء عن روحه وفكرته الرئيسية :

« إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة . إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التى تلقنها فى طفولته . . . وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ضللا عقله وأفسد اذهنه . . يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ . . . أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم ،

ثقة منه بهم ، وهم أنفسهم مخطئون ، أو أن لهم مصلحة فى تضليله وخداعه . ولازالة هذه الغشاوة وأخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب يداً حانية وحباً شديداً . . . كما يقتضى أعظم الشجاعه التى لا يعتريها خوف ولا وجل وتصميما أكيداً لا يكل ولا يمل . . . . ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التى نقضى بها على الأوهام التى تضللنا وتخدعنا . وينبغى أن نفتش عن العلاج لهـذه المساوىء فى الطبيعة نفسها . ففى وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع فى تعقل وجود الترياق الشافى من كل الشرور التى جلبتها علينا حماستنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه . لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوىء فى شجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر فى مقوماتها . أن العقل بخبرته الهادية المخلصة ينبغى أن يقتلع من الجذور هذه الأهواء التى كان الجنس البشرى هـو الفريسة الوحيدة لها لأمد طويل . ولنحاول أن نغرس فى الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب لا يفتر للحقيقة ، بهدف أن يلتمس المشورة والرأى من خبرته ، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيها مضللا . ويتعلم أن يبنى أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع . ويتجرأ على أن يحب ذاته ، ويصبح كائنا فاضلا عقلانيا . وفى هذه الحالة لأبد أن يكون سعيداً(١٠٦) .

وبعد أن أنتهى دى هولباخ من بيان برنامجه على هذا النحو تقدم فى ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والأعتبارات والأفكار الخارقه للطبيعة . ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وأمكانات ، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة ، ويبنى على هذا الأساس المادى منهجاً للفضيلة والأخلاق يامل أن يكون فى مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين ، ويشكل الخلق الفردى والنظام الاجتماعى ويضفى سعادة معقوله على حياة مقرر لها الموت المحتوم .

إنه يبدأ ويختتم بالطبيعة ، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها .

إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذى ينتج من اجتماع المادة فى مجموعاتها المختلفة . وهذا هــو الأسم المحبب لدى دى هولباخ للكون ، فهو يعرف المادة فى حرص وحذر بأنها بصفة عامة ، كل ما يؤثر على حواسنا بأى شكل كان «كل شيء فى الكون فى حركة دائبة . وجوهر المادة هو أن تعمل ، وإذا تأملناها فى يقظه تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمــة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق ، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو اللحظة واحدة على نفس الحالة ، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار . . . إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء[١٠٧]» .

إن هذا الكل لايقدم لمجال تأملنا وتفكيرنا « الا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج »[١٠٨] . وكلما إزدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها . وقد يكون من العسير أن ندرك كيف « أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة » ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفى خارج عن الكون المادى . ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل « الجاذبيه والمغناطيسية والمرونه والكهربية ، ليست ، أقل صعوبة فى إدراكها وفهمها من الشعور أو الأحساس »[١٠٩] .

والإنسان كذلك « كائن مادى صرف خاضع لنفس القوانين التى تحكم سائر العالم . وكيف يتسنى لجسم مادى وذهن غير مادى أن يتفاعل كل منهما مع الآخر ؟ أن « الروح » هى مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل . أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعانى بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التى تتهشم إلى ألف قطعة تستمر فى دقاتها ساعة بعد ساعة ! . . . وتبين مرور الوقت[١١٠] . إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأمراض

العقلية . وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فاننا بذلك عكن علم الطب من شفاء كثير من الأضطرابات العقلية بالقضاء على أسبابها الجثمانية[١١١](*) .

ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فأنه أى الذهن خاضع للقاعدة الكونية ، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية . والفصل الحادى عشر من كتاب « منهج الطبيعة » أفصح وأبلغ دفاع عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) فى مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها .

« إن حياة الإنسان خط قضت عليه الطبيعة برسمه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدره على الأنحراف عنه قيد أنملة . أنه ولد دون رضاه . أن كيانه أو تنظيمة لايتوقف البتة على نفسة . إن الأفكار التى تخالجه تأتى قسراً لا طوعا ، وعاداته واقفه تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلى عنها . ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعلل مرئية أوخفية ليس له سلطان عليها ولاتحكم فيها . وهى بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصبغ تفكيره بصبغة معينة ، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله ، فهو طيب أو ردىء ، سعيد أو تعس ، عاقل أو أحمق ، متعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل فى أى من هذه الحالات المختلفة[١١٣] .

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوى على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضى دى هولباخ هذا التضمين . . . إن حالة الكون فى أية لحظة تحددها حالته فى اللحظة السابقة ، وهذه حددتها سابقتها ، وهكذا دواليك فى الماضى ،

(*) يقول جون مورلى « إنها لحقيقة تاريخية أكيدة أن العلاج العقلانى للمجانين والنظريه العقلانية لنوع معين من الاجرام ترجعان إلى رجال مثل بينل Pinel الذى درج على تعاليم مدرسة المذهب المادى فى القرن الثامن عشر . وكان من المتعذر بشكل واضح أن تتم الأصلاحات العظيمة الانسانية فى هذا المجال قبل إضمحلال اللاهوت بشكل حاسم[١١٢] .

ومن ثم فإن أية لحظة فى تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة فى المستقبل . أنى شئت أن الأخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقرية أو القديس بأى مفهوم أو بكل التضرع والصلوات — لغاز بدائى ، لا يفت فى عضد دى هولباخ فأنه يتقبل مصيره فى كبرياء ابيقورية :

« إن الإنسان من عمل الطبيعة ، وهـــو يوجد فى الطبيعة ، خاضع لقوانينها ، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين ، ولا يمكنه أن يخطوفيما وراءها خطوة واحدة حتى فى فكره . ولذلك فأنه بدلا من البحث خارج العالم . . . عن كائنات توفر له السعاده التى تنكرها عليه الطبيعة يجمل به أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل فى قواها ويراعى القواعد الثابته التى تعمل بمقتضاها . فليطبق الإنسان كل ما يصل إليه على هناءته هو ويخضع فى صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التى ليس فى مقدور أحد تبديلها أو تغييرها ، ويرتضى مبتهجا أن يتجاهل الأسباب والعلل التى يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن أختراقه ، ويستسلم دون تذمز لقوانين الضرورة الكونية التى يستحيل عليه ادراكها إطلاقا . ولاتحرره أبدا من تلك القوانين التى فرضت عليه بحكم ما هيته أو جوهره[١١٤] .

وهل تبرر لنا هذه « الجبرية (أى الايمان بالقضاء والقدر) أن نخلص إلى أنه لافائدة ترجى من وراء محاولتنا تفادى الشرور أو السيئات والأعمال المخزية أو المرض ، وأن نكف عن بذل أية جهود ، أو عن الطموح أو التطلع ، وأن ندع الأمور تجرى فى أعنتها ؟ ويجيب دى هولباخ بأنه حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا ، فان الوراثة والبيئة هما اللتان قررتا بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة ، أو أن نستجيب فى جد ونشاط لمتطلبات الحياة وتحدياتها ، ويسبق دى هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه الجبرية — وهى تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغتفرها — قد تزيد منها . أن الجبرية لاتوحى بعدم معاقبة الجريمة بل إنها على النقيض من ذلك ستؤدى بالشرع والمعلم والرأى العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق

أفضل فى سبيل إرتكاب الجرائم ، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعى القويم ، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستنضم إلى العوامل البيئية التى تشكل سلوك الإنسان . ولكن الجبرية لاتسوغ لنا إعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعى اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والبيئة والظروف . ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض ، وأن نتخلى عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع . وتعود الناس على العنف والقسوة . أكثر مما تصرفهم عن إرتكاب الجرائم .

وليس فى هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للاله . إن مفث دى هولباخ الشديد لمذهب التوحيد (الايمان بالله الواحد) وحده . بل للمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه « العدو الشخصى لله سبحانه وتعالى[115] . وإذا عدنا إلى الوراء إلى البداية فإننا نجد دائما إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أو الحماسة أو الخداع أو شرهوهم وعيدهم الضعف ، وأبقت عليهم السذاجة أحياء ، وأجلهم واحترمهم العرف والعادة . وناصرهم الطغيان . . . . ليخدم أغراضه[116] ويثير ضدهم كل الحجج القديمة . ويتحمس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله[117] ولا يوحى إليه النظام والتناسق الرائعان للكون بأى « عقل أسمى » فان هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إلى أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية . ولا يتطلب الأمر أن نعزوها إلى أى إله يمكن أن يكون هو أدق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم . والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذى توفره لنا مدركاتنا الحسية . ولكن الإنسان ليس « مقياس كل شىء » وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون . إن الطبيعة تسير قدما دون إعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة فى الفضاء حسنا أو سيئا ، قبيحا أو جميلا . ومن وجهة نظر الكل

« ليس هناك مايمكن أن يكون سيئا حقا ، فان الحشرة تأوى إلى ملجأ آمن فى أطلال القصر الذى يسحق الناس عند سقوطه »(١١٨) وينبغى أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة فى سموها وكوارثها محـايـدة بقدر سواء حياداً يتسم برباط الجأش :

« إن كل ماقيل فى سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أن كل شىء قريب متناسب مع الطبيعة ، حيث لاتعمل فيها كل الكائنات إلا أن تتبع القوانين التى فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته . إن الطبيعة توزع بنفس اليد ما يسمى نظاما وما يسمى اختلالا ، وما يسمى لذة وما يسمى ألما ، وقصارى القول أنها بمقتضى ضرورة وجودها تنشر الخير والشر . . ولذلك يجدر بالإنسان ألا يمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقده ، أو يتصور أن صخبه وضجيجه أو تضرعاته وابتهالاته يمكن أن تغنى عنه من شىء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهى تعمل دوما وفق قوانين ثابتة . . . فاذا عانى الإنسان شيئا فلا يجوز له أن يلتمس علاجا فى الأوهام التى يصدرها له خياله المستقيم ، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التى تقدمها للشرور والمساوىء التى تبتليه بها ، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التى أنتجتها الطبيعة نفسها(١١٩) .

ويقترب هولباخ من تقديم الإلة ثانية فى شكل « الطبيعة » ، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليهها ، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها ، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للانسان ، ويجيز لديدرو (؟) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخم « أيتها الطبيعة ، ياسيدة كل الكائنات ! ! إن بناتك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة — الفضيلة والعقل والحقيقة — يبقين إلى لأبد معبوداتنا الوحيدات . إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشرى وينصب عليك ثناؤه ، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله ، وهكذا . ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شىء واحد وأن

الكون المادى والانسان ليسا إلا مظاهر الذات الإلهية) . هذه التقوى لاتكاد تتسق مع نظرة دى هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تحيز ، « إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض والموت كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس فى كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة(١٢٠) وهذا يذكرنا بإله كلفن الضنين بالجنة المسرف فى عذاب النار » .

إن دى هولباخ فى حالته النفسية المميزة ينكر لامجرد فكرة الله . بل نفس لفظته إن لفظتى الإله ويخلق ... ينبغى أن تختفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة . إن هاتين لفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل . إنهما متعبدتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة ، الخاملين والجبناء إلى الحد الذى لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها (١٢١). وأنه ليرفض الربوبية التى تنسجم مع الخرافة(١٢٢) وتصنع من الالحاد ديناً حقيقياً .

« إن صديق الجنس البشرى لايمكن أن يكون صديقاً للإله الذى كان فى كل الأوقات سوطاً مصلتا على الأرض . إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المضللة التى تجعل الدنيا مقراً الخداع . إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل . إنه يعلم أن سعاده الجنس البشرى تقتضى بشكل لارجعة فيه ، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه . ليكى يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائما للسلام — هيكلا مقدسا للفضيلة . . . فاذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة فى الكائنات التى اعتادت أن ترتعد فرائصها جبنا . فان له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة . وعلى الرغم من ذلك فانه يحكم على جهوده بأنها عقيمة إذا إستطاع أن يجعل إنسانا واحداً سعيداً أو يهدىء من إضطرابات ذهن مستقيم واحد ، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج . . . ومن أنه وطىء تحت قدميه الأوهام التى تقض مضاجع المنكودى الحظ وتعذبهم . وإذ نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع

أن يتأمل فى هدوء من قمة صخرته فى تلك الأعاصير المروعة التى أثارتها الخرافة . ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها[١٢٣].

٣ — الأخلاق والدولة :

ولكن هل ينسجم الالحاد مع الأخلاق الشعبية العامة ؟ وهل يمكن ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقى مجرد من الإخلاص للدين ومن تأييده ؟ أن دى هولباخ واجه هذه المشكلة فى كتابه « منهج الطبيعة » ثم عاد إليها فى ١٧٧٦ فى كتاب ذى ثلاثة مجلدات « الأخلاق العـــامة » وأنه يرتاب بادىء ذى بدء فى أن الديانة سعت إلى الفضيلة والأخلاق القويمة .

« على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى فى مجرد وصفها . فأى حشد من المجرمين المتهتكين يملأ مدننا . . . وهل اللصوص أو القتلة المعاقبون ملحدون أو متشككون ؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله . وهل يتحدث أكثر الآباء تمسكا بالدين وهو ينصح إبنه عن إله محب للانتقام ؟ إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياع ثروته فى المسير ، وازدراء المجتمع له — هى الدوافع التى دعت الولد إلى النصح[١٢٤].

وحتى مع إفتراض أن الدين فى بعض الأحيان يساعد الأخلاق ، فهل يتوازن هذا مع الضرر الذى يلحقه الدين بالانسان ؟

فى مقابل إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماحه هناك آلاف من الناس لاتؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقا . وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه الفكرة غير عقلانيين ، يعوزهم التفكير السليم ، وتحولهم إلى أدوات إضطهاد وتعذيب وحشيين . وتحولهم إلى خبثاء أشرار . . . متعصبين . كما أن هناك ملايين تفسد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع[١٢٥] .

وتأمل فى النفاق الذى يفرضه الضغط الاجتماعى للدين على المتشككين .

أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التى فرضها اللاهوت على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا فى ظل « الديانة المسيحية » فليقرأوا الرومانسيات (القصص الخيالية) الميتافيزيقية التى كتبها ليبنتز وديكارت ومالبرانش وكدورث وغيرهم ويفحصوا فى هدوء النظم والترتيبات البارعة ولكن الحماسية المسماة « التناسق المقرر مقدما للأسباب العرضية(١٢٦) .

وفوق ذلك فان المسيحية بتركيزها فكر الانسان على الخلاص الفردى فى الدار الآخرة ، أماتت الشعور الانسانى والاجتماعى فى مثل هذا الفرد . وتركت الناس غير شاعرين ببؤس رفاقهم ،وبالجور والاجحاف اللذين يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة .

ويرفض دى هولباخ الفكرة المسيحية الفولتيرية التى تقول بأن الانسان يولد ولديه حاسة الصواب والخطأ . إن الضمير ليس صوت الله بل صوت رجل الشرطة . إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته « ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بآثار أفعالنا على رفاقنا ثم إنعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا(١٢٧) . ويمكن أن يكون هذا الضمير موجها أو مرشداً زائفا . فاربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم منحرف أو خبرة أسيء فهمها ، أو تفكير خاطيء ، أو رأى عام فاسد . وليس ثمة رذيلة أو جريمة لايمكن إظهارها فى ثوب الفضيلة عن طريق التعليم أو القدوة السيئة ومن ثم فان الزنى مهما يكن من أسر تحريم الدين له عمل يبعث على الفخر . والتملق الذليل مستساغ فى البلاط واغتصاب النساء والسلب والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال .

« أنا لنرى رجالا أغنياء لايعانون من وخز الضمير لما جمعوا من ثروة على حساب مواطنيهم » و « وطنيين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم الأفكار الزائفة الباطلة فأغرتهم بابادة من يخالفونهم فى الرأى دون شعور بالندم أو تأنيب الضمير » وخير ماناأمل فيه هو ضمير تشكل عن طريق تعليم

أفضل، واكتساب عادة التطلع إلى آثار أفعالنا على غيرنا وعلى أنفسنا . وعن طريق رأى عام أسلم وأصح بتردد أى فرد عاقل فى الاساءة إليه[١٢٨] .

ويتفق دى هولباخ مع المسيحية فى أن الإنسان بطبيعته نزاع إلى « الاثم » أى إلى السلوك الضار بالجماعة . ولكنه يرفض فكرة أن هذه الطبيعة النزاعه للاثم « موروثة عن خطيئة آبائنا الأولين . باعتبارها فكرة سخيفة . ويقبل الأنانية باعتبارها جوهرية فى سلوك البشر ، ويرى مثل هلفشيوس أن يبنى عليها قانونه الأخلاقى ، بأن يجعل السلوك الاجتماعى مفيداً للفرد .

« فالأخلاق تصبح علماً عقيما إذا لم تثبت للانسان بما لايقبل الجدل أن مصلحته تكمن فى تمسكه بالفضيلة[١٢٩] ويمكن أن يتحقق لنا شيء من تعليم يوضح اعتماد مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة . ويمكن بث درجة معقولة من الغيرية — حب الغير » باستثارة الرغبة الطبيعية فى كسب الاستحسان الاجتماعى العام والتفوق والامتياز والمكافآت . وهكذا يصوغ دى هولباخ علم الأخلاق عنده قانوناً للطبيعة : « عش لنفسك ولرفيقك فانى (أى الطبيعة) أقر ملذاتك مادامت لاتؤذيك ولا تؤذى الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك . . وكن عادلا لأن العدل يعزز الجنس البشرى ويدعمه . . وكن طيباً لأن طيبتك ستجذب كل قلب إليك ، وكن متسامحاً حيث أنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك . وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرح حب الذات عند كل من حولك . واعف عن الإساءة والأذى وأحسن إلى من أساء إليك . . حتى تكسب صداقته . وكن معتدلا مقتصدا فى شهواتك عفيفا فإن الانغماس فى الشهوات والاسراف والافراط سرف يدمرك ويقضى عليك ويجعلك مدعاة للاحتقار[١٣٠] .

إن الحكومة إذا أولت عناية أكبر وأكثر جدية لصحة الشعب وحمايته وتعليمه فقد تخف معدلات الجريمة إلى حد كبير[١٣١] . وإذا كان الإنسان يخسر كثيراً فى عدم الالتزام بالسلوك الاجتماعى السليم فإنه لن يكون على

استعداد للمغامرة بمثل هذه الخسارة فى مثل هذا السبيل . وإذا تدرب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلا من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التى سرعان ما تفقد قوتها ، فإن أخلاق الرجال لابد أن تتحسس بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضى بما سيكون فى المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج .

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة ، ومثل هذه الفضيلة هى السبيل الأمثل للسعادة .

وفى « منهج الطبيعة » و« المنهج الاجتماعى » (٣ مجلدات ، ١٧٧٢) ، و« السياسة الطبيعية » (١٧٧٢ ، مجلدان) و« روح الشعب » (١٧٧٦) عالج المليونير الذى لا يكل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة . وفى هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة . ويتفق دى هولباخ مع لوك وماركس فى أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان نتاجاً لعمله وحده . إنه نبيل وقد يتخلص من الارستقراطية الوراثية .

قد يدعى نفر من الناس حقاً فى الثروة ومراتب الشرف فحسب . ولو أن حق المولد واللقب لابد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يثبط هممهم . إن الذين لا يملكون إلا عراقة الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق فى الثراء والشرف . . . ولا يمكن أن نعتبر النبالة الوراثية إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليدارى خمول ... وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع ...(١٣٢) وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة فى قصور العصور الوسطى تعطى لورثتها الحق فى تولى أرفع المناصب فى الكنيسة والدولة وفى دور القضاء أو فى الجيش دون اعتبار لما ينبغى أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام (١٣٣) ؟

أما بالنسبة لرجال الدين فلنتركهم يدبرون أمورهم بأنفسهم ، ويجدر أن تنفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال . ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لاتحظى بأى دعم أوتأييد من الدولة . وينبغى على كل حكومة ملتزمة جانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام أية ديانة أومذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد (١٣٤) .

ودى هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض ، وهو ينتقد أصحاب الدخول الخاملين من أفراد الطبقة الوسطى . وبوصفه بارونا فإنه يحتقر رجال الأعمال . « ليس ثمة مخلوق حى أشد خطراً من رجل الأعمال الذى يفتش عن فريسته (١٣٥). أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب : « إن الدول مستعدة لافناء بعضها بعضاً من أجل أكوام من الرجال . إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال الجشعين الذين يزينون لهم الأمل فى الثروة التى يجنون هم أنفسهم ثمارها ، ومن هنا يتناقص عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة . ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التى التهمت الهند وكندا . « هنالك شعب يبدو أنه فى نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفا لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار — وهو مشروع جائر جنونى يؤدى تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمه التى تسير وراء هذا الخبل . . . وسيأتى اليوم الذى يقذف الهنود هؤلاء الأوربيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب (١٣٦) .

ويميل دى هولباخ إلى الأخذ بسياسه الفيزيوقراطيين فى عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة) . « لايجوز للحكومة أن تعمل للتاجر شيئا إلا أن تتركه وشأنه . وليس ثمة تعليمات أو تنظيمات يمكن أن توجهه فى مشروعات أفضل من مصلحته هو . . . وليس على الدوله إلا أن تحمى التجارة . إن الأمم التجارية التى تهيىء لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لابد أن تثق

فى أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعا[١٣٧].

ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيلولة دون تركيز خطير للثروة . ويقتبس عن طيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيقة اللاذعة « الرجل الغنى إما وغد أو وريث أحد الأوغاد[١٣٨] » . فى كل الأمم تقريبا لايملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئا . . . وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة فى الدولة ، لأصبحوا سادة هذه الدولة المتحكمين فيها . ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة الهامة إهمالا تاما[١٣٩] . . . وإذا توقفت إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع ، فإن خمول بعض الناس مع الاستعانة بالقوه والخداع والاغراء ينجح (أى الخمول) فى الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم[١٤٠].

وفى رأى دى هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية البارعة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب — ويبدو أنه كان يفكر فى لويس الخامس عشر . «إنا لانرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكا جائرين ظالمين ، أوهنهم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق ، كما لوث الفجور والفسق أخلاقهم ، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث ، لايتحلون بأية مواهب أوقدرات أو بمكارم الأخلاق ، عاجزين عن بذل أى جهد لخير الدول التى يحكمونها . ومن ثم فانهم لايهتمون إلا قليلا بمصلحة شعوبهم ، مستهترون بواجباتهم التى غالبا ما يجهلونها فى الواقع . إنهم إنما تتملكهم الرغبة فى تحقيق أطماعهم التى لاحد لها ، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان ، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بهؤلاء الرعايا ، وهم أهم شيء من أجل سعادة أمتهم[١٤١].

وواضح أن تفكير دى هولباخ إتجه إلى الحكومة الفرنسية ، فاندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب ، أى تعيينهم ملتزمين عامين . ويهجوا هؤلاء الملتزمين : « إن الحاكم المستبد الطاغية يلجأ إلى

طائفة من المواطنين الذين يهيئون له وسائل تحقيق جشعه فى مقابل منحهم الحق فى إبتزاز أموال الآخرين دون عقاب . . . أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التى تذهب إلى جيوب هــؤلاء المبتزين وتزيد ثراءهم تضيع عليه هو نفسه ، وأن جمهور العامة الذليل الخاضع قد يرتشى فى غمار الحيرة ليشن حربا على الأمة . . . إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ تزداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم . . . وتصبح الثروة هى الدافع الوحيد . . . والظمأ إلى الذهب يتملك كل القلوب(١٤٢) .

إن الأرستقراطى الرخى البال يتحدث أحيانا كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغمورين غضبا » ، هل ينبغى على الأمم أن تعمل دون كلل ولا ملل لأرضاء غرور حفنة عقيمة من مصاصى الدماء ، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وأشباع نهمهم(١٤٣) » ؟ . أنه فى هذه الحالة النفسية يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو فى كتابة (العقد الاجتماعى) :

« أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريرا . أن العظماء وذوى السيطرة والقوة يسحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب . إن هؤلاء يغامرون بحياتهم فى سبيل الثأر مما لحق بهم من أذى وشر . إنهم يهاجمون جهراً أو سرا البلد الذى هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطى لبعض أبنائها كل شىء وتحرم الآخرين من أى شىء . . . والإنسان فى كل مكان تقريباً عبد رقيق . ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أنانياً مرائياً منافقاً بلا شرف ، وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التى هو فرد فيها . أن هذا الإنسان فى كل مكان مخدوع مضلل يشجع على الجهل ، محروم من استخدام عقله ، فلابد أن يكون بطبيعة الحال فى كل مكان غبيا غير متعقل شريرا ، وهو فى كل مكان يرى إمتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها . ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة ، وأن الفضيلة تضحية لأغناء فيها . . . وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جديا بتربية الشعوب

وتعليمها ومصلحتها وإذا كانت القوانين عادلة ، فلن يكون من الضرورى التماس أحلام وأوهام مالية فى حياة أخرى يثبت دائما أنها ناقصة غير وافية أمام إنفعالات الإنسان الخانقة وحاجاته الحقيقية[١٤٤] .

وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال ؟ إن أول خطوة فى هذا السبيل هى الغاء الحكم الاستبدادى المطلق . « إن الحكم المطلق لأبد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله[١٤٥] . . . ويجب دائما أن تخضع سلطة الملوك لممثلى الشعب ، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبيهم[١٤٦] » وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشئوم ١٧٨٩ . « ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين » فإن أى مجتمع يمكنه فى أى وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحكومة تمثل الإرادة العامة[١٤٧] » . وهنا يتمثل صوت روسو والثورة .

ولكن الثورة ، بثمن غال أحيانا ، تهدم الماضى وتقضى عليه لكى تقيمه من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى : « لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الأضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة . إن هذه العلاجات العنيفة هى دائما أشد قسوة من المساوىء المقصود القضاء عليها أو التخلص منها . . أن صوت العقل ليس مثيرا للفتنة وليس متعطشا للدماء . ويمكن أن تكون الأصلاحات التى يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط[١٤٨] .

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس فى مقدورهم أن يصنعوا دولا بالغة حد الكمال . واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام « تتعارض مع طبيعة الكائن « بآلته » الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذى لايصغى دائما لهدى العقل . . . أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون[١٤٩] . وليس التقدم خطا مستقيما بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعليم والخبرة لتبيان أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها . والديمقراطية مثل أعلى

وهى ممكنة فى الدول الصغيرة وحدها ، مع إزدياد وعى الشعب وعقله وذكائه . وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية فى فرنسا فى عهد لويس السادس عشر . وقد يستخدم هذا الملك الجديد الطيب ذو المقاصد الحسنة أناسا ذوى قدرات ومواهب عظيمة لأصلاح الدولة . وهكذا يرتضى دى هولباخ ، آخر الأمر ملكية دستورية ويهدى كتابة الأخير روح الشعب « إلى لويس » الملك العادل الإنسانى المحب للخير أبى الشعب وحامى الفقراء(١٥١) وتعلق الفيلسوف العجوز بهذا الأمل المستميت .

٤ – دى هولباخ ونقاده :

إن « منهج الطبيعة » هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والالحاد فى تاريخ الفلسفة بأسره . أن تردد فولتير وتناقضه ودقته التى لا نهاية لها ، وحماسة ديدرو الغامضة وكتاباته المتعارضة ، ورفض روسو المشوش المربك لما يكتبه جان جاك روسو نفسه ، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق وإتساق شديد بين الأفكار ، وتعبير قوى فى أسلوب عميق أحيانا ، مشرق أحيانا ، فصيح غالبا ، ولكنه دائما أسلوب مباشر وأضح . ومع ذلك فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لايستوعبها عامة القراء . وتلهف دى هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس ، ومن ثم فأنه شرح آراءه . ووجهات نظره مرة أخرى فى شكل أبسط فى حسن الأدراك ، أو « أفكار فى مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة» (١٧٧٢). وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد فى نشر مثل هــذه الآراء غير المألوفة التى يريد أن يقنع الناس بها .

وأنه لمما يدل على سعة إنتشار آراء دى هولباخ رد فعل « منهج الطبيعة » على فردريك الأكبر ، إن هذا الملك الذى كان يخطب ود الفلاسفة ، والذى مجدوه وأمتدحوه على أنه رأعيهم ومثلهم الأعلى ، أنقلب عليهم حين رأى أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية بقدر سواء . لقد كان من

مصلحته أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة ، ولكن أثار إستياءه وربما أثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنيل من الأله . أن نفس القلم الذى دبج يوما ضد المكيافيللية ، يكتب الأن تفنيد منهج الطبيعة ، أن هذا الرجل دى هولباخ قد ركب متن الشطط : يقول فردريك « إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ فى إعتباره رقة الآذان الخرافية ، ويجدر به إلا يصعق أحداً ، وينبغى عليه أن يتريث حتى تبلغ الأستنارة حدا يسمح له بالجهر بأفكاره[١٥١] .

ووأضح أنه بناء على إيحاء فردريك ، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدى شدة تطرف دى هولباخ إلى انفضاض الناس من حول الفلاسفة . اللهم إلا الملحدين والثوريين ، نجد فولتير وكأنما هو قائد جيش يؤنب ضابطا (ملازما أول) وقحا — خصص فى مقاله « عن الله » فى « قاموسه الفلسفى » عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دى هولباخ ، فهو يقول فى بداية كلامة :

« أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على قراءته : العلماء والجهلة والنساء على حد سواء . إن لأسلوبه مزايا نفتقدها عند سبينوزا . وهو فى الغالب وأضح وأحيانا فصيح ، على الرغم من أنه مثل الباقين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب الخطابى والتناقض الذاتى . أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به فى الفيزياء وفى الاخلاق كليهما . وهنا تكمن مصلحة الجنس البشرى ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة » .

ولا يوافق فولتير على أن النظام الذى ننسبه إلى الكون . والخلل الذى نظن أننا قد نجده فيه ، هما أفكار أو أهواء ذاتية . وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى ابعد الحدود وأن الخلل أحيانا وأضح إلى حد مؤلم :

« ماذا ! أليس الطفل الذى يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوى بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشرى ؟ إليس الأطراد المعتاد فى

الطبيعة هو الذى يصنع النظام والشذوذ هو الذى يشكل الخلل ؟ أليست فوضى صارخة وخللا رهيبا أن تعمد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريئا محدودا ؟ إن الأخراج بكل أنواعه ضرورى ، ولكن قنوات الأفراز كثيرا ما تكون بلا فتحات ، مما يتطلب العلاج ، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة » .

ومن حيث كون المادة لها قوة توليد الحياة والذهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوما ميالا إلى الأخذ بوجهة النظر هـذه ، آثر « لا أدرية » متواضعة على إفتراضات دى هولباخ الواقعة :

« إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت لنا أن المادة التى نعتبرها جامدة ميته ؛ تدعى الفعل والحياة والعقل إذا إتحدت وتجمعت بطريقة معينة » وتلك هى المشكله بعينها ، كيف تنشأ جرثومة حية ؟ أن المؤلف والقارىء كليهما يجهلان هذا على حد سواء ، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية فى العالم بأسره مجرد أحلام ؟ يقول دى هولباخ : « من الضرورى أن نعرف المبدأ الحيوى الأساسى ، وأحسب أن التعريف متعذر » . أليس هـذا التعريف ميسورا جداً . . . . اليس تنظيم الحياة بالشعور ؟ ولكن من المستحيل أثبات أن هاتين الخاصيتين تنشئان فقط من المادة وهى فى حركة . وإذا كان من المستحيل أثبات هذا ففيم توكيده ؟ ... أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذ هذا الأسلوب الحاسم فى الوقت الذى لم يتم فيه تفسير أى شىء . . . فإذا تجاسرت على توكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبديه ، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل ، مثل قضيه من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على « ربما » ، أى مجرد الاحتمال . وأى أساس هذا لمعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشرى .

وكان دى هولباخ قد أيد التوالد التلقائى بأشارته إلى تجارب اليسوعى الانجليزى نيدهام (١٧٤٨) الذى إعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة

من مادة ليس فيها حياة . وكان فولتير يقظا لآخر تطورات العلم ، فأشار إلى تجارب سبللانزانى (١٧٦٥) الذى أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما إنتهى إليه من نتائج . ولم يكن دى هولباخ قد رأى فى الطبيعة أى تصحيح أو تخطيط ، ولكن فولتير يرى الكثير ، ويحاول أن يبرهن على أن نمو العقل وتطوره فى الإنسان يدل على عقل فى الكون أو فيما وراءه ، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة « إذا لم يوجد إله فمن الضرورى أن نصطنعه ، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى فى عقله وعدله ، فإن الحياه بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشقاء تكون غير محتملة ، وينضم إلى دى هولباخ فى إزدراء الخرافة ، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لا له . ويختم فى رفق فيقول : « إننى ميال إلى القول بأنك وقعت فى خطأ جسيم ولكنى بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين فى أنك مخدوع خداعا ذاتيا . يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله . ولوأنك من سؤ الحظ قلت « سرعان ما تجعل الرذيلة الإنسان سعيدا حتى يحب الرذيلة » . وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصدق قائلك أن يقنعوك بمحوها . أنك فى كل مكان أخر توحى بالأستقامة والأمانة . إن هذا الصراع الفلسفى سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين فى أوربا . ومن يسمع عنه سائر العالم شيئا . إن الناس لا يقرأوننا . . . أنت مخطىء . ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفضائلك[١٥٢] » .

ولسنا ندرى إذا كان فولتير راضيا كل الرضا عن هذا التفنيد من كل قلبه . وأنا لنلاحظ ملاحظته البسيطة العابرة عندما سمع أن فردريك كان قد كتب كذلك ضد « منهج الطبيعة » « إن الله كان فى صفه إثنان على الأقل من أبعد الناس عن التمسك بالخرافات فى أوربا — مما لأبد أن يكون قد إثلج صدره كثيراً[١٥٣] وطلب إلى الدوق دى ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علما بأن المغترب العنيد فى فرنى كان قد كتب ردا على الكتاب الجرىء المتهور الذى كان حديث الناس فى باريس .

ونشر أصدقاء دى هولباخ نقد فولتير وسيلة للاعلان عن أفكار البارون. وإتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبسالة والشجاعة فى الحرب ضد الكاثوليكية ودخلت فلسفة دى هولباخ إلى روح الثورة الفرنسية قبل روبسبير وبعده — وكان يؤثر روسو . وانا لنسمع أصداء كتاب « منهج الطبيعة » فى كامى ديمولان وماراه ودانتون[١٥٤] قال فاجيه « إن دى هولباخ أكثر من فولتير وأكثر من ديدرو ، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين فى أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر[١٥٥] وفى عهد حكومة الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخا من أحد كتب دى هولباخ إلى رؤساء المصالح والهيئات فى محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد[١٥٦] .

وأنا لنحس تأثير دى هولباخ فى إنجلترا فى مادية بريستلى (١٧٧٧) ونبع كتاب جودوين « بحث فى العدالة السياسية » من دى هولباخ وهلفشيوس وروسو بهذا الترتيب فى التأثير [١٥٧] . وبدأ الألحاد المتحمس عند شللى صهر جودوين ، بقراءة « منهج الطبيعة » الذى شرع فى ترجمته كوسيلة لا شراك أساتذة أكسفورد فى الحملة ضد الدين[١٥٨] . أما فى ألمانيا فإن مادية دى هولباخ وتشكك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من « سباته العقائدى » وربما ورث ماركس بطرق غير مباشرة تعاليمه المادية عن دى هولباخ .

وقبل أن يكتب البارون بزمن طويل كان بيركلى قد آذى المادية أكبر ايذاء . فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة . والمادة (منذ عرفها دى هولباخ بأنها كل ما يؤثر فى حواسنا) معروفة بطريق غير مباشر ، عن طريق الذهن . ويبدو أنه غير معقول أن نهبط بالمعروف مباشرة إلى ما هو معروف بطريق غير مباشر . وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا أن تكون . إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء . فكلاهما يحلل إلى أشكال من الطاقة لايتيسر لنا فهمها . وأنه لمن العسير الآن ، كما كان عسيراً فى أيام لوك وفولتير . أن نتصور كيف يمكن أن تصبح المادة فكرة أقل وعيا بكثير . أن التفسير الميكانيكى للحياة أثبت أنه مجد فى الفسيولوجيا ،

ولكن يبقى الاحتمال قائما . وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجا وأدوات للرغبة (الذهن) مثل عضلات اللاعب الرياضى . إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعى « قد تكون تيسيرات وأيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية ، لأنها أدوات إصطنعها الذهن لتناول الظاهرات والأحداث والأشياء تناولا ملائما ، وأصبحت هذه الأدوات عناصر لا مفر منها فى الفكر العلمى ، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الذهن الذى شكلها . إننا لا نعرف أن العالم منطقى .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ — ١٧٧٨

١ — فولتير والله

قد ندرس فيما بعد الأنشطة والآراء والاهتمامات غير الدينية فى تلك النار المدمرة التى يقال لها فولتير ، والتى تتأجج بين الحين والحين فى فرنى Ferne ونكتفى هنا بتلخيص آرائه فى الدين وحربه ضد المسيحية . ولن نذكر هنا شيئا لم يذكر مائة مرة من قبل . كما أنه لم يقل عن المسيحية شيئاً لم يسبق قوله . وكل ما فى الأمر أنه حين تكلم انطلقت كلماته مثل اللهب سرى فى أوربا ، وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا .

وكان طبيعيا أن يرتاب فى العقيدة المسيحية ، لأن الدين قصد به تهدئة الفكر لا إثارته . وكان فولتير هو الفكر مجسدا فهو قلق مضطرب لا يهدأ ولا يسكن . ورأيناه فى سيرة حياته ينضم إلى ذوى العقول المتشككة فى The Tempole يغذى شكوكه بين الربوبيين فى انجلترا ساعيا وراء العلم فى سيرى، متبادلا رسائل الالحاد مع فردريك فى ألمانيا . ومع ذلك فإنه حتى بلغ السادسة بعد الخمسين احتفظ بالحاده أو كفره مظهرا عارضا أو لعبة أو تسلية خاصة . ولم يشن على الكنيسة الحرب علانية . بل على النقيض من ذلك دافع علنا وتكراراً عن أساسيات العقيدة المسيحية : إله عادل وإرادة حرة والخلود . وإذا لم نعده كذوبا (وغالباً ما كان كذلك) فانه احتفظ حتى وفاته بإيمانه بالله وبقيمة الدين . ويمكن أن نقتبس عنه لأى غرض تقريبا ، لأنه مثل أى شيء حى ، نما وتغير واضمحل . ومن منا

احتفظ فى سن الخمسين بما اعتنق من آراء فى سن العشرين ، أو فى سن السبعين ، بآرائه حين كان فى الخمسين ؟ إن فولتير ناقض نفسه إلى أبعد الحدود ، لأنه عمر طويلا وكتب كثيراً ، فكانت آراؤه من فيض رؤيته كلما تقدمت به السنون [١]

وفى سيرى حوالى ١٧٣٤ حاول أن يصوغ أفكاره حول الأشياء الأولى والأخيرة فى « رسالة فى الميتافزيقا » وقبل أن يجعل بالى المقارنة مألوفة لدى الإنجليز بعدة سنين ذكر فولتير أنه من المنطق التسليم بذهن ذكى عاقل فى الكون مثلما هو منطقى افتراض أن الساعاتى قد صنع ساعة . ففى كلتا الحالتين رأى دليلا على التصميم والتخطيط فى تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها . ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة ، فكذلك الكون . وليس ثمة معجزات . ولكنه إلى حد ما لم يستطع أن يطرح جانبا الشعور بأن الإرادة الإنسانية ، بطريقة خفية ولدرجة بسيطة حرة . على الرغم من أنه عرف تمام المعرفة أن الاختيار الحر المطلق حين يتصرف فى عالم ميكانيكى لا بد أن يفسد آليته أو طبيعة تركيب اجزائه. والذهن شكل من أشكال المادة ووظيفة من وظائفها . ويقول فولتير متبعاً فى ذلك لوك . « ينبغى أن نقرر أنه من اليسير جدا على الله أن يضيف إلى المادة فكرا .[٢] وقدرة المادة على التفكير ليست معجزة أكبر من إمكان تأثير الذهن غير المادى على الجسم المادى . والنفس ليست إلا حياة الجسم وتفنى بفنائة ، وليس ثمة وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها ، وهذا كاف ، وهو معين لا ينضب . وقد يكون ثمة بعض النفع فى الدين ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه تعزيرا للفضيلة . وغالبا ما استخدمه رجال الدين على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس ، على حين ابتز الملوك أموالهم . وينبغى تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعى لا على أساس طاعة الله ، ويجب ألا تتوقف على الثواب والعقاب بعد الموت .

وقرأ فولتير هذه الصفحات الخمس والسبعين على مدام دى شاتيلية

التي يبدو واضحاً إنها لم تشجعه على نشرها . ويبدو أنه أقرها على ذلك وطرح المخطوطة جانبا ، فلم تنشر قط طيلة حياته . وفوق هذا أصبح مقتنعاً بأن أية ميتافيزيقا عقلانية وأية محاولة لتفسير أصل العالم والإنسان وطبيعتهما ومصيرهما عن طريق العقل ستكون إلى الأبد فوق طاقة البشر . وقرأ الفلاسفة ولكن لم ترقه مناهجهم ، وذهب إلى أن « الأقدمين قالوا كل شيء في الميتا فيزيقا وفي الأخلاق ، وأننا دائماً نعارضهم أو نكررهم. وكل الكتب الحديثة من هذا النوع هي مجرد تكرار معاد [٣] » ولا بد أنه تأثر بمنهج سبينوزا لأنه أجهد نفسه في دحضه وتفنيده .

وعلى الرغم من تنصله وإنكاره لم يستطع أن يتغلب على ولعه بالخوض في المسائل العويصة المستعصية.وبين الحين والحين فيما بين عامي ١٧٣٤—١٧٥٦ أخذ ينقب في الميتافيزيقا واللاهوت . وظل حتى آخر حياته يؤسس إيمانه بالله على حجة التخطيط أو التدبير منذ البداية ، ولو أنه عمد إلى تسفيه التطرف في الغائية (الاعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة) . « قد لا أومن بأن الأنوف قد صنعت لتكون جسرا مريحاً للنظارات ، ولكني مقتنع بأنها صنعت لنشم بها [٤] » . « وأليس من أبشع السخف والحماقة أن نؤكد أن العين لم تصنع لتبصر والإذن لتسمع والمعدة لتهضم ؟ [٥] وعندما طرق مؤلف شاب الباب في Les Delices (١٧٥٧) وقدم نفسه إلى فولتير على أنه « ملحد شاب مستعد لخدمته ، أجاب فولتير لي الشرف أن أستخدم ربوبيا ، وعلى الرغم من تعارض آرائنا سأقدم لك طعام العشاء الليلة ، وأقدم لك العمل غدا ، سأستفيد من ذراعيك وعضلاتك لا من رأسك وذهنك .[٦] أنه سمى نفسه ربوبيا ولكنه كان مؤمنا ، أي أن ألهه لم يكن قوة غير محسمة تماثل الطبيعة بشكل أو بآخر ، ولكنه عقل واع يصمم العالم ويحكمه . وبعد ١٧٥٠ بصفة عامة أطلق على نفسه أنه مؤمن بوجود إله .[٧] وفي القاموس الفلسفي في مقال « الإيمان بوجود الله

« كتب على أساس يمكن أن يبرر وصف كوندرسيه لفولتير بأنه رجل شديد التمسك بالدين :

« إن المؤمن الموحد بالله رجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوى معا ، خلق كل الموجودات يعاقب على الخطايا دون قسوة ، ويثيب على صالح الأعمال فى رفق وحنان . إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله وكيف يثيب ، وكيف يعفو ، ويغفر لأنه لم تبلغ به الجرأة حدا يخدع معه نفسه بأنه يدرك كيف يتصرف الله ، ولكنه يعلم أن الله يفعل وإن الله عادل . إن العقبات التى تواجه العناية الإلهية لا تزعزع إيمانه لأنها مجرد عقبات ضخمة وليست اختبارات إنه يخضع نفسه لتلك العناية الإلهية ، ولو أنه لم يدرك منها إلا بعض آثارها وبعض المظاهر . إنه يحكم على الأشياء التى لا يراها بالأشياء التى يراها . ومن ثم فانه يرى أن هذه العنابة الإلهية تحيط بكل مكان وبكل زمان . وقد اتحد فى هذا المبدأ مع سار الكون . فانه لا ينضم إلى أى من الشيع أو الطوائف التى تناقض نفسها . إن ديانته هى أقدم الديانات وأوسعها انتشاراً ، لأن العبادة البسيطة لله سبقت كل الأساليب والطرق فى العالم . . . أنه يؤمن بأن الديانة لا تقوم على آراء الميتا فيزيقا المبهمة التى يصعب سبرغورها ، ولا على الزخارف العقيمة ، بل تقوم على العبادة والتقديس والعدالة . إن عمل الخير عبادته والخضوع لله مذهبه . . . إنه يسخر من لوريتو ومكة ولكنه يغيث الملهوف ويدافع عن المظلوم [٨].

فهل كان فولتير مخلصا فى هذه الاعترافات ؟ إن بعض الباحثين ينسبها إلى الحيطة والحذر ، أو إلى الرغبة فى التحول إلى الالحاد خطوة خطوة ،[٩] أو إلى أمل فى أن يقلل غرس الإيمان الدينى فى خدمه من السرقة والاختلاس. وهناك فى كتابات فولتير قطع يبدو أنها تبرر هذا التفسير (اذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها ، فينبغى أن يكون لها دين) [١٠] . إن أكثر الملاحظات اقتباسا عنه يبدو انها تهبط بالديانة الى مجرد منفعة عامة ، ولكن سياق الكلام يلقى على هذا البيت ضوء أكثر اشراقاً وإيضاحا . أنه يوجد فى

رسالة إلى مؤلف الدجالين الثلاثة « إذا لم يكن الإله موجودا فيجب أن نبتدعه ، ولكن الطبيعة بأسرها تصيح فينا أنه موجود فعلا .[١١]» والقصيدة كلها دعوة إلى الإيمان . إن فولتير يعود إلى قضية الإيمان بوجود اله واحد المرة بعد المرة ، وكأنما يرد على شكوكه . وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته كتب ضد الالحاد قدر ماكتب ضد الديانة التقليدية وفى نفس الوقت شن حربا ضد المفهوم المألوف للرب بأنه إله الانتقام الذى قدر على معظم الناس الخلود فى عذاب الجحيم : « سيكون الجنس البشرى تعساً بائسا إلى أبعد حد إذا ألف ارتكاب الفظائع قدر ما يألف التصديق بها [١٢] وإذا كان الرب قد خلق الإنسان على صورته فقد جازيناه على ذلك خير الجزاء[١٣] بتصويره على صورتنا . ولا شيء يوضح مفهوم الإنسان عن نفسه أكثر من فكرته عن الله » .

وحاول فولتير جاهدا أن يوفق بين إيمانه بإله واحد وبين وجود الشر. وفى محاولاته لتبرير العدل الإلهى لوجود الشر اقترب من تفاؤل ليبنتز (الذى عمد إلى تسفيهه فى كانديد) إن الشر من وجهة نظر الجزء قد يكون خيرا ، وعلى الأقل ليس شرا فى منظور الكل . إن هذا ليس أحسن عالم يمكن تصوره بل أكثر ما يحتمل وجوده .[١٤] وكتب فولتير إلى فردريك ١٧٣٨ يقول : « إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير فإن فى هذه الحياة متع لا تعد ولا تحصى أكثر مما فيها من مرارة .[١٥]» ولكن هذا كتب فى سنوات صحته وعافيته فى أواسط عمره . ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة بل على النقيض من ذلك اعتقد أن فى الإنسان إحساساً فطريا بالعدالة وشعورا طيبا بالود نحو الآخرين [١٦] وهنا فوارق وتناقضات لا حصر لها فى الأفكار الأخلاقية لدى الجنس البشرى وفى عاداته . ولكن الشعوب تستنكر قتل الوالدين وقتل الإخوة والأخوات [١٧] .

وفى بوتسدام ١٧٥٢ نظم قصيدة « القانون الطبيعى » (نشرت فى ١٧٥٦) التى لخصت ديانته الطبيعية . «وحيث اتخذت القصيدة شكل رسالة إلى فردريك

الثانى المتشكك فإنه كان من الصعب أن تكون محاولة لإرضاء الأتقياء ، ولكنها تقترب من التقوى والعقيدة القويمة أكثر من أى شىء آخر طبعه فولتير . إنها لم تؤكد الإيمان بالله الخـــالق فحسب ولكنها كذلك تصف الإحساس الخلقى عند الإنسان بأنه من غرس الرب [١٨] . إنه هنا يتحدث كما يتحدث روسو ويستبق حماسة كانت للسلطان المطلق للضمير . أنه يحدد ديانته فى سطر واحد : « أعبد الله وكن عادلا وأحب وطنك » .[١٩] ويعرض تنوع العقيدة الدينية ويرثى للكراهية والتعصب ويدعو إلى تسامح متبادل بين مختلف المذاهب والشيع ، ويختم بدعاء كان يمكن أن يقره أى قديس . وفى ٢٣ يناير ١٧٥٩ أمر برلمان باريس باحراق القصيدة علنا . ويحتمل أن يكون هذا بسبب أن بعض أبياتها استنكرت الجانسنية .

وقد تخلص إلى القول بأنه حتى عام ١٧٥١ — إلى أن بلغ فولتير السابعة والخمسين تورع عن أى هجوم مباشر صريح علنى على المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية . فماذا أثاره وحفزه لشن الحرب فى نفس الوقت الذى جنح فيه معظم الثائرين إلى السلم؟أنه كان وقت صدور دائرة المعارف ، والتفسيرات الدينية التقليدية لزلزال لشبونه ، والإعدام الوحشى لـكل من جان كالا Calas وشيفالييه دى لابار De La Barre .

٢ - فولتير ودائرة المعارف

كان فولتير فى بوتسدام حين نشر المجلد الأول من دائرة المعارف (١٧٥١) . ولا بد أنه قرأ وهو مغتبط أشد الاغتباط السطور التى كتبها دالمبير تقديراً لفولتير وثناء عليه فى « [illegible] حيث قال « قد لا أوفى هذه العبقرية الفذه حقها من الاجلال والمديح مما لقيه كثيرا من مواطنيه ومن الأجانب ومن أعدائة ، ومما ستضيف إليه الأجيال المقبلة كثيرا حين يعود غير قادر على الاستمتاع بالإطراء والثناء » . ورد فولتير على هذه التحية فى رسالة مؤرخة ٥ سبتمبر ١٧٥٢ إلى دالمبير قال فيها « إنك وديدرو تقومان بعمل

سيكون فيه فخار فرنسا ومجدها ، وعار وخزى لهؤلاء الذين يضطهدونكما أو يقفون فى طريقكما . أنا لا أعترف من بين الفلاسفة البلغاء الأبلك وبه » وعاهد نفسه على مساندته وتأييده ، ولم يضيع أى فرصة لجذب الأنظار إلى المشروع باعتباره « عملا ضخما خالدا يتهم قصر الحيـــاة الإنسانية ويندد به [٢٠] » .

ومهما يكن من أمر انشغال فولتير بأعماله الكبرى — قرن لويس الرابع عشر ، ورسالة فى الأعراف والعادات ، وتورطه مع هرشلك وموبرتوى وفردريك فانه وجد فسحة من الوقت ليرسل إلى دالمبير (١٧٥٣) بمقالات موجزة : « مجرد مادة يمكنك تبويبها كيف تشاء وضمها إلى الصرح الخالد الذى تقيمه . إنى أمدك ببعض لبنات تضعها فى أية زاوية فى البناء » [٢١] . وتوسل إلى الأصدقاء ذوى النفوذ أن يعملوا على حماية المحررين . وفى ١٧٥٥ كتب إلى دالمبير « ما دام فىّ عرق ينبض بالحياة سأكون فى خدمة مؤلفى الموسوعة اللامعين ، وإنى لاعتبره شرفا كبيراً لى أن أسهم ولو بقدر ضئيل فى أعظم وأجمل أثر باق للأمة وللأدب » [٢٢] وأرفق بهذه الرسالة مقالات عن النار والقوة والفسوق والعبقرية الفرنسية والذوق الفرنسى . وأطلع على المجلدات الخمسة الأولى مدققا فاحصا ، فوجد أجزاء كثيرة جديرة بالثناء ، كما حزن ورثى لبعض الأجزاء الأخرى ، وطلب إلى المحررين أن يطالبوا كل الكتاب بالوضوح والإيجاز ، وحذر دالمبير (الذى ظنه خطأ رئيس التحرير) بقوله « إن معاونيك ضعاف فهناك جنود غير صالحين فى جيش القائد العظيم . . يؤسفنى أن أجد فى مقال « الجحيم » أن الكاتب يعلن أن الجحيم واردة فى شريعة موسى ، وأقسم لك الآن بكل الشياطين أن هذا غير صحيح [٢٣] .

وسرعان ما بعث بعدة مقالات صغيرة وببحث ضخم فى التاريخ . وحرض قسيسا عالما من لوزان هو أنطوان نوى دى بوليبه Noe de Polies على أن يكتب الدائرة المعارف مقالات عن « الماجيين والسحر والسحرة وعن الخلص

المنتظر » . وكلها تعج بالهرطقه فى هدوء وقد رأينا كيف أن فولتير كان مسئولا إلى حد ما عن مقال دالمبير عن جنيف ١٧٥٧ . وخفف من هذه العاصفة التى ثارت بسبب هذه المقالات بدعوة الكاهن المخدوع إلى العشاء . وحين أوشكت الكارثة أن تنزل بمشروع دائرة المعارف وتهدد بتوقفها عن الظهور ، كتب إلى ديدرو :

« أى ديدرو الشجاع ودالمبير الجسور : امضيا فى طريقكما . . هاجما الأوغاد ، واقضيا على تخرصاتهم الجوفاء وسفسطتهم الحقيرة وأكاذيبهم التاريخية وتناقضاتهم وسخافاتهم التى لا حصر لها ... لا تدعوا رجال الفكر أرقاء مستعبدين لمن لا يتحلون بشىء من الفكر والذكاء . إن الجيل القادم سيكون مدينا لكما بالعقل والحرية »(٢٤) .

ولم يجب ديدرو على هذه الرسالة ، وأصر دالمبير على الانسحاب من المشروع . أما فولتير فخانته شجاعته وساءه صمت ديدرو ، ومن ثم قرر أن ينفض يديه من العمل . وفى ٦ أو ٧ فبراير كتب ثانية إلى ديدرو يطلب إليه إعادة المقالات التى لم تنشر . فأجاب ديدرو بأن المخطوطات عند دالمبير ولكن إذا كرر فولتير طلب إعادتها إليه فأنه لن ينسى هذه الإساءة . وفى ٢٦ فبراير كتب فولتير إلى دارجنتال يقول : « إنى أحب ديدرو واحترمه ولكنى غاضب » . ولكنه كتب إليه مرة أخرى فى ١٢ مارس : « إذا التقيت بهذا الرجل الطيب ديدرو ، فأبلغ هذا العبد المسكين أنى أغفر له قدر ما أشفق عليه من كل قلبى »(٢٥) وفى مايو أرسل دالمبير المقالات المطلوبة إلى فولتير . ولكن دالمبير استأنف العمل فى دائرة المعارف فى شهر يونيه ، فأرسل فولتير المقالات إليه ثانية . ولكنه طلب عدم ذكر أسمه إذا نشرت . واقترح نقل المشروع إلى بلد آخر لا يتعرض فيه لعنت الرقابة فعلا أو توجسا . ورأى ديدرو أن هذا الاقتراح غير عملى . وفقد فولتير ثقته فى قيمة موسوعة ضخمة باهظة التكاليف وسيلة لنشر الفكر المتحرر . وفى ٢٦ يونية ١٧٥٨

أبلغ ديدرو أن مشاغله الأخرى قد تجعل من المتعذر عليه أن يسهم فى الموسوعة فضلا عن أن تأزم الأمور بين المحررين والحكومة والكنيسة « قد يضطر الإنسان إلى الكذب ، وأنا لنلقى الاضطهاد والتعذيب إذا لم نمض فى الكذب » (٢٦) إن الضجة التى أحدثها كتاب هلفشيوس « الذكاء » (فى يوليه) أزعجت الثائر العجوز ، فكتب ردا على ذاك الكتاب . وفى ١٦ نوفمبر أبلغ ديدرو أنه ابتاع دارا فى فرنى واعتزم أن يقيم هناك ويحيا حياة ريفية هادئة .

فهل كان يخدع نفسه ، أو أنه كان يدبر استئناف القتال بوسائل أخرى؟

٣ — لاهوت الزلازل

بينما كانت الموسوعة تكبو وتفيق وتختفى وتنبعث من جديد ارتعدت فرائص الفلسفة الأوربية نتيجة لزلزال لشبونه ففى الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول نوفمبر ١٧٥٥ — يوم عيد كل القديسين — هزت الأرض كتفيها فى البرتغال وشمال أفريقية . وفى ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل ، ومات خمسة عشر ألف رجل ، وأصيب مثلهم باصابات خطيرة ، فى واحدة من أجمل العواصم فى العالم . ولم يكن ثمة شىء جديد لم يسبق له مثيل فى هذه المذبحة الرهيبة التى حدث فيها الموت بالجملة . ولكن كانت هناك بعض ملابسات وظروف محيطة حيرت رجال اللاهوت ، وأقلقت بالهم . لماذا اختار هذا اللغز المحير مثل هذه المدينة الكاثوليكية ، ومثل هذا الاحتفال المقدس ، فى مثل هذه الساعة التى اجتمع فيها كل المواطنين الاتقياء تقريباً لحضور القداس ؟ ولماذا أبقى وسط هذا الدمار الشامل على دارسيا ستيو دى كارفالو ميللو مركيز بومبال فيما بعد — الوزير الآمر الناهى الذى كان ألد أعداء اليسوعيين فى أوربا بأسرها ؟

وأوضح مالاجريدا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلزال وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقابا من الله على الرذيلة التى استشرت فى

لشبونة.[٢٧] ولكن هل كان الآثمون هم وحدهم الذين ذهبوا للصلاة فى الكنائس فى هذا الصباح الرهيب ؟ ولماذا هلك كثير من القساوسة المتبتلين والراهبات المتفانيات فى الاخلاص للدين فى الزلزال والحريق ؟ وربما هلل المسلمون للكارثة باعتبارها إنتقاماً إلهياً من محاكم التفتيش فى البرتغال ، ولكن الزلزال دمر المسجد الكبير الذى يحمل إسم المنصور فى الرباط . وعزا بعض الكهنة البروتستانت فى لندن هذه الكارثة لاستنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الانسانية . ولكن فى ١٩ نوفمبر من نفس العام دمر الزلزال خمسة عشر ألف منزل فى بوسطن مساشوست موطن الحجاج والبيوريتانيين . وأعلن وليم ووربرتون أن مذبحة لشبونة « أبرزت عظمة الله فى أبهى صورها[٢٨] وألقى جون ويزلى موعظة عن أسباب الزلازل وعلاجها قال فيها « إن الخطيئة هى السبب المعنوى للزلازل مهما كان سببها الطبيعى . . . إن الزلازل هى نتيجة اللعنة التى صبتها على الأرض خطيئة آدم وحواء الأولى[٢٩]» .

واستشاط فولتير غضباً لهذه التفسيرات ، ولكنه هو نفسه لم يجد شيئاً يوفق به بين الحادث وبين إيمانة بإله عادل « أين الآن قول ليبنتز « أحسن العوالم الممكنة » أو قول بوب « كل ما هو موجود هو حسن » ؟[٣٠] ونظم فولتير كرد فعل غاضب لتفاؤله السابق أعظم قصيدة له « كارثة لشبونة اختبار للحقيقة المقررة « كل شىء حسن » وهنا نغتنم الفرصة لنقطتف نموذجا من فكرة شعره :

« آه أيتها المخلوقات الفانية التعسة . أيها الأرض المحزنة ، أيها الجمع الرهيب من بنى البشر . أيها المستقر الخالد لكل البلايا العقيمة الفاجعة ، أيها الحكماء الحمقى الذين ينادون بأعلى صوت كل شىء حسن ، تعالوا وتأملوا هذه الخرائب والأطلال الرهيبة : وهذا الحطام وأشلاء ورماد جثث بنى جنسكم ، وأنظرو إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة ، إلى الأعضاء المتناثرة تحت الأعمدة المحطمة . لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس ، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم ، واندفنوا وهم أحياء

تحت السقوف التى إنهارت عليهم ، فأنهوا دون أية مساعدة أيامهم التى تبعث على الأسى فى عذاب كريه . هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التى تؤذن بالفناء ، والدخان المتصاعد فى هذا المنظر البشع بقولكم هـذا جرى وفق قوانين أبدية طبقا لمشيئة الله المطلقة الخيرة ؟ وهـل تقولون أمام هذه الأكداس من الضحايا لقد إنتقم الله منهم لـ إن موتهم جزاء جرائمهم ؟ » .

ولكن أية جريمة وأى خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم فى أحضان أمهاتهم ؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة ؟ ومع ذلك دمرت اشبونة وباريس ترقص ؟ ألم يكن فى مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالما ليس فيه هذا الشقاء الذى لا معنى له ؟ إنى أجل إلهى ولكنى أحب الجنس البشرى .

إن الشاعر يتأمل فى عالم الحياة فيرى فى كل مكان وعلى ألف صورة متباينة تنازعاً على البقاء يلقى فيه كل كائن حتفه إن عاجلا أو آجلا . إن هذه الخلاصة المريرة لعلم الحياة (للبيولوجيا) تتطلب أن نورد النص :

« إن الصقر الضارى ينقض على فريسته المخلوعة الفؤاد ويتلذذ مبتهجاً بالتهام أوصالها الدامية ، وكل شىء يبدو فى نظره على ما يرام ، ولكن سرعان ما يأتى نسر كاسر ويلتهم بمنقاره الحاد الصقر بدوره ، ثم يعاجل الإنسان هذا النسر المتكبر بطلقة تصبب منه مقتلا . ويتوسد الإنسان التراب على أرض المعركة ينزف الدم وقد أثخنته الضربات وسط كومة من الموتى . وهناك يكون غذاء رهيباً للطيور النهمة . وهكذا تئن الدنيا بكل من فيها حيث ولدت كلها لتشقى وتعانى ، ويكون مصيرها الموت المتبادل . وفى هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع ، أية سعادة هذه ؟ أيها المخلوق الفانى الضعيف البائس ، أنك تصبح فى نعمة حزينة « إن كل شىء حسن على ما يرام » إن الكون يقدم لك الكذبة ، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك . إن العناصر والحيوان والإنسان كلها فى صراع . فلنعترف بأن الشر ملأ الأرض واستشرى فيها .

وكيف يتفق هذا الصراع الكونى الشامل وهذا الموت المذل المؤلم مع الإيمان بإله خير طيب ؟ إن الله موجود ، ولكنه لغز محير . إنه يبعث بابنه ليخلص الجنس البشرى ، ولكن الأرض والانسان بقيا على ماهما عليه على الرغم من تضحيته .

ماذا يمكن أن يقول أوسع العقول مدى فى هذا ؟ لاشيء فان كتاب القدر محجوب عن أبصارنا . فالإنسان وهو الغريب الأجنبي بالنسبة لنفسه ، مجهول لدى الإنسان . من أنا ؟ وأين أكون ؟ إلى أين أنا ذاهب؟ ومن أين أتيت؟ ان الذرات تتعذب على هذه الكومة من الطين ، ويحصدها الموت ويلعب بها القدر . ومع ذلك فانها الذرات المفكرة التى قاست اعينها ورصدت مافى السموات بهدى من الفكر. إننا نخترق بأذهاننا وعقولنا هذا الكون اللانهائى ، ولكننا لانستطيع للحظة واحدة أن نرى أو نعرف أنفسنا » .

وتلك بطبيعة الحال هى النغمة التى ضرب عليها بسكال قبل مائة عام فى نثر أروع من شعر فولتير . وكان فولتير قد نبذ يوماً بسكال واستهجنه ، ولكنه الآن يردد تشاؤمه . وعلى أساس هذا التشاؤم نفسه خلص بسكال إلى قوله : فلنركن إلى العقيدة المسيحية ونتعلق بالأمل . وختم فولتير قصيدته فى الأصل ببيتين كئيبين رواقيين : ماذا يجب علينا أن نفعل أيها الفانون؟ يجب علينا أن نقاسي ونخضع فى صمت ونعبد ونموت» . واحتج أصدقاؤه بأن هذه الخاتمة البائسة غير محتملة فغير السطر الأخير إلى اخضعوا واعبدوا وأملوا وموتوا ولم يشعر أحد بالرضا فاستسلم وأضاف ٢٩ بيتاً ، وأسلم نفسه للعناية الإلهية مؤمناً بأن « الله وحده على حق » .

وعلى الرغم من ذلك فان القصيدة لم تذهل المتدينين فقط ، بل أذهلت الفلاسفة كذلك . فان مثل هذه النغمة الكئيبة الجزوعة يبدو أنها أحرجت الفلاسفة وأرسل روسو إلى فولتير رسالة طويلة بليغه يوضح فيها إن كل ما تعانى الانسانية من علل وشرور ، إن هو الانتيجة لأخطاء البشر ، وأن زلزال لشبونه هو عقاب عادل للإنسان لتخلبه عن الحياة الطبيعية

وإقامته فى المدن ، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة فى القرى المتفرقة فى دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً ، وينبغى أن نؤمن بأن الله طيب خير ، لأن هذا كما قال جان جاك هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل ، وأن نستمر مع ليبنتز ، على الإيمان بأنه حيث إن الله خلق هذا العالم ، فلابد أن يكون كل شيء فيه على المدى الطويل وبالنظرة البعيدة حقاً وصدقاً . وحصل أحد أصحاب المطابع على هذه الرسالة ونشرها فلقيت أكبر الترحيب على أوسع نطاق ، رداً بارعاً على قصيدة فولتير ، ولزم فولتير الصمت لمدة أطول مما كان مألوفاً . ولما عاد للخوض ثانية فى موضوع التفاؤل خرج على الناس بأروع أعماله وهو كتاب ظل حديث العالم لمدة جيل ، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير .

٤ — كانديد

نشر هذا الكتاب فى أوائل عام ١٧٥٩ تحت أسم Candide أو التفاؤل ، مع الأيهام بأنه مترجم عن الإلمانية عن كتاب دكتور رالف ، مع اضافات وجدت فى جيب الدكتور عند وفاته فى ميندن Minden . وأمر المجلس الكبير بأحراق الكتاب فور صدوره تقريبا (٥ مارس) وأنكر فولتير بطبيعة الحال أنه مؤلفه . وكتب إلى قسيس صديق له فى جنيف « لأبد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا إلى هذه المجموعة من الهراء . إن عندى ولله الحمد والشكر ما شغلنى خيراً منه[٣١] ولكن فرنسا أجمعت على أنه ما كان فى مقدور أحد غير فولتير أن يكتب « كانديد » . فهنا كان النشر البسيط بشكل خداع الذى يتدفق برفق والذى يتميز بمرح خفيف وتهكم لاذع شيطانى مما يستطيع هو وحده أن يكتبه . وهنا وهناك فى الكتاب قليل من الفحش والبذاءة وقليل من الأدب الداعر ، وفى كل مكان عبارات هازلة غاضبة مهلكة تنم على عدم التوقير . فإذا كان الأسلوب هو الرجل فلابد أن يكون هذا فولتير .

أنه يبدأ بريئا ، ولكنه سرعان ما ينم على العين النافذة البراقة :

« فى إقليم وستفاليا فى قصر أنبل البارونات ثندر — تن — ترونخ Thunder-ten-Tronckh ، عاش شاب حبته الطبيعة أحلى مزاج وأكرم خلق . . . وكان سديد الرأى صائب الحكم ، إلى جانب ما تحلى به من بساطة بعيدة عن التكلف كل البعد ، ولهذا السبب فيما أعتقد سمى « كانديد » . أن الخدام القدامى فى القصر أرتابوا فى أن يكون ابن أخت البارون من رجل طيب شريف من الجيران رفضت تلك الآنسة أن تتزوج منه لأنه لم يكن يستطيع أن يصل بنسبه إلى أكثر من واحد وسبعين شريفا . وكان غير أهل للزواج ، ولكنه واف بالمراد فى الفراش ، وكان يتولى تربية الولد الوسيم غير الشرعى وتعليمه الأستاذ بانجلوس Pangloss (الكثير الكلام) الذى يستطيع أن يثبت إلى حد الأعجاب أنه ليس ثمة نتيجة دون علة أو سبب ، وأنه فى أحسن هذه العوالم الممكنة ، فإن قصر البارون هو أفخم القصور ، وأن ميلادى أحسن بارونه يمكن وجودها (على الرغم من أنها تزن ٣٥٠ رطلا) وقال أنه يمكن إقامة الدليل على أنه لا يمكن أن تكون الأشياء على غير ما عليه لأن كل الأشياء خلقت لبعض الغايات ، فلابد أنها بالضرورة خلقت لا حسن الغايات . لا حظ مثلا أن الأنف شكلت للنظارة ولهذا نلبس النظارات ، وواضح أن الأرجل صممت للجوارب ولهذا نلبس الجوارب . . . أن هؤلاء الذين يؤكدون أن كل شىء صحيح حق ، يخطئون التعبير ، وجدير بهم أن يقولوا أن كل شىء هو أفضل شىء » .

أن كانديد « أنصت فى أنتباه شديد وآمن ضمنا » لأن الآنسة كونيجوند أبنة البارون كان وأضحا أنها أحسن وأجمل مخلوقة يمكن وجودها . وتجذبه إلى حبها ويقع فى شراك غرامها ، ويوسعه البارون ضربا ويطرده من القصر .

ويجوب كانديد الآفاق ، ويأسره ضباط التجنيد ، ويرغمونه على اللحاق بالجيش البلغارى (هنا يعود فولتير بذاكرته إلى الجيش البروسى) « وهنا جعلوه ينعطف يمينا ويسارا وينزع بندقيته ثم يعيدها ويصوبها ويطلق

النار ويسير . وجلدوه ثلاثين ضربة بالعصا » أنه يشهد المعركة ثم يتخلى عنها ، ويلتقى بالأستاذ بانجلوس الذى كاد أن يفقد آخر جزء فى أنفه ، وعما قريب سيفقد أحدى عينيه رأحدى أذنيه لا فراطه فى الأقتراب من البغى الجميلة « باكت » التى أصابها داء عضال عن طويق العدوى من أحد الأخوة الفرنسيسكان العلماء كورد ليبه ، وكان قد انتقل إليه هذا المرض عن طريق العدوى من كونتيسة عجوز كانت قد أصيبت به من أحد قواد الفرسان الذى نقله عن مركيزة نسبته إلى أحد الغلمان كان قد أصيب به بالعدوى من أحد اليسوعين . وكان المرض قد انتقل إلى هــذا الأخير من أحد رفاق كرستوفركولمبس(٣٢) .

وتحطمت سفينة كانديد وبانجلوس بالقرب من لشبونه ، ووصلا إلى الشاطىء ساعة حدوث الزلزال ، وكتب لهما البقاء على قيد الحياة ، ولـكن محكمة التفتيش تقبض عليهما بتهمة الهرطقة ، ويعدم بانجلوس شنقاً . أما كانديد فيتمكن من الهرب بمعونة كونيجوند التى كان الجنود قد اختطفوها ثم بيعت لأحد اليهود ، ثم بيعت مؤخراً لأحد رؤساء محكمة التفتيش . وتمكن كانديد وكونيجوند من الهرب بمساعدة سيدة عجوز أخرست شكاواهما بقولها أنها كانت على وشك أن يلتهمها الأتراك الذين كانوا يتضورون جوعا فى حصار آزور . وكانت قد وقعت أسيرة فى أيديهم ، ولكن برحمة من القدر نصف الأعمى بدأوا بقطع أحد ردفى كل أمرأة يمكن العثور عليها . وانتهى الحصار قبل المضى فى التجربة . وتختم السيدة العجوز كلامها بقولها « كفا الآن عن النوح والتوجع لبؤسكما وتعاستكما ، وابتهجا لأنكما تستطيعان الجلوس على ردفيكما كليهما » .

ويعبران المحيط الأطلنطى على أمل أن تكون الدنيا الجديدة أقل قساوة من القديمة . وفى يونس أيرس يستولى قائد الموقع على كونيجوند ويختص بها نفسه ويأمر بابعاد كانديد ، فيدخل المستعمرة اليسوعية فى باراجوى ويجد هناك شقيق كونيجوند الذى يهاجمه لمجرد تجاسره على التفكير فى الزواج

منها ، فيرديه كانديد قتيلا ، ويستأنف تجواله وحيدا بائسا ؛ حتى يصل فجأة فى واد منعزل فى بيرو إلى « الدرادو » حيث يكثر الذهب إلى درجة لا يقدر فيها أحد قيمته . وهى أرض لا يوجد فيها مال ولا سجون ولا محامون ولا كهنة ولا أى صراع اقتصادى . ويعمر أهلها السعداء لمائتى عام ، وليس لهم ديانة الاعبادة بسيطة لإله واحد . ويحمل كانديد بعض الذهب ويغادر المكان ، ولا يزال قلبه يهفو إلى كونيجوند . ويبحر عائداً إلى أوربا ويصل إلى بور تسموث ليجد من فوره أن أمير البحرين Byng قد أعدم رميا بالرصاص لأنه خسر معركة . ويقول مارتن صديق كانديد الجديد أنهم يعتبرون من الحكمة فى هذه البلاد أن يقتلوا أحد أمراء البحر بين الحين والحين ليستحثوا همم الآخرين ويشجعوهم[٣٣] .

وعلم كانديد أن كونيجوند فى البندقية فيستقل السفينة إلى إيطاليا ويكتئب ويحس بالضيق والحزن حين يسمع عما تعانى البغايا . ويستمع إلى غناء أصحاب الزوارق فى فينيسيا ويخلص إلى أنه قد وجد بعض أناس سعداء . ولكن مارتن ينتهر بقوله « أنت لا تراهم فى بيوتهم بين زوجاتهم وأطفالهم . أن للأزواج ما يشغل بالهم ويحزنهم ، ولأصحاب الجندولات (الزوارق) ما يقلقهم كذلك . حقاً أن صاحب الزورق فى الجملة أسعد حظا من الدوج ، ولكنى أعتقد أن الفرق بينهما طفيف لا يستحق التفكير فيه[٣٤] .

إن كونيجوند ليست فى البندقية . إنها فى الأستانة ويهرع إليها كانديد ليجد أنها باتت الآن أمة عجوزا شوهاء . ومع ذلك يحررها ويتزوجها . ويلحق بالجلوس الذى لم تقض عليه محكمة التفتيش تماماً بتلميذه . ويستأنف دفاعه عن التفاؤل . ويلتقون برجل سعيد تقريباً فيرحب بهم ويقدم لهم فاكهة وجوزا من غرس البيت . ويسأله كانديد « لأبد أن لك ضيعة كبيرة » فيجيب الرجل التركى ليس عندى إلا ٢٠ فدانا أفلحها مع أولادى . وإن عملنا ليباعد بيننا وبين ثلاث مساوى جسيمة : السأم والرذيلة والحاجة[٣٥] . ويقرر كانديد أن يحذو حذو هـــذا الرجل التركى » ويعمد

هو وكوينجوند وأصدقاؤهما إلى فلح قطعة من الأرض يزرعون فيها غذاءهم وتقوم المرأة ذات الردف الواحد وبغى صلح شأنها وصديقها الأخ الراهب بمهام كثيرة . إنهم يجدون فى العمل ويلقون فى عملهم نصباً ، ويأكلون ، ويتولاهم بعض الضجر ولكنهم إلى حد ما راضون قانعون . ويحاول بانجلوس أن يثبت أن هذا أفضل العوالم الممكنة ، حيث أن معاناتهم أدت بهم إلى هذا الهدوء والسلام . فيجيب كانديد بأن هذا كلام جميل ولكن علينا أن نزرع جنتنا . وتنتهى القصة القصيرة .

وكان فولتير قد حاول تضمين قصة المغامرة والحب شيئا من الهجاء اللاذع لما ذهب إليه ليبنتز من تبرير العدالة الإلهية فى وجود الشر ، ولتفاؤل بوب ، ولمساوىء الدين ، وحوادث العشق والغرام فى الأديار . والصراع الطبقى والفساد السياسى ، والحيل الشرعية والرشاوى القضائية ، ووحشية قانون العقوبات ، وجور الاسترقاق . وما تجره الحرب من خراب ودمار . وكانت قصة كانديد قد ألفت حين كانت حرب السنين السبع دائرة سجالا بين النصر والخراب والدمار والموت . وأطلق فلوبرت على تحفة فولتير خلاصة أعماله[٣٦] . ولم تخل كانديد من عيب معظم الهجاء وهو المبالغة السخيفة ، ولكن فولتير كان يعلم تمام العلم أن قليلا من الرجال يواجهون هذه السلسلة المريرة من الكوارث مثلما واجهها كانديد . ولابد أنه عرف كذلك أنه على الرغم من أنه حسن أن يزرع الإنسان حديقته وأن يتقن المرء عمله الفردى المباشر . فانه من الخير كذلك ألا تقتصر أرباحه على ما يعود عليه من حقله . أنه فلح حديقته فى فرنى على أحسن وجه . ولكنه ملأ أوربا صراخا واحتجاجا على إعدام كالاس .

٥ — ضمير أوربا

كان جان كالاس أحد أفراد جماعة صغيرة من الهيجونوت — البروتستانت الكالفنيين تركت فى تولوز بعد قرن من الاضطهاد ومصادرة الأملاك والتحول الجبرى إلى الكثلكة . ولم يستبعد القانون الفرنسى البروتستانت من الوظائف

العامة فحسب ، بل أعلن كذلك أنه لايسوغ لهم أن يشتغلوا محامين أو أطباء أو صيادلة أو قابلات أو باعة كتب أو صانعين أو بقالين . وإذا لم يكن قد سبق تعميدهم فليس لهم أية حقوق مدنية أيا كانت . وإذا لم يكن قد تم زواجهن على يد قسيس كاثوليكى كان زواجهم باطلا ، وكأنما يعيشون مع خليلات لاحليلات ، واعتبر أبناؤهم غير شرعيين(٣٧) والخدمات والقداسات البروتستانتية محظورة . وكان الرجال الذين يحضرونها يعاقبون بارسالهم للتجديف مدى الحياة . أما النساء فكان عقابهن السجن مدى الحياة . وعقاب الكهنة الذين يقيمون مثل هذه القداسات الاعدام . ولم تكن هذه القوانين مطبقة تطبيقا صارما فى باريس أو قريبا منها ، وتفاوتت صرامة هذه القوانين تبعا للبعد عن العاصمة .

وكانت الاحقاد الدينية حادة بصفة خاصة فى جنوب فرنسا . وكان الصراع بين الكاثوليك والهيجونوت عنيفاً لا هوادة ولا رحمة فيه . وكانت الفظائع التى ارتكبها الطرفان لاتزال حية فى الأذهان . وكان الكاثوليك المنتصرون قد قتلوا فى تولوز فى ١٥٦٢ ثلاثة آلاف من الهيجونوت ، كما حكم برلمان تولوز على مائتين آخرين بالتعذيب حتى الموت(٣٨) . وأحيا كاثوليك تولوز فى كل عام ذكرى هذه المذبحة فى احتفالات شاكرة ومواكب دينية مهيبـــة . وطافت نقابات المهنيين ومختلف طبقات النبلاء ورجال الدين وجماعات « النادمين البيض والسود والرماديين » بشوارع المدينة فى هيبة وجلال حاملين مخلفات رهيبة : جمجمة رئيس أساقفة تولوز الأول ، قطعة من ثوب العذراء ، وعظام أطفال قتلوا بمناسبة أسطورة هيرود « قتل الأبرياء » . وكان من سوء حظ كالاس أن تكون السنة القادمة هى ذكرى مرور مائتى عام على أحداث ١٥٦٢ .

إن برلمان تولوز الذى كان قوياً مسيطراً فى لنجدوك كما كان برلمان باريس فى وسط فرنسا ، كان يتحكم فيه الجانيسنيون — أى أنه برلمان كاثوليكى مع نزعة قوية إلى صرامة الـكلفنيه وتزمتها وكآبتها . ولم يدخر وسعاً فى إثبات أنه أشد تمسكاً بالكثلكه من اليسوعيين أنفسهم . وفى ٢ مارس

١٧٦١ حكم بالاعـــدام على الراعى الهيجونوتى روشيت لإقامته قداساً بروتستانتيا ، كما حكم بالاعدام على ثلاثة رجال من كومت دى فوا حاولوا تخليص روشيت من أيدى الشرطة[٣٩] . وفى ٢٢ مارس أمر بتعذيب واعدام صاحب متجر بتهمة قتله إبناً له عرض أن يعتنق المذهب الكاثوليكى .

وإنصافاً للمتعصبين ينبغى القول بأن نظم العقيدة المسيحية عند الكلفنيين وضعت أساساً لاعتقادهم بأنه من المرخص للوالد أن يقتل الابن العاق : وفى الأوقات التى كان القانون لايزال فيها ضعيفاً . والأسرة فيها هى المصدر الرئيسى أو الوحيد تقريباً للنظام والانضباط . منحت معظم المجتمعات الآباء حق إعدام أبنائهم أو الابقاء عليهم . ولابد أن شيئاً من هذا القانون الأبوى كان يعتمل فى ذهن كلفن حين كتب « إن الرب يأمر بقتل الأبناء العاقين لآبائهم[٤٠]. وأشار كلفن إلى سفر التثنية (الاصحاح ٢١ : الآيات ١٧ — ٢١) وإلى إنجيل متى (الاصحاح ١٥ : الآيات ٤ — ٦) إن هذه الآيات على أية حال تبيح للاباء أن يتهموا الابن المعاند أمام شيوخ مدينته ، الذين يمكنهم حينئذ أن يحكمو باعدامه (يرجمونه بالحجارة حتى يموت) . ولكن الكاثوليك المهتاجين فى جنوب فرنسا إرتابوا فى قدرة الهيجونوت على اللجوء إلى شيوخ المدينة ومن ثم يأخـــذون تطبيق هذا القانون القديم على عاتقهم هم أنفسهم .

ويجدر بنا أن ننظر من خلال هذه الخلفية الكئيبة القاتمة إلى قضية جان كالاس .

أنه كان تاجر ملابس كتانية . وكان له مخزن فى الشارع الرئيسى فى تولوز حيث أقام لمدة أربعين عاماً . وكان له ولزوجته أربعة أبناء وبنتان واحتفظوا طيلة ثلاثين عاماً بمربية كاثوليكية لاولادهم ، هى جين فنيير حتى بعد أن حولت أحد الأبناء [illegible] لويس إلى الكثلكة . وأقام لويس آنذاك فى شارع آخر تلميذاً صناعياً يتقاضى من أبيه راتباً بانتظام . واشتغل الابن

الأصغر ، دونات ، تلميذا صناعياً فى نيم وعاش الابنان الآخران : بيير ومارك أنطوان مع والديهما . وكان مارك أنطوان ، وهو أكبرهما سناً ، قد درس القانون ، ولكنه حين تهيأ للاشتغال به وجد أن كل الأبواب موصدة إلا أمام الكاثوليك . وحاول أن يخفى مذهبه البروتستانتى ؛ وأن يحصل على شهادة بأنه كاثوليكى ولكن كشف أمره . وما كان له إلا أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : إماأن يتخلى عن مذهبه البروتستانتى أو يضيع دراسة القانون هباء . واستبد به التفكير وعراه الاكتئاب ، وانغمس فى لعب الميسر والشراب وكان يحب أن يعيد على مسامع الناس مناجاة هملت للانتحار[٤١] .

وفى ١٣ اكتوبر ١٧٦١ إجتمعت أسرة كالاس فى دارها فوق المخزن . وكان جوبير لافاييس ، وهو أحد أصدقاء مارك انطوان ، قد حضر لتوه من بوردو وقبل دعوة الوالد لتناول العشاء . ونزل مارك انطوان إلى المتجر وتساءل بيير ولافاييس عن السبب فى عدم عودته ، فنزلا يستطلعان الأمر فوجداه متدلياً من قضيب كان قد وضعه بين عضادتى الباب . فأنزلاه ونادياً على الوالد واستدعيا طبيباً وحاول الجميع إنقاذه ولكن الطبيب أكد وفاته .

وهنا ارتكب الوالد خطأ جسيم . لقد عرف إن هناك قانوناً نافذ المفعول يقضى بأن يجر المنتحر عاريا فى شوارع المدينة . وأن يرجمه الأهالى بالطين والحجاره ثم يشنق وتصادر أملاكه للدولة . وتوسل الوالد إلى أسرته وحاول إقناعها بالقول بأن الوفاة طبيعيه[٤٢] وفى نفس الوقت كانت صيحات بيير واستدعاء الطبيب قد أدت إلى احتشاد جمع من الناس أمام باب الحانوت . وجاء الضابط واستمع إلى القصة التى رويت له . ورأى الحبل وشاهد الأثر الذى تركه فى عنق الرجل الميت . وأمر الأسرة ولافاييس وجين فنيين بالشخوص إلى دار البلدية . وهناك احتجزوا فى زنزانات مستقلة . وفى اليوم التالى سئل كل منهم فأقروا جميعاً أن الوفاة غير طبيعية وأكدوا أنه إنتحار . ولكن مدير الشرطة أبى أن يصدقهم ؛ واتهمهم بقتل مارك انطوان حتى

تحولوا بينه وبين الارتداد إلى الكثلكة . وأقر الاتهام الأهالى وكثير من أعضاء برلمان تولوز ، وأعمت حمى الانتقام بصائر الناس .

قد يكون من الصعب الآن أن يصدق أحدنا أن يعهد والد إلى قتل إبنه ليحول دون تغيير مذهبه الديني ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أننا نفكر تفكيراً تغلب عليه النزعة الفرديه . وبعد قرنين من الزمان تدهورت فيهما العقيدة الدينية . وفكر أهل تولز مجتمعين كجمهور ، والجماهير قد تشعر ولكن لاتفكر ، واشتدت صورة الغضب وحمى الانتقام نتيجة احتفال أقامه « النادمون البيض » فى كنيستهم ، وعلقوا فوق نعش خال هيكلا عظميا يحمل فى إحدى يديه نقشاً يدل على « تجنب الهرطقة » وفى الأخرى سعفاً يرمز إلى الاستشهاد ، وتحت هذا إسم « مارك » انطوان كالاس » « واقترضوا أن الشاب لم ينتحر فدفنوا الجثة باحتفال مهيب فى كنيسة سان ستيفن . وعبثا احتج بعض رجال الدين على أن هذا استباق للحكم فى قضية القتل[٤٣] .

وجرت محاكمة آل كالاس أمام الاثنى عشر قاضيا فى محكمة تولوز البلدية . وصدرت مذكرة تحذير تتلى فى ثلاثة أيام أحد متوالية فى كل كنيسة تدعو للأدلاء بالشهاده كل من يعرف شيئا عن ظروف الوفاة . وتقدم للشهادة عدة أشخاص وشهد أحد الحلاقين بأنه سمع فى تلك الليلة المشئومة صراخا من بيت أسرة كالاس : آه يالهى أنهم شنقونني « وادعى آخرون أنهم سمعوا مثل هذه الصيحات . وفى ١٠ نوفمبر ١٧٦١ إدانت محكمة تولوز البلدية جان كالاس وزوجته وأبنه بيير ، وأصدرت حكما بأعدامهم شنقا ، وحكمت على لافاييس بالتجديف فى المراكب الشراعية ، كما حكمت على جين فنير بالسجن لمدة خمسة أعوام . وكانت المربية الكاثوليكية قد أقسمت اليمين على براءة مخدوميها البروتستانت .

واستؤنف الحكم أمام برلمان تولوز الذى عين هيئة من ثلاثة عشر قاضيا استمعوا إلى ثلاثة وستين شاهداً آخرين . وإستند كل الشهود إلى الشائعات واستمرت المحاكمة ثلاثة أشهر إحتجزت فيها أسرة كالاس ولا فاييس منفردين

وأدان الحكم النهائى الوالد فقط . ولم يستطع أحد أن يوضح كيف تسنى لرجل فى الرابعة والستين أن يتغلب دون مساعدة على أبنه الناضج المكتمل النمو ويشنقه . وأملت المحكمة أن يعترف كالاس تحت ضغط التعذيب ، ولكم من مرة نصحوه بالأعتراف ، وكم من مرة أكد أن مارك أنطوان إنتحر . وبعد راحة مدتها نصف ساعة خضع للتعذيب الشديد الاسثنائى حيث صبوا فى حلقه نحو « جالونين » من الماء ولكنه أصر على أنه برىء . ثم صبوا فى حلقه عنوه جالونين آخرين حتى انتفخ جسمه إلى ضعف حجمه الطبيعى . ولكنه ظل مصرا على براءته فسمح له بالتخلص من الماء ، فأخذوه إلى ميدان عام أمام الكاتدرائية ووضع على صليب وبأحدى عشرة ضربة من قضيب حديدى هشم الجلاد أطرافه فى موضعين وأعلن الرجل براءته ، وهو يهيب بيسوع المسيح لنجدته ؛ وبعد ساعتين من الآلام المبرحه شنق ثم شدوا جثمانه إلى خازوق وأحرق (١٠ مارس ١٧٦٢)[٤٤] .

وأطلق سراح المسجونين الآخرين . ولكن الدوله صادرت ممتلكات كالاس . وأسرعت الأرملة وبيير إلى مأوى خفى فى مونتوبان وأرسلت البنتان إلى ديرين مختلفين . ولما رأى دونات أنه مهدد بالخطر فى نيم هرب إلى جنيف . وإذ سمع فولتير بالمأساة دعا دونات إلى ملاقاته فى لى دليس فى ٢٢ مارس وكتب فولتير إلى داميلافيل « سألت دونات إذا كان أبوه وأمه من ذوى الطبع الحاد ، فأجاب أنهما لم يضربا أحدا من أبنائهما قط . وأنه ليس ثمة آباء أشد منهما حناناً وتسامحا[٤٥] . وإستشار فولتير تاجرين من جنيف كانا قد أقاما مع كالاس فى تولوز ، فأكدا صدق ما قال دونات . وكتب إلى بعض الأصدقاء فى لنجدوك فأجاب الكاثوليك والبروتستانت جميعهم بأن جريمة الأسرة كانت فوق أى شك معقول[٤٦] وأتصل فولتير بالأرملة فبعثت إليه برد واضح فيه صدقها واخلاصها كل الوضوح ، إلى حد أنه حفزه إلى العمل والتصرف . فأهاب بالكاردينال دى برينس . ودارجنتال ودوقة دى أنفيل ومركيزة دى نيقولاى والدوق دى ڤيللار والدوق دى ريشيليو ليتوسلوا

إلى وزيرى الملك شوازيل وسانت فلورتين ليأمرا باعادة النظر فى المحاكمة . والحق دونات بأسرته وأحضر بيير كالأس إلى جنيف وأقنع مدام كالاس بالأقامة فى باريس حتى يكون من الميسور سؤالها والرجوع إليها . واستخدم محامين ليشيروا عليه بما يجب إتخاذه من إجراءات فنية قانونية فى القضية . ونشر كتيبا تحت عنوان « الوثائق الأصلية فى وفاة السيد كالاس[٤٧] » ، واتبعه بنشرات أخرى . وأهاب بسائر الكتاب أن يسخروا إقلامهم لايقاظ ضمير أوربا وأثارة الشعور فيها . وكتب إلى داميلافيل « أحتج ودع الأخرين يحتجون على قضية أسرة كالاس ، أرفعوا عقيريتكم بالاحتجاج على التعصب[٤٨] » كما كتب إلى دالمبير « أرفع صوتك فى كل مكان ، إستحلفك بالله من أجل آل كالاس ضد التعصب . إنهم فقدوا اعتبارهم نتيجة أتهامهم بهذا الجرم الشائن . وهذا هو سبب شقائهم وتعاستهم ، وحث على التبرع بالأموال لسد نفقات هذه الحملة التى تحمل الجزء الأكبر منها حتى هذه اللحظة . وأنهالت عليه التبرعات من كل جانب ، ومن ملكة انجلترا وإمبراطورة روسيا وملك بولنده . ووافق محام لامع من باريس على إعداد القضيه لرفعها إلى مجلس الدولة دون أن يتقاضى أجرا . وقصدت بنات كالاس إلى باريس للحاق بوالدتهن . وحصلت أحداهن على رسالة من راهبة كاثوليكية تستدر العطف على آل كالاس[٥٠] وفى ٧ مارس ١٧٦٣ أستقبل وزراء الملك الأم وبناتها . واجتمع الرأى على ضرورة نظر القضية من جديد . وصدر الأمر باحضار كل الوثائق والمستندات المتعلقة بالموضوع من تولوز .

ولكن قضاة تولوز لجأوا إلى مائة حيلة للابطاء فى جمع الوقائق واحالتها. وفى أثناء ذلك الصيف كتب فولتير ونشر بحثه الهام « رسالة عن التسامح » ورغبة منه فى إزدياد أقبال الناس عليها وأفتتانهم بها كتبها بأسلوب يتسم باعتدال يثير الدهشة والعجب . أنه أخفى أنه المؤلف ، وتحدث حديث رجل مسيحى تقى متمسك بالدين مؤمن بالخلود ، وامتدح أساقفة فرنسا على أنهم سادة مهذبون ويفكرون ويعملون بشكل نبيل يتناسب مع شرف محتدهم[٥١].

وزعم أو تظاهر بأنه يرتضي المبدأ الذى يقول بأنه « لاخلاص بغير الكنيسة[٥٢]. ولم تكن الرسالة موجة إلى الفلاسفة بل إلى رجال الدين الكاثوليك أنفسهم ، ومع ذلك لم تخل من الجرأة والتهور لأنه كثيراً ما نسى قراءه .

وبدأ فولتير رسالته بالحديث عن محاكمة كالاس وإعدامه وعرض تاريخ التسامح وبالغ فى الكلام عنه فى حالة اليونان ورومه . واستبق جيبون فى محاولة إقامة الدليل على أن اضطهاد المسيحين للهراطقة فاق بمالا يقاس اضطهاد الرومان للمسيحين حيث كان الهراطقة « يشنقون أو يغرقون أو تحطم أجسامهم فى عجلة التعذيب أو يحرقون بسبب حب الله[٥٣] » ودافع عن الأصلاح الدينى باعتباره ثورة لها ما يبررها ضد بيع البابوية لصكوك الغفران ، وهى البابوية التى حط من قدرها حوادث غرام البابا الأسكندر السادس وحوادث القتل التى أرتكبها قيصر بورجيا ابن البابا . وأبدى دهشته وشدة أستيائه عندما اطلع على محاولة حديثة لتبرير مذبحة سانت برثلميو (*) وسلم بأن البروتستانت كانوا كذلك غير متسامحين (**) وعلى الرغم من ذلك أوصى باباحة العبادة البروتستانتية فى فرنسا وعودة الهيجونوت المنفيين إليها.

« أنهم لا يطلبون الا حماية القانون الطبيعى لهم ، وإقرار صحة زواجهم ، والأطمئنان على أحوال أبنائهم وحقهم فى الوراثة عن آبائهم . وتحرير

(*) كان هذا فى « اعتذار لويس الرابع عشر » ١٧٦٢ بقلم القسيس كافيراك وقد استنكر كثير من رجال الدين الكاثوليك هذا الكتاب[٥٤] .

(**) وبما كان الوعاظ اللوثريون والكلفنيون قليلي الإتجاه إلى الشفقه والرحمة قساه القلوب غير متسامحين كذلك حين ينتقدون مخالفيهم بقسوة . إن القانون الوحشى الذى يحظر على أى كاثوليكى رومانى الإقامة فى بلاد معينة لأكثر من ثلاثة أيام لم يلغ بعد — رسالة عن التسامح المطلق فى أعمال فولتير ٢١ أ ص ٢٥٧ أنظر شجب فولتير لقانون الهيجونوت المتعصب البعيد عن التسامح فى مقالة « داود » فى القاموس الفلسفى .

أشخاصهم ، ولا يطالبون بكنائس عامة ولا بأى حق فى الوظائف البلدية ولا فى المناصب الرفيعة(٥٥) .

وعلى الرغم من هذا التحديد البارع عرف فولتير التسامح بقوله :

« هل لى إذن أن اقترح أن يكون كل إنسان حراً فى أتباع ما يمليه عليه عقله هو ، ويؤمن بما يوحى به إليه عقله المستنير أو المخدوع أيا كان ؟ وحقا شريطة إلا يعكر صفو النظام العام . . . وإذا كنت تصر على القول بأن عدم الإيمان بالديانة السائدة جريمة فانك بذلك تتهم المسيحين الاولين وأباءك الا قدمين وتبرر عمل من تلومهم على أضطهادهم وتعذيبهم . . . . وإذا كان ينبغى أن يكون للحكومة الحق فى معاقبة الناس على أخطائهم فمن الضرورى أن تتخذ هذه الأخطاء شكل الجرائم . ولن تتخذ الأخطاء شكل الجرائم إلا إذا ازعجت المجتمع وعكرت صفوه . وهى تقلق بال المجتمع إذا ولدت التعصب . ومن ثم يجدر بالناس أن يتفادوا التعصب ليكونوا جديرين بالتسامح »(٥٦) .

وختم فولتير حديثه بالتوجه إلى الإله « أنك لم تخلق لنا القلوب ليكره بعضنا بعضا ، ولا الأيدى ليقتل الواحد منا الآخر . فلنسلم بأن الواحد منا قد يعين الأخر على احتمال عبء الحياة المؤلمة الزائلة . نرجو الايستخدم الناس هذه الفروق الطفيفة فى الملابس التى تستر أجسامنا الضعيفة ، وفى الطرق التى نعبر بها عن أفكارنا وفى عادا تنا السخيفه وقوانيننا القاصرة . . . وباختصار هذه الاختلافات اليسيرة الموجودة بين الذرات المسماة بالناس . . . تقول نرجو إلا يستخدمها الناس علامات على الكراهية والاضطهاد المتبادلين ونرجو أن يتذكر الناس جميعا أنهم أخوة(٥٧) .

ولسنا ندرى أى نصيب أسهم به هـــذا النداء فى مرسوم التسامح الذى أصدره لويس السادس عشر فى ١٧٨٧ . وهل وصل إلى أسماع وزراء لويس الخامس عشر وحرك مشاعرهم . وعلى أية حال وبعد معوقات جمة

امتحن الله بها قلوب آل كالاس أعلن مجلس الملك فى ٩ مارس ١٧٦٥ أن أتهام جان كالاس بأطل ونطق ببراءته وحصل شوازيل من الملك على منحه قدرها ثلاثون ألفا من الجنيهات تعويضا للأرملة وأبنائها عن فقدممتلكاتهم. ولما وصلت أنباء هذا الحكم إلى فرنى بكى فولتير فرحا .

وفى الوقت نفسه (١٩ مارس ١٧٦٤) أمرت المحكمة البلدية فى Mazamet فى جنوب وسط فرنسا بأعدام بيير بول سيرفن Sirven وزوجته بتهمة قتل أبنتهما البزابث للحيلولة بينها وبين التحول إلى الكاثوليكية . وقضى الحكم بأن تشهد البنتان الباقيتان على قيد الحياة إعدام والديهما(٥٨) وكان ينبغى أن يتم هذا الاجراء بصورة رمزية لأن الأسرة كانت قد هربت إلى جنيف (١ إبريل) وكانت قد أبلغت فولتير بقصتها .

وكان سيرفن بروتستانتيا يقيم فى كاستر Castre على بعد نحو أربعين ميلا إلى الشرق من تولوز . وفى ٦ مارس ١٧٦٠ اختفت الأبنة الصغرى البزابث وعبثا حاول والداها البحث عنها . واستدعاهما أسقف كاستر وأبلغهما أنه كان قد أرسل الفتاة إلى أحد الأديار ، بعد أن أفضت إليه برغبتها فى أن تصبح كاثوليكية . وسمح القانون الفرنسى الذى سن فى عهد لويس الرابع عشر للسلطات الكاثوليكية بانتزاع الولد فوق سن السابعة من بين أحضان والديه ، ولو بالقوة عند الاقتضاء ، إذا طلب التحول إلى المذهب الكاثوليكى . وأستبدت الأوهام بالبزابث فى الدير وتحدثت إلى الملائكة ومزقت ملابسها عن جسمها وتوسلت أن تضرب بالسياط . وبأتت الراهبات فى حيرة من أمر البزابث ، وكيف يتصرفن معها ، فابلغن الأسقف بخبرها ، فأمر باعادتها إلى والديها .

وفى يولية ١٧٦١ أنتقلت الأسرة إلى سانت آبى St.Abby على بعد ٥٠ ميلا من كاستر . وهناك فى أحدى ليالى ديسمبر غادرت البزابث غرفتها — ولم تعد . وفى ٣ يناير وجد جثمانها فى بئر . ولم يكن أهالى سأنت آبى ميالين إلى أتهام أسرة سيرفن بقتلها ومثل ٤٥ شأهدا أمام المحكمة المحلية . فعبروا

جميعا بلا أستثناء عن رأيهم فى أن الفتاة إنتحرت أو أنها سقطت فى البئر بمحض الصدفة . وأرسل المدعى المحلى ترنكييه Trinquier مذكرة بالحادث إلى المدعى العام فى تولوز فأصدر إليه تعليماته بمواصلة السير فى القضية مع إفتراض أن سيرفن مذنب : وبدا هذا غير جائز لأن سيرفن كان متغيبا عن البلدة ليلة اختفاء اليزابث . كما كانت زوجته عجوزا واهنة . وكانت أحدى البنات حبلى . وكاد يكون من غير المعقول أن تكون أحدى هاتيك السيدات قد دفعت بالبنت إلى البئر دون أن يسمع لها صراخ . ومع ذلك فأن ترنكييه أصدر فى ٢٠ يناير أمرا بالقبض على سيرفن .

وعلم سيرفن أنه قبل ذلك بنحو شهرين كانت محكمة تولوز قد أصدرت حكما بأعدام جان كالاس بتهمة مماثلة بناء على: أدلة مشتبه فيها غير قاطعة . وإذا أستسلم للأعتقال والتحقيق والمحاكمة فإن قضيته ستعرض فى النهاية على برلمان تولوز ، ولما لم يكن يثق فى هذه المحاكم فأنه حمل زوجته وبناته فى أو اسط الشتاء عبر فرنسا وفوق جبال السفن Sevennes إلى جنيف على أمل أن يهب المدافع عن كالاس لمعاونته .

وكان فولتير لايزال منهمكا فى حملته من أجل كالاس فرأى من سداد الرأى ألا يشغل الذهن الفرنسى بقضيتين فى وقت معاً . وأسهم فى الأخذ بيد الأسرة التى كانت أملاكها قد صودرت ، ولكن عندما أقحمتها سلطات تولوز فى الموضوع استجابة لطلب وثائق مستندات قضية كالاس ، استأنف فولتير الهجوم بالبدء فى شن حملة من أجل سيرفن ، وعاود الكرة فى طلب المعونة والتبرعات التى جاءته من فردريك الثانى ملك بروسيا وكريستيان السابع ملك الدنمرك وكترين الثانية قيصرة روسيا وستانسلاس بونيا توسكى ملك بولندة . ورفضت محكمة مازامى طلب نسخة من أوراق التحقيق .

ويجدر بنا ألا نسهب فى إيراد تفاصيل الصراع فى هذه القضية فقد ظلت منظورة حتى نقض برلمان تولوز آخر الأمر فى ١٧٧١ حكم محكمة أول

دوجة وقضى ببراءة أسرة سيرفن وأعاد إليها أملاكها . وقال فولتير :

« لقد استغرق صدور الحكم باعدام هذا الرجل ساعتين واستغرق النطق ببراءته تسع سنوات[٥٩] .

وروع فولتير حين علم وسط هذا الجهد الكبير والشغل الشاغل أنه هو نفسه متورط فى قضية برزت فجأة فى آبفيل على شاطىء المانش . ذلك أنه فى ليلة ٨ — ٩ أغسطس شوه صليب خشبي (تمثال يمثل المسيح مصلوباً) على جسر بونت نيف على نهر السوم كما لطخ صليب آخر فى مقبرة سانت كاترين بالأوساخ والأقذار . وفزع رجال الدين والأهالى حين ما اكتشفوا تدنيس المقدسات على هذا النحو وقصد أسقف أميان إلى آبفيل وقاد وهو حافى القدمين موكباً اشترك فيه كل السكان تقريباً يلتمسون المغفرة من الرب . وقرىء فى كل الكنائس تحذير ينذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من كان فى مقدوره أن يلقى شيئاً من الضوء على هذا السر ولم يتقدم للأدلاء بما يعلم . واستمع القاضى دوفال إلى ٧٧ شاهداً وذكر بعضهم أنهم لاحظوا ثلاثة شبان يمرون بموكب عيد الجسد دون أن يركعوا أو يخلعوا قبعاتهم . وزعم آخرون إن عصابة من شبان آبفيل ، من بينهم ابن دوفال ، درجوا على السخرية من المواكب والاحتفالات الدينية والتغنى بأغان ماجنة[٦٠] . وفى ٢٦ أغسطس صدرت مذكرات إلى جيار أتاللوند وشيفالييه جان فرنسوا ليفبر دى لابار وإلى شاب فى السابعة عشرة يعرفه التاريخ باسم موازنل فقط . وهرب أتاللوند إلى بروسيا . وقبض على موازنل Moisnel ودى لابار . وحصل موازنل على عفو جزئى باعترافه بأنه هو والآخرون ارتكبوا هذه الأعمال المزعومة . واتهم دى لابار بأنه بصق على صور القديسين وبأنه أنشد ابتهالا بذيئاً اسمه «لامادلين» وبأنه أعاره القاموس الفلسفى» ورسالة إلى فراشه لفولتير ، وزعم أنه رأى أتاللوند يضرب الصليب فوق القنطرة ويلطخ الصليب بالأقذار فى المقبرة .

وكان لابار حفيد قائد أخنى عليه الدهر واعترف بأنه مهرطق . وروى أحد الشهود أن لابار عندما سئل لماذا لم يخلع قبعته أمام موكب عيد القربان أجاب بأنه « اعتبر القربان قطعة من الشمع ولم يستطع أن يفهم كيف يقدم أى إنسان على عبادة إله من العجين . وأقر لابار بأنه ربما قال شيئاً من هذا القبيل وأضاف إنه كان قد سمع شباناً آخرين يبدون شيئاً من مثل هذه المشاعر والآراء وإنه لاضير عليه من مثلها . كذلك وفتشت مكتبته فوجد فيها قاموس فولتير وكتاب هلفشيوس « الذكاء وكتب أخرى تهاجم الدين وفى أول الأمر نفى علمه بانتهاك أتاللوند للحرمات المقدسة فلما علم باعتراف موازنل بذلك عاد فأكد صحته . وكانت الجريمة النهائية التى اتهم بها دى لابار هى التجديف على الله والقربان المقدس والعذراء المقدسة والدين والوصايا الالهية وتعاليم الكنيسة والتغنى بأغنيتين مملوئتين بالتجديف اللعين البغيض ووضع علامات التقديس والاجلال على بعض الكتب السيئة السمعة وانتهاك حرمة علامة الصليب وسر تقديس النبيذ والبركات التى تمنحها الكنانسة والتى يقرها المسيحيون(٦١) .

وفى ٢٨ فبرأير ١٨٦٦ أصـــدرت محكمة آبفيل حكمها . وهو يقضى بتعذيب لابار واتا للوند عند اعتقالهما حتى يبوحا بأسماء شركائهما . كما يقضى عليهما بالتكفير علناً أمام الكنيسة الرئيسية فى المدينة ويقطع لسانهما من الجذور وضرب عنقيهما ثم إحراق جثتيهما حتى تصيرا رمادا . كما يجب إلقاء قاموس فولتير الفلسفى فى نفس النار . واستؤنف الحكم أمام برلمان باريس . وطالب بعض الأعضاء بتخفيفة . فرد العضو باسكييه بأن الأمر يحتاج إلى إنذار وعقوبة رادعة لاستئصال شأفة الكفر الذى يهدد الاستقرار الاجتماعى والأخلاقى . وحاول التدليل على أن المجرم الحقيقى هو فولتير ، ولكن حيث أنه لاسبيل أمام البرلمان للوصول إلى أس البلاء فيجب أن ينال تلميذه جزاءه بدلا منه . وصوت عضوان على إبدال الحكم وتخفيفه وصوت خمسة عشر عضوا على تنفيذه برمته . وفى أول يولية ١٧٦٦ نفذ

الحكم باستثناء قطع اللسان . ولقى لابار مصيره دون توريط أحد من أصدقائه . وفصل الجلاد الرأس عن الجسد بضربه مسددة تسديداً محكما مما نال إعجاب الجمهو واستحسانه[٦٢].

وصعق فونتير لصرامه العقوبة وأحس بأنها وحشية خليقة بمحكمة التفتيش الإسبانية فى أسوأ أحوالها ، وكتب أسقف أنسى Anncey إلى المحكمة الفرنسية يطلب تطبيق العقوبات الواردة فى إلغاء مرسوم نانت على يد فولتير الذى كتب إلى دالمبير يقول إن هذا الأسقف الوغد لايزال يقسم أنه سيرانى أحرق فى هذه الدار الدنيا أو فى الدار الآخرة . . . وتجنباً للاحتراق فانى أرقد فى مقدار من الماء المقدس[٦٣]. وخشية إستدعائه للمثول أمام برلمان ديجون إنتهز الفرصة لتجربة المياه المعدنية فى رول بسويسرا . ثم عاد إلى فرنى ليستأنف جهوده من أجل سيرفن .

واقترح آنذاك على دالمبير وديدرو أن يبرحا هم وسائر الفلاسفة فرنسا تحت جنح الليل : ويقيموا فى كليفز تحت حماية فردريك الأكبر . ولم يتحمسا كما لم يتحمس فردريك لهذه الخطة . وأقر الملك بأن عقوبة دى لابار كانت متطرفة فى صرامتها أما هو فكان يرى من جانبه الحكم على الشاب بقراءة « خلاصة اللاهوت »لتوماس أكويناس ، فهذا فى نظره مصير أسوا من الموت ، ثم استطرد فردريك ليزود فولتير بشىء من النصيحة :

« أن ما حدث فى آبفيل كان مأساة ولكن ألم يخطىء أولئك الذين عوقبوا ؟ هل لنا أن نهاجم مباشرة الحزازات والاحقاد التى غرسها الزمن فى أذهان الأمم ؟ وهل يجوز لنا إذا إردنا أن ننعم بحرية الفكر أن نحقر الديانة السائدة . أن الإنسان الذى لا يهدف إلى تعكير الصفو وأثارة القاق نادراً ما يضطهد . وتذكر قول فونتنل « إذا كانت يدى مملوءة بالحقائق فينبغى على أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها »[٦٤] .

أما فيما يتعلق بمستعمرة الفلاسفة المقترحة فى كليفز فإن فردريك عرض أن يبسط عليهم حمايته شريطة أن يحافظوا على السلام ويحترموا عقيدةالشعب.

وأضاف « أن الرجل المتوسط لاينبغى له أن يتنور . . . وإذا كان للفلاسفة أن يشكلوا حكومة فان الناس بعد ١٥٠ عاماً سيصطنعون خرافات جديدة، فيصلون لأصنام صغيرة أو للأجداث التى دفنت فيها رفات عظماء الرجال، أو يتضرعون إلى الشمس أويعمدون إلى شىء من مثل هذا الهراء . إن الخرافة موطن ضعف فى ذهن الإنسان وجزء لايتجزأ منه ولا ينفصل عنه، إن هذا الضعف كان موجوداً وسيظل موجوداً دائماً (٦٥)

وتابع فولتير حملته وأخرج « موجز عن موت شيفاليه دى لابار . وأرسل إلى أصدقائه الملكيين يطلب إليهم التوسط لدى لويس الخامس عشر ليرد إلى الشاب الميت اعتباره بشكل أو بآخره . ولما أخفقت هذه المساعى أرسل إلى لويس السادس عشر (١٧٧٥) رسالة عنوانها « صرخة الدم البرىء» . ولم ينقض الحكم على لابارقط ولكن رضيت نفس فولتير حين رأى ترجو يعيد النظر فى قانون العقوبات الذى أجاز إعدام شاب نتيجة أخطاء يبدو أنها تستحق عقوبة أقل من ضرب العنق . وتابع فولتير بنشاط يستحق التنويه به فى مثل سنه ، قيادة هذه الحملة الصليبية حتى آخر حياته ضد أفراط الكنيسة والدولة .

وفى ١٧٦٤ ظفر بإطلاق سراح كلود شومونت الذى كان قد حكم عليه بالتجديف فى السفن الشراعية لحضوره صلاة بروتستانية . ولما أطاحوا برأس كونت توماس دى لالى (١٧٦٦ فى باريس) القائد الفرنسى الذى هزم أمام الإنجليز فى الهند بتهمة الخيانة والجبن فإن فولتير تلبية لنداء ابن لالى ، كتب مجلداً من ٣٠٠ صحيفة تحت عنوان شذرات تاريخية عن الهند يبرىء فيه الكونت ، واستحث مدام دى بارى لتتوسط لدى لويس الخامس عشر وألغى الحكم ١٧٧٨ قبل وفاة فولتير بزمن قصير .

إن هذه الجهود الشاقة أرهقت المناضل الذى بلغ الثمانين . ولكنها جعلت منه بطل فرنسا المتحررة . وأورد ديدرو فى كتابه (ابن أخى رامو) أن فولتير بلغ الذروة فى كتابه محمد ، ولكنى كنت أفضل أن أدافع عن كالاس . (٦٦)

وقال بوماريه وهوقسيس بروتستانتى فى جنيف لفولتير — يبدو كأنك تهاجم المسيحية ولكنك تؤدى عمل الرحل المسيحى(٦٧) وأسهم فردريك على — الرغم من كل حرصه وحذره فى تقدير وإجلال الرجل الذى جعل من نفسه « ضمير أوربا » ، حيث يقول « كم هو جميل أن يسمع فيلسوف صوته لكل الناس من ميكنه . وأن يجبر الجنس البشرى الذى يتكلم هذا الفيلسوف باسمه القضاة على إعادة النظر فى الأحكام الجائرة وإذا لم يكن ثمة شىء آخر يتحدث بفضل فولتير ، فإن هذا وحده كاف ليحظى بمكان بين من أحسنوا إلى الجنس البشرى وأدواله أجل الخدمات(٦٨)

٦ — أقضوا على الرجس

فى غمرة هذا الصراع انقلبت مناهضة فولتير للمسيحية إلى بغض استمر عشر سنين من حياته (١٧٥٩ — ١٧٦٩) وكان قد بدأ باحتقار شبابى للمعجزات والأسرار والأساطير التى واجهت الناس ، ثم انتقل إلى تشكك ساخر فى المبادىء المسيحية مثل التثليث وتجسد المسيح (اتحاد الألوهية والناسوتية فيه) وآلام المسيح وموته (تكفيراً عن خطايا البشر) ، عما اعترف توماس أكويناس صراحة بأنه ليس فى متناول العقل ، أو أنه يشق على الفهم . ولكن حالات التمرد والثورة هذه طبيعية فى ذهن نشيط يحس بالنمو يسرى فى العروق وربما مرفولتير بهذه الحالات حتى أصبح رجلا يتغاضى كما يتغاضى العالم تغاضياً لطيفاً عن المعتقدات العزيزة على جماهير الناس المفيدة بوصفها عاملا مساعداً على النظام الاجتماعى والانضباط الخلقى . وفى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان رجال الدين الفرنسيون متسامحين نسبيا ، وأسهموا فى تقدم الاستنارة ولكن اتساع نطاق الكفر والترحيب الذى قوبلت به دائرة المعارف أزعجا رجال الكنيسة وانتهزوا فرصة ما داخل الملك من رعب بمحاولة دامين Damiens قتله (١٧٥٧) ليخرجوا من الدولة بمرسوم (١٧٥٩) ينص على أن مهاجمة الكنيسة جريمة عقوبتها الإعدام . ورأى الفلاسفة فى هذا إعلانا للحرب ، واحسوا بأنهم ليسوا منذ الآن فى حاجة إلى أن يدخروا أية مشاعر أو أية تقاليد فى شن الهجوم على ما بدا لهم أنه حماقة

قاتلة . ورأوا خلف جمال الديانة وشعرها دعاية تسخر الفن وتصادره ، وخلف مساندة المسيحية للفضيلة والأخلاق القويمة ألف مهرطق يحرقون وهم مشدودون إلى الخازوق ، كما رأوا أهل مدينة ألبي Albi (فى جنوب فرنسا) يسحقون فى حرب صليبية طاحنة ، ورأو أسبانيا والبرتغال تجللهما الكآبة والقتام بسبب محاكم التفتيش ، وفرنسا ممزقة منعزلة بما فيها من أساطير متنافسة ، ورأوا مستقبل الروح البشرية فى كل مكان خاضعاً للتجديد أو البعث المتكرر للخرافه ولأساليب الكهنة والاضطهاد والتعذيب ، وعليهم أن يكافحوا نكسة العصور الوسطى هذه فى أواخر سنى حياتهم .

وثمة ثلاثة أحداث جعلت من عام ١٧٦٢ نقطة تحول فى هذا الصراع المتعذر كبح جماحه . فبدا اعدام كالاس فى مارس وكأنه إعلان عن انتكاس فرنسا إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . إن السلطة المدنية هى التى تولت المحاكمة والتعذيب والقتل ، ولكن وراء خلفيـة من تعصب شعبى عام ولدتـه التعاليم والطقوس والكراهية الدينية . وفى مايو زود كتاب روسو « اميل القرن الثامن عشر » بإعلان قسيس سافوى لعقيدة الإيمان ، وهو ولو أن مؤلفه خصيم للفلاسفة جرد المسيحية من كل شىء تقريبا فيما عدا الإيمان بالله وبأخلاق المسيح . وبدا أن احراق الكتاب فى ١١ يونية فى باريس و ١٩ يونية فى جنيف وحد بين الكاثوليكية والكلفنية فى مؤامرة ضد العقل البشرى . وكان واضحا أن استنكار برلمان باريس لليسوعيين فى أغسطس نصر للفلاسفة ، كما كان أيضاً نصرا للجانسنيين الذين سيطروا على برلمانات باريس وتولوز وروان ، وإن تصرفات البرلمانات فى قضيتى كالاس ولا بار لتوضح أن الجانسنيين كانوا أعداء ألداء لحرية الفكر ، قدر عداوة غيرهم فى تاريخ فرنسا بأسره . وفى نفس الوقت نجد أن العداء بين البرلمانات والحاشية الملكية ونمو سلطان شوازيل فى الحكومة (١٧٥٨ — ١٧٧٠) . وهو من مشايعى فولتير — مهدا للفلاسفة الفرصة للمضى فى النضال مع التعرض لخطر أقل مما هو مألوف من جانب رقباء الدولة والشرطة ، ومن ثم أعدت الساحة لذروة الهجوم على المسيحية .

والآن يطلق فولتير النذير ويصيح بأعلى صوته غاضبا فى « إقضوا على الرجس » . وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة فى ١٧٥٩ ، واستخدمها منذ تلك اللحظة مئة مرة فى عدة صيغ مختلفة ، كما استخدمها أحياناً بمثابة توقيع [٦٩]. لقد اكتسب فولتير ابن الثمانية والستين عاما حيوية جديدة ونشاطا جديدا حين شبه نفسه بكاتو سنكس القنصل حين ختم خطابه أمام مجلس السناتو الرومانى بصيحته « حذار من قرطاجه » وكتب فولتير يقول « إنى مصاب بالمغص ، وأنا أعانى كثيرا ، ولكن تخف آلامى حين أهاجم الخزى والعار »[٧٠]. وفى حماسة شابة وثقة بالغة المدى نصب نفسه ونفرا من المعاونين المترددين لشن الحملة على أقوى نظام فى تاريخ البشرية .

وماذا كان يقصد بالرجس؟هل كان يريد القضاء على الخرافة والتعصب والظلامية (النزعه إلى تعويق التقدم وانتشار المعرفة) والاضطهاد ؟ أو أنه أخذ على عاتقه هدم الكنيسة الكاثوليكية ، أوكل مذاهب المسيحية ، أو الدين أى دين ؟ أغلب الظن ألا يكون هذا الأخير لأننا نراه مرة بعد أخرى وسط الحملة يعلن إيمانه بالتوحيد ، وفى بعض الأحيان فى لغة عامرة يتقوى فولتير . وفى القاموس الفلسفى عرف الديانة بطريق غير مباشر بقوله « إن كل شىء تقريبايتجاوز حدود عبادة كائن أسمى وإخضاع القلب لأوامره الأبدية هو خرافة[٧١]وقد يبدو أن هذا يرفض كل أشكال المسيحية فيما عدا مذهب الموحدين . إن فولتير نبذ تقريباً كل المبادىء المميزة فى المسيحية التقليدية — الخطيئة الأولى ، التثليث ، التجسد ، تكفير المسيح عن خطايا البشر ، والقربان ، وسفه « التضحية » من الله لله على الصليب أو من الكاهن فى القداس ، ومن ثم نبذ معظم أشكال البروتستانتية أيضا ، واعتبر الكلفنية عائقا فى سبيل التقدم ونشر المعرفة ، مثل الكاثوليكية . وصعق كهنة جنيف حين قال بأن كلفن مراوغ فظيع » ورأى أن فى مقدوره أن يعيش راضيا قانعاً فى ظل الكنيسة الرسمية كما كان قد رآها فى انجلترا . وكتب إلى دالمبير : « آمل أن تقضى على الرجس ، تلك هى النقطة الهامة . ويجدر أن نهبط بها

إلى ما هى عليه فى إنجلترا . وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت ، أو تلك هى أجل خدمة يمكن أن تؤديها للجنس البشرى » (٧٢) وقد نخلص من هذا إلى أنه قصد بالرجس الدين عامة ، بل الدين الذى قصد به نشر الخرافة والأساطير والتحكم فى التعليم والسيطرة عليه ، ومناهضة الانتقاض على الرقابة ، والأعتراض على الاضطهاد . وتلك هى المسيحية التى رآها فولتير فى التاريخ وفى فرنسا .

وهكذا أحرق كل الجسور من خلفه ، ودعا كل أفراد عصبته للحرب . « وكان المطلوب لدك الحصون خمسة أو ستة من الفلاسفة يفهم الواحد منهم الآخر ... لقد غرس دالمبير وديدرو وآل بولينجاروك وهيوم وأمثالهم بذور الحقيقة » (٧٣) ولكن بشكل مشتت تعوزه الخطة المتماسكة ، وعليهم الآن أن يتحدوا ، وسيكون هو على رأسهم ، وتلك قضية يسلم هو بها ، ويشير عليهم بخطة العمل فيقول : « اضرب وأخف يدك ... إنى آمل أن يستطيع كل من الإخوة أن يسدد بعض السهام إلى هذا المسخ دون أن يعلم أية يد صوبتها إليه (٧٤) إنى لأرجو أن يتسلل الإخوان إلى الأكاديميات ومراكز النفوذ وإلى الوزارة إذا أمكن ، إنهم ليسوا فى حاجة إلى تحويل الجماهير بل إلى تحويل الرجال ذوى السلطة الذين يمكنهم أن يأخذوا بزمام المبادرة . إن بطرس الأكبر غير روح روسيا ووجهها » . وكذلك حاول فولتير إدخال فردريك فى هذه الزمرة (٥ يناير ١٧٦٧) « مولاى إنك على حق تماما أن الأمير القوى الشجاع يستطيع بالمال والجنود والقوانين أن يحكم الناس دون عون من الدين الذى ما أقيم إلا ليضللهم ويخدعهم . إن جلالتكم تؤدون إلى الجنس البشرى أجل خدمة خالدة باقتلاع جذور هذه الخرافة المخزية ، ولا أقول من الرعاع غير الجدير بن بالتنوير ، الذين يتبعون أول ناعق ، وهم أهل للخضوع لأى سلطان ، ولكن أقول بين الناس المخلصين الأمناء ، بين الذين يفكرون والذين يريدون أن يعملوا فكرهم ..

وعليك أن تختبر عقولهم .. ولست آسف على شيء حين تدهمنى المنون إلا على أنى لن أتمكن من معاونتك فى هذه المهمة النبيلة » (٧٥) .

وسخر فردريك من سذاجة هذا الشيخ الهرم ،ولكن فولتير أصر وثابر ، مما كان له كما سنرى فيما بعد ، بعض الأثر على وزراء فرنسا والبرتغال وأسبانيا .

ورحب بأهوان أقل شأنا وكتب نصائح رسولية إلى بورد فى ليون ، وسرفان فى جرينوبل ، وبيير روسو فى بويون ، وأود بير فى مرسيليا ، وريبوت فى مونتوبان ، ومركيز دار جنس فى شارنت ، وإلى الراهب أودرا فى تولوز . وأطلق على هؤلاء جميعا وغيرهم اسم « الإخوة » ، وأرسل إليهم بالمـــادة والنداءات يستحثهم ويحفزهم حتى لا يغلب عليهم النعاس : « شنوا الحرب أيها الإخوة جميعا ببراعة على الرجس . إن كل ما يهمنى هو نشر الإيمان والحقيقة والنهوض بالفلسفة ، والقضاء عن الخزى والعار . اشربوا معى نخب أفلاطون (ديدرو) وامحوا الرجس . إنى أعانقكم أيها الإخوة جميعا .. إن صحتى تدعو إلى الإشفاق ..امحوا الرجس . إنى أحتضن اخوتى فى كنفوشيوس .. فى لوكر يشس ، فى شيشرون ، فى سقراط ، فى ماركوس أوربليوس ، فى جوليان ، وفى شيوخنا الإجلاء جميعا . إنى أمنح بركتى للإخـــوة جميعا . صلوا وارقبوا أيها الإخوة ، اقضوا على الرجس » (٧٦) .

وباتت الكتب الآن أسلحة وبات الأدب حربا . ولم تقتصر الأمور على دخول ديدرو ودالمبير وهلفشيوس وريناك وموريلليه وكثير وغيرهم بأقلامهم فى المعركة . ولكن فولتير الذى كان يحتضر دائما أصبح مستودعا حقيقيا للقذائف ضد رجال الدين ، وأخرج على مدى عشر سنين نحو ثلاثين كتيبا . ولم يكن يؤمن بفعالية المجلدات الضخمة فهو يقول : « أى أذى ينجم عن كتاب (الموسوعة مثلا) يكلف مائة كروان .. إن عشرين مجلدا من القطع الكبير لن يفجروا ثورة أبدا . إنها المجلدات الصغيرة السهلة الحمل القليلة

الثمن (من ذات الثلاثين سو) هى التى يخشى جانبها . ولو كان الأنجيل غالى الثمن (ثمنه ١٢٠٠ سسترس عملة رومانية قديمة) لمـا قامت الديانة المسيحية(٧٧) .

ومن ثم لم يخرج مجرد تواريخ وروايات ، بل نشرات وحكايات وعظات وتوجيهات وتعاليم دينية مفرغة فى قالب أسئلة وأجوبة ، وخطبا لأذعة ومحاورات ورسائل ونقدا موجزا للكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ، مما يسهل تداوله وانتشاره ويصيب الرجس بجراح ، وكان فردريك قد كتب إليه منذ زمن طويل :

« أنى لأتصور أنه فى مكان ما فى فرنسا نخبة منتقاة من ذوى العبقرية الرفيعة المتساوية ، ممن يكتبون معا وينشرون كتاباتهم تحت أسم فولتير . . . فإذا كان هذا الأفتراض صحيحاً فلسوف أصبح مؤمنا بالتثليث وابدأ فى رؤية ضوء النهار فى هـــذا السر الذى آمن به المسيحيون حتى الأن دون أن يفهموه(٧٨) .

ولكن فولتير لم يكن يكتب الآن تحت أسم فولتير ، بل استخدم أكثر من مائة من مختلف الأسماء المستعارة ، بل أحيانا ، فى مرح شيطانى ، نسب هجماته العنيفة إلى رئيس أساقفة كنتربرى ، أو رئيس أساقفة باريس ، أو إلى قسيس أو كاهن أو راهب ، ورغبة فى أبعاد كلاب السماء عن طريقه خص نفسه بأحدى قذائفه . وكان يعرف أصحاب مطابع باريس وأمستردام ولأهاى ولندن وبرلين ، فاستخدمهم فى حملته . وعن طريق داملافيل وغيره ، وكان يزود باعة الكتب مجانا بهذه النشرات ، وكانوا يبيعونها بأثمان رخيصة . وهم بذلك يغامرون . وأشتد العود ونما الغرس .

ونشر آنذاك فى ١٧٦٢ « عظة الخمسين » التى كان قد الفها قبل ذلك بعشر سنين على الأقل ، وقرأها على فردريك الأكبر فى بوتسدام ، وكانت أول هجوم مباشر على المسيحية . وبدأت بداية بريئة كل البراءة : « اجتمع كل يوم أحد فى مدينة تجارية آهلة بالسكان ، خمسون شخصا متعلما تقيا

متعقلا (الكويكرز فى لندن) فأدوا الصلاه وألقى أحدهم بحثا « ثم تناولوا طعامهم ، وأخذوا قدرا منه للفقراء ، وتناوب كل منهم الرياسة ، وأم الصلوات » وألقى الموعظة وهذه هي أحدى الصلوات وأحدى العظات :

« يا إلهنا ، يارب السموات ورب النجوم ، احفظنا بمنأى عن الخرافة . وإذا أسأنا إليك بتضحيات لا تليق بك فامح اللهم هذه الأسرار المخزية ، وإذا إنتقصنا من قدرك بهذه الخرافات الحمقاء ، فلتهلك الخرافات إلى الأبد . . . فليعش الناس ويموتوا فى عبادة إله واحد ، إله لم يكن ليولد أوليفنى[٧٩] » .

وحاولت العظة التدليل على أن الرب الذى ورد ذكره فى التوراة رب فخور حقود غضوب قاس قاتل ، لا يمكن لإنسان عاقل أن يعبده ، وأن داود كان وغدا منغمسا فى الشهوات سفاحا . فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هــذا الكتاب تنزيل من عند الله ؟ وكيف تسنى أن يأتى من الأناجيل اللاهوت المسيحى الذى لايصدق ، والعمل الفذ السهل اليومى الذى يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه والبقايا التى لا تحصى ، وبيع الغفران والعداوات والبغضاء والحريق فى الحروب الدينية ؟

« لقد قيل لنا إن الناس بحاجة إلى الأسرار ومن الواجب خداعهم وتضليلهم . أيها الأخوة ، هل يجرؤ أحد على العدوان على الإنسانية بهذا الشكل ؟ ألم يخلص آباؤنا (المصلحون) الناس من إحالة الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ، ومن الأعتراف المهموس به ، ومن صكوك الغفران ، ومن الرقى والتعاويذ ومن المعجزات الزائفة والتماثيل السخيفة ؟ ألم يتعود الناس الآن الأستغناء عن هذه الخرافات ؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض خطوات أبعد من ذلك . فالناس ليسوا ضعاف العقول كما هو مظنون ، أنهم يستطيعون فى سهولة ويسر أن يقروا عبادة حكيمة بسيطه لاله واحد .... أننا لانعمل على سلب رجال الدين ما وفرلهم سخاء أتباعهم ، بل أن كل ما نريده — حيث أن معظمهم يسخرون من الأباطيل التى يعلمونها — هو أن ينضموا الينا فى التبشير بالحقيقة . . . . وأى خير عميم لا يحصى يمكن أن يتأتى بسبب هذا التغيير الميمون[٨٠] !

أن هذا يرهقنا اليوم كل الأرهاق ، ولكنه كان مادة ثورية فى فرنسا القرن الثامن عشر . فـلا عجب إذن أن يصدره فولتير على زعم أن لامترى كان قد دبجه من قبل ، ولامترى فى عداد الأموات الآمنين .

وفى سنة ١٧٦٣ تحول المناضل إلى الدراما (المسرحيات) ، قصة قصيرة تافهة تحت عنوان « أبيض وأسود » ، وكتيب « أسئلة وأجوبة عن الرجل الأمين » يسرد فيه « ديانتة الطبيعية » ولكن عام ١٧٦٤ كان عاما بارزا ، فقد شغل فيه فولتير أصحاب المطابع « بأنجيل العقل » و « أختيار الديانة » (وهو طبيعة منقحة من كتاب جان مسلييه الملتهب) (العهد الجديد) ثم أحد أهم منشوراته وهو موجز القاموس الفلسفى (السهل الحمل) ولم يكن المجلد الضخم ذا الثمانمائة وأربع وعشرين صفحة ذات نهرين الموجود الآن ، أو الخمسة أو الثمانية مجلدات التى تملؤها « مجموعة أعماله » بل كان كتابا صغيراً يسهل الأمساك به أو أخفاؤه . إن إيجاز مقالاته وبساطة أسلوبه ووضوحه ، كل أولئك جعله فى متناول مليون قارىء فى كثير من البلاد .

وهذا إنتاج ضخم جدير بالتنويه لرجل واحد . وربما كان به ألف من الأخطاء ، ولكن المادة التى جمعت فيه ، والمعلومات التى تناولت كل فروع المعرفة تقريباً ، جعلت الكتاب واحدة من المعجزات فى تاريخ الأدب . وأى جد ومثابرة وأى هذر وأى إصرار وعناد فى هذا الكتاب : أن فولتير منهمك فى القيل والقال ، أن لديه ما يقوله فى كل شىء تقريباً ، ولديه دائما شىء لايفقد أهميته وتشويقه أبدا تقريبا . وهنا كثير من العبث والتفاهة والسفاسف أو السطحية ، وهناك بعض ملاحظات حمقاء (إن عقل أوربا أحرز تقدما فى المائة سنة الأخيرة أكثر مما أحرز العالم كله من قبل منذ أيام براهما وزرادشت) [٨١] . ولكن لن يتسنى لأحد أن يلتزم جانب العقل والحكمة فى ألف صحيفة ، ولم يكن أى إنسان بارعا متألقا دائما وهو يكتب هذا القدر الكبير من الصفحات . أنه أورد فيه دراسة أصول الألفاظ وتاريخها ، لأن فولتير مثل كل قارىء محب للاستطلاع ، وكانت تجاذب

نظره المحن التى قاستها الألفاظ والكلمات فى ترحالها عبر الزمان . وهنا فى مقال « سوء استخدام الكلمات » ثم فى مقال « المعجزات » نجد قاعدة فولتير الشهيرة « حدد ألفاظك » .

وقصد بالكتاب أساساً أن يكون مصنعاً لإخراج الحجج ضد المسيحية كما عرفها فولتير ، وهنا نجد مرة أخرى الأشياء التى لا يمكن تصديقها فى الكتاب المقدس ومافيه من سخافات وحماقات ومخازلا فى مقال «المتناقضات» وحده ، بل فى كل صحيفة تقريبا . من خول الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين انجيلا التى دونت فى القرن الذى تلا موت المسيح ، هى وحدها — أى الأناجيل الأربعة — معتمدة موحى بها من عند الله ؟ وأى سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داود الوغد عن طريق يوسف المزعوم الحامل . ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها ؟ وهل كان بولص الذى نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح ؟

ولم يرق القاموس الفلسفى للآباء الروحانيين فى مدينة جنيف . وفى ٢٤ سبتمبر ١٧٦٣ أمر مجلس الخمسة والعشرين النائب العام بأحراق أية نسخة تجدها منه . وفى ١٧٦٥ أصدر برلمان باريس أمراً شبيها بهذا ، وقد رأينا مصير الكتاب فى آبفيل (١٧٦٦) وأكد فولتير لسلطات جنيف أن القاموس من عمل مجموعة من الكتاب مجهولة تماماً لديه . وفى الوقت نفسه أعد مقالات إضافية لتلحق بالطبعات الأربع الأخرى التى طبعت سراً قبل نهاية ١٧٦٥ كما أدخل مادة جديدة إلى الطبعات الخمس الإضافية التى ظهرت قبل وفاته فى ١٧٧٨ . ورتب الأمور مع باعة كتب جنيف المتسترين ليمدهم مجاناً بأكبر عدد ممكن من النسخ يمكن توزيعه ، ومع الباعة على أن يتركوا نسخاً من هذا القاموس فى الدور الخاصة [٨٢] :

وتابع فولتير الحرب بلا هوادة فى ١٧٦٥ — ١٧٦٧ . وفى ١٧٦٤ كان

قد ترك نهائيا داره فى لى دليس فى مدينة جنيف التى باتت غير ملائمة لهرطقاته وضاقت بها ذرعا ، وكان لمدة نحو ثلاث سنوات لم يكد يبرح مكانه فى فرنى ، وكان فى كل شهر تقريبا يرسل إلى إحدى المطابع نشرة جديدة ضد « العار » وزعم كتيب Ouestions de zopata (مارس ١٧٦٧) أنه مجموعة أسئلة طرحها أمام لجنة من اللاهوتيين أستاذ اللاهوت فى جامعة سالا منكا فى ١٦٢٩ . وأعلن زاباتا عن شكوكه فى « نجم بيت لحم » وفى الإحصاء المزعوم « لكل الأرض » الذى أجراه أغسطس ، وفى قتل الأبرياء » وإغراء الشيطان ليسوع فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض . وأين كان يقع هذا التل العجيب ؟ ولم لم يف المسيح بوعده فى الحضور على متن سحابة فى قوة ومجد عظيم ، ليؤسس « مملكة الله » قبل أن ينقرض هذا الجيل ؟ (٨٣) ما لذى عوقه ؟ هل كان الضباب كثيفا إلى حد كبير ؟ (٨٤) ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك ؟ .. هل ألجأ من أجل تنويرهم وتهذيبهم ، إلى تعذيبهم العذاب العادى وغير العادى؟ أو ألا يكون من الأفضل أن أتجنب هذه المتاهات ، وأحض على الفضيلة ببساطة فقط ؟ (٨٥) والخاتمة .

« حيث أن زاباتا لم يتلق جوابا ، فإنه لجأ إلى التبشير بالله بكل بساطة. وأعلن إلى الناس أنه « أى الرب » هو والد الجميع ، وأنه هو الذى يثيب ويعاقب وهو الغفور . واستخلص الحقيقة من الأكاذيب ، وفصل الديانة عن التعصب .وعلم الفضيلة ومارسها ، وكان وديعا عطوفا متواضعا وأحرق فى بلد الوليد (فى أسبانيا) فى عام البركة ١٦٣١ (٨٦) » .

وفى مايو ١٧٦٧ عاد فولتير إلى الهجوم فى نشاط أكبر فى كتاب من مائة وخمسين صفحة « اختبار هام للورد بولنجبروك » . وهنا وضع حججه على لسان الرجل الإنجليزى المتوفى . ولكنه كان من المحتمل أن يرتضى بولنجبروك هذا العبء الثقيل . وفى نفس العام نشر فولتير « الساذج » ، وهى قصة لطيفة تقع فى مائة صفحة عن أمريكى فاضل بشكل لا يصدق

لحضروه إلى فرنسا من أمريكا، حيرته العادات الأوربية واللاهوت المسيحى. وفى ١٧٦٩ خرج كتيب « صيحة الأمم » وهو نداء إلى أوربا الكاثوليكية لتخلع نير سلطان البابوات المزعوم على الملوك والدول . وتابع الحملة فى نفس العام بكتاب جاد مدروس ولكنه مثير هو « تاريخ البرلمان » متهما هذه الهيئة بأنها مؤامرة من جانب الجانسنيين الرجعيين . وفى ١٧٧٠ — ١٧٧٢ أصدر تسعة مجلدات تحت عنوان أسئلة عن الموسوعة » وهى خليط من مقالات تشكل موسوعة رجل واحد . وهو أشد عداء للكاثوليكية وأقسى فى هجومه عليها من موجز القاموس الذى أسلفنا ذكره .

إن فولتير أخفى منشوراته عادة تحت أسماء أو عنوانات خداعة مضللة : « محاضرات فى تفسير العهد القديم ، رسالة إلى الرومان ، عظات الأب الجليل جاك روست ، محاضرات وعظات الكاهن بورن ، نصائح لأرباب الأسر . وساورت جمهور فرنسا المتعلم الظنون بأن فولتير هو المؤلف ، لأنه لم يكن يستطيع أن يخفى أسلوبه ، ولكن لم يثبت أحد ذلك ، وباتت هذه اللعبة المثيرة حديث باريس وجنيف ،وتردد صداها فى لندن وأمستردام وبرلين ، بل وفى فيينا ، ولم يحدث فى التاريخ أن لعب كاتب لعبة النمضية (أو الاختفاء) مع أعداء أقوياء مثل هؤلاء ، وبمثل هذا النجاح . وحاول مائة من الخصوم أن يردوا عليه ولكنه قارعهم الحجة بالحجة جميعاً ، وحارب فى قسوة ، وأحيانا فى خشونة وغلظة ، كما كان أحيانا مجحفا غير منصف ،وتلك هى الحرب . وكان مستمتعا فرحا بها، وحمى وطيس المعركة فنسى أن يموت .

والحق أن تفاؤلا غريبا غلب على فولتير ، الذى بدأ بعد « زلزال لشبونه » و « كانديد » وكأنه ينصح بالاستسلام لشرور الحياة التى لا سبيل لقهرها أو التغلب عليها . وراوده حلم فلسفة منتصرة على كنيسة متغلغلة فى حاجيات الناس . وإذا كان اثنا عشر من صيادى السمك الأميين قد أقاموا المسيحية ، فلم لا يستطيع اثنا عشر فيلسوفا أن يقضوا على تعاليمها وعلى محاكم

التفتيش فيها . وكتب إلى أحد الإخوة « عش سعيدا واقض على الرجس » وأكد أنهم سيقضون عليه [٨٧] . ألم يكن إلى جانب ملك وامبراطورة وعشيقة ملكية وكثير من الشخصيات اللامعة ؟ أنه تملق الحاشية وتودد إليها علنا أو سرا بمهاجمة برلمان باريس ، ونعم بعطف مدام دى بمبادور ومدام دىباري فيما بعد ، بل إنه كان يأمل فى إغضاء لويس الخامس عشر عنه . وكتب إلى دالمبير فى ١٧٦٧ « فلنبارك هذه الثورة السعيدة التى نشأت فى عقول كل المخلصين والأمناء من الرجال فى الخمسة عشر أو العشرين عاما الأخيرة ، إنها فاقت كل ما كنت أؤمل فيه) [٨٨] ألم يتنبأ بها ؟ ألم يكتب إلى هلفشيوس فى ١٧٦٠ (إن هذا القرن بدأ يشهد انتصار العقل) [٨٩] .

٧ — الدين والعقل

إن فولتير لم يكن من السذاجة بحيث يتصور أن الدين اخترعه القساوسة والكهنة ، بل على النقيض من ذلك كتب فى القاموس الفلسفى : (إن فكرة الإله مستمد من الشعور ،وذاك المنطلق الطبيعي الذى يتكشف بتقدم العمر ، حتى في أغلظ البشر قلبا . وشوهدت أكثر آثار الطبيعة ادهاشا — وفرة المحصول والجدب والأمحال والجو المعتدل والعواصف ، المزايا والبلايا — كما كان الإحساس بيد سيد خارق للطبيعة ... إن الملوك القدامى استخدموا في زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم [٩٠]. وأفردت كل جماعة إحدى القوى الخارقة لتكون إلها حارسا لها ، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القرابين ، على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وآلهتها ، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة ، ولكن التفاسير والتأويلات والطقوس كانت من عمل الكهنة . وبمرور الزمن لعب الكهنة على خوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم . واقترفوا كل ضروب الخداع واللؤم ، حتى إلى حد إعدام (المهرطقين) وقتل جماعات بأسرها ، والقضاء على الأمم تقريبا . وانتهى فولتير إلى القول : « لقد

كرهت الكهنة ، وأنا الآن أبغضهم ، وسأظل أبغضهم إلى يوم الحساب[٩١]» .

أن فولتير وجد كثيراً مما يمكن قبوله فى الديانات غير المسيحية ، وبخاصة فى الكونفوشية (وهى ليست ديانة) ، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير فى اللاهوت المسيحى . « أن لدى مائتى مجلد فى هذا الموضوع ، والأدهى من ذلك أنى قرأتها وكأنى أقوم بجولة فى مستشفى للأمراض العقلية[٩٢] . » ولم يضيف إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس . وإنما كانت مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع . ولا يزال أثر هذا علينا واضحا . وفى جرأة وإندفاع أكثر ممن جاءوا بعده ، أكد مرارا سخف طوفان نوح وعبور البحر الأحمر ، وذبح الأبرياء وغير ذلك . ولم يكل ولم يمل قط من شجب قصة « الخطيئة الأولى » ونظريتها . وأقتبس فى سخط وغضب قول سانت أو غسطين « أن المذهب الكاثوليكى يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحا جديدة أفضل[٩٣] » . (ويقال إن مثل هؤلاء الأطفال يذهبون إلى مكان جميل بجوار الجحيم اسمه الأعراف) ! !

أما بالنسبة للسيد المسيح فإن فولتير كان مذبذبا . وأنتقل من الورع الطبيعى فى الطفولة إلى عدم التوقير الذى يغلب فى الشباب ، إلى حد قبول قصة مارى مع الجندى الرومانى ، وفكر فى وقت ما أن يسوع متعصب مخدوع « أحمق » : ولما نضج تعلم كيف يبدى أعجابه بتعاليم يسوع الأخلاقية وقال : « سيكون خلاصنا بفضل ممارسة هذه المبادىء الأخلاقية ، لانتيجة أيماننا بأن المسيح هو الله » . وسخر كثيرا من « التثليث » فى كتابه الملحد والحكيم . ويسأل الملحد « هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصا واحدا وأرادة واحدة ، أو أن له طبيعتين وشخصيتين وارادتين ، أم أن له إرادة وأحدة وطبيعة واحدة وشخصيتين ، أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة ؟ » ولكن الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحيا طيبا[٩٥] . ويشير فولتير إلى أن المسيح ، بخلاف القديس بولص والمسيحيين اللاحقين ، ظل مخلصا

لليهودي على الرغم من نقده للفريسيين : « أن هذا الإله الخالد ، بعد أن جعل نفسه يهوديا ، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدى شعائرها ويتردد على المعبد اليهودى ولا ينطق بشيء يخالف الشريعة اليهودية . وكل التلاميذ يهود وهم يؤدون الشعائر اليهودية . يقينا إنه ليس هــو الذى أسس الديانة المسيحية . . . أن يسوع المسيح لم يبشر بأيه خصيصة واحدة من خصائص المسيحية(٩٦) » .

أن يسوع فى رأى فولتير ، قبل معتقد كثير من اليهود الأتقياء قبله ، بأن العالم كما عرفوا يسير إلى نهايته ، وسرعان ما تحل محله « مملكة الرب » أى الحكم المباشر لله على الأرض . (والنقد الحديث يقبل وجهة النظر هذه).

وتجاوب فولتير فى سنواته الأخيرة ، أكثر فأكثر ، مع قصة المسيح وبدأ يسميه « أخى » « مولاى(٩٧) » وصور نفسه وكأنما أنتقل فى حلم إلى صحراء مغطاة بأكوام من العظام ، فهنا أشلاء ٣٠٠ ألف من اليهود المذبوحين ، وهناك أربعة تلال من المسيحيين شنقوا بسبب الخــلافات الميتافيزيقية ، وأكوام من ذهب وفضة تعلوها صولجانات وتيجان الأساقفة والملوك المنحلين ، ثم حمله ملاكه المرشد إلى واد أخضر حيث أقام الحكماء العظام ، وهناك رأى نوما ويومبليوس وفيثاغورس وزردشت وطاليس وسقراط . . . وأخيرا « تقدمت مع دليلى إلى أيكة أعلى من تلك التى أخلد فيها الحكماء القدامى إلى راحة بهيجة ، ورأيت رجلا يتسم بالبساطة وحسن المنظر ، بدا لى أنه فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وكانت قدماه ويداه منتفختين داميتين ، وكان مطعونا فى جنبه وكان لحمه ممزقا بضربات من سوط . ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين آلام هذا الحكيم وآلام سقراط».

وسأله فولتير عن سبب موته ، فأجابه يسوع « الكهنة والقضاة » . هل قصد أن يؤسس دينا جديداً ؟ كلا . هل كان مسئولا عن هذه الأكداس من العظام وهذه المقادير الضخمة من الذهب الملكى أو الكهنوتى ؟ كلا . لقد عشت وصحبي فى أشد الفقر « إذن مم تتألف الديانة الحقة ؟ » ألم أقل

لكم من قبل ؟ أحب الله وأحب جيرانك كما تحب نفسك « فقال فولتير » إذا كان الأمر كذلك فأنت مولاى الوحيد ، ورسم لى علامة نزلت على قلبي بردا وسلاما . وأختفى الطيف وتركنى وقد إرتاح ضميرى وشاع فى نفسى السلام والطمأنينة(٩٨) .

ولكن تلك كانت حالة نفسية لاحقة . فإن فولتير فى سنى حربه ضد المسيحية رأى فى تاريخها شقاء بالغا للجنس البشرى . أن صوفية بولص وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك فى صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة فى التخطيط والتدبير ، تضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عند الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية . ثم أن آباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل ارضاء عقول الطبقة الوسطى . وخبا شيئا فشيئا نور الثقافة الكلاسيكية بأنتشار الأخيلة الصبيانية والاحتيالات والخدع الورعة . حتى خيم الظلام لعدة قرون على عقل أوربا . وزحف المتأملون من الناس والحاملون منهم ، كما زحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة ومسئولياتها ، إلى الأديار . وأصاب بعضهم بعضا بعدوى أحلام النساء والشياطين والآلهة . واجتمعت مجالس العلماء والمتفقهين لتنظر أى الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءا من العقيدة المعصومة . وباتت الكنيسة ، بعد أن أسست قوتها وسلطانها على فكرة أشباع رغبة الناس فى الأساطير والخرافات التى تبعث على السلوى والعزاء ، نقول باتت الكنيسة بعد ذلك أقوى من الدولة التى تؤسس سلطانها على القوات النظامية . وأصبحت قوة السيف تعتمد على قوة الكلمة وثل البابوات عروش الملوك ، وأحلوا الأمم من وأجب الولاء للملوك .

ومن رأى فولتير أن الأصلاح البروتستانتى كان مجرد خطوة متعثرة نحو العقل وأمتدح الثورة ضد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات فى الأديار ، وضد بائعى صكوك الغفران ، وضد رجال الدين الساعين إلى جمع الثروة ، الذين « استنزفوا فى بعض الحالات دخل أقليم بأسره » وفى شمال أوربا

أختار الناس دينا أرخص وأقل تكلفة[٩٩]. » ولكن أثاره توكيد اللوثريين والكلفنين على القضاء والقدر[١٠٠]. تخيل حا كما أو ملكا يحكم على ثلثى رعاياه بالخلود فى النار ! أو تأمل فى مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس ، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز ، واللوثريون يلتهمون الرب والخبز كليهما ، والكلفنيون يأكلون الخبز ، لا الرب . وإذا روى لنا أحد شيئا من مثل هذا الأسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا إنه يخدعنا ويلعب على عقولنا[١٠١]. » لقد ولى تقدم العقل لمثل هذه الخلافات ظهره ، وتركها بعيدا إلى الوراء « وإذا قدر للوثروكلفن أن يعود إلى الحياة الدنيا فلن يثيرا ضجة أكثر مما فعل أتباع جون دنز سكوتس وتوماس أكويناس[١٠٢] » .

وإذا أستمر البروتستانت على التبشير بمثل هذا اللاهوت فلسوف تتخلى عنهم الطبقات المتعلمة ، على حين تؤثر الجماهير مذهب رومه المعطر النابض بالحياة . وبالفعل كان فولتير يظن « أن الكلفنية واللوثرية معرضان للخطر فى ألمانيا ، فأن تلك البلاد مملوءة بالأسقفيات العظيمة والأديان المسيطرة والشرائع والمذاهب الكثيرة ، وكلها ملائمة لعمل أية ردة »[١٠٣] .

إذن هل يجدر بالناس المتعقلين أن يتخلوا عن الدين تماما ؟ كلا ، فأن دينا يدعو إلى الله وإلى الفضيلة دون أية تعاليم أو مبادىء أخرى ، لأبد أن يكون ذا نفع حقيقى للجنس البشرى . . . وفى سنيه الأولى كان فولتير يظن « أن أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدة الدين ليكونوا طيبين صالحين، هم أحق بالرثاء والأشفاق » وأن أى مجتمع يمكن أن يعيش بالأخلاق الطبيعية غير معتمد على المعتقدات الخارقة[١٠٤] » . ولكن لما اتسعت خبرته بالأهواء البشرية بدأ يسلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى يمكن أن يقاوم بنجاح القوة البدائية فى الغرائز الفردية ، إلا إذا دعمه أيمان شعبى عام بأن هذا القانون الأخلاقى صادر عن إله بصير ، إله يثيب ويعاقب ، وهو الذى يتولى السهر عليه . وبعد أن إتفق مع لوك عن أنه ليست هناك أفكار فطرية ، عاد فانحاز

إلى رأى ليبنتز فى أن الحس الخلقى فطرى ، وعرفه بأنه شعور بالعدل أودعه الله فينا « أن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ولكن الدين يراقب الجرائم الخفية[١٠٥] » . وفى كتاب « الملحد والحكيم » يقول الحكيم :

سأفترض (لاقدر الله) أن كل الانجليز ملحدون ، وأذهب إلى أن هناك بعض مواطنين مسالمين ، هادئين بطبيعتهم أثرياء إلى حد يمكن أن يكونوا معه أمناء يلتزمون مبادىء الشرف . ويراعون قواعد السلوك إلى حد أنهم يسعون جهدهم ليعيشوا معا فى المجتمع . . . . ولكن الملحد الفقير المعوز سيكون غبيا إذا هو لم يقتل أو يسرق ليحصل على المال . فهل تنفصم إذن كل عرى المجتمع وروابطه وتطغى كل الجرائم الخفية على العالم وتنتشر مثل الجراد فوق الأرض ، ولو أنها فى أول الأمر تكون ضئيلة لاتدرك . . . من ذا الذى يكبح جماح الملوك العظام ؟ أن الملك الملحد أشد خطرا من الكاهن المتعصب . . . وتفاقم الالحاد فى أيطاليا فى القرن الخامس عشر . فماذا كانت النتيجة ؟ وكان من الأمور الشائعة أن تسمم إنسانا وكأنك تدعوه إلى العشاء. إذن يكون الإيمان بآله يثيب على صالح الأعمال ويعاقب على الشرور ، ويغتفر مادون ذلك من الأخطاء اليسيرة ، من أنفع الأشياء للإنسان[١٠٦] » .

وإتجه فولتير آخر الأمر إلى أن يرى بعض المعنى فى نظرية الجحيم :

« إلى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون الجحيم فى كتاباتهم أسوق الحديث : أيها السادة ، أننا لانقضى أيامنا مع شيشرون وأتيكوس وماركوس وأوريليوس وابيقور . . . ولامع الفاضل المبالغ فى التدقيق والشك ، سبينوزا الذى رد — رغم كدحه تحت وطأة الفقر والعوز — إلى أطفال المتقاعد الكبير دى ويت ، راتبا قدره ٣٠٠ فلورين ، كان قد منحه أياه رجل الدولة العظيم ، الذى قد يذكر أن الهولنديين قد حطموا قلبه . وصفوة القول ، أيها السادة ، أن الناس ليسوا جميعا فلاسفة . أننا مضطرون إلى عقد الأتصالات والقيام بمختلف الأعمال ، والإختلاط فى غمار الحياة بالأوغاد الذين لايفكرون إلا قليلا ، أو أنهم لايفكرون أبدا . وبعدد لايحصى من

الناس الذين لاهم لهم إلا الوحشية والسكر والسلب والنهب ، ويمكنكم إذا أردتم أن تعظوهم بأن نفس الإنسان فانية . أما أنا فسوف أصرخ فى آذانهم بأنهم إذا سلبونى فسيكونون مذنبين لامحالة »[١٠٧] .

ونختتم بأن فى مقدور الشيطان أن يقتبس من فولتير ما يحقق أغراضه أى ما يؤيد الشيطان نفسه . وبعد المناداة بديانه متحررة من الخرافات[١٠٨] ، أنهى المتشكك الكبير اسوأ الخرافات . إنه قد طالب بديانة تقتصر على غرس الفضائل والاخلاق القويمة[١٠٩] . أما الآن فهو يسلم بأن الناس العاديين لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن أرتكاب الجرائم إلا عن طريق دين فيه جنة ونار أونعيم وجحيم . وللكنيسة أن تقول إنه تاب وأناب .

وفى سن الثانية والسبعين أعاد فولتير صياغة معتقده تحت العنوان المهذب « الفليسوف الجاهل » (١٧٦٦) إنه فى البداية يعترف بأنه لا يعرف ماهى المادة وما هو الذهن ، ولا يعرف كيف يفكر ولا يعرف كيف يحرك فكره ذراعه[١١٠] . إنه يسأل نفسه سؤالا من الواضح أنه لم يدر بخلده من قبل : أمن الضرورة لى أن أعرف ؟ ولكنه يضيف « أنا لا أستطيع أن أجرد نفس من الرغبة فى التعليم والمعرفة . أن حب الأستطلاع الذى يبعث على الحيرة والارتباك عندى ، لايشبع ولا يقف عند حد مطلقا »[١١١] وهو الآن مقتنع بأن الأرادة غير حرة : « أن الجهول الذى يرى هذا لم يفكر دائماً هكذا . ولكنه فى النهاية مضطر إلى الأستسلام »[١١٢] . هل يوجد هناك إله ؟ نعم ، وهو العقل وراء « النظام والفن المذهل والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تحكم الكون[١١٣] . ولكن هـذا العقل الأسمى معروف لدينا فقط بوجوده لابطبيعته . « أيها الإنسان الفانى البائس . إذا كنت لا ادرك عقلى ، وإذا كنت لا أعرف ماذا ينفخ فى الحياة ، فكيف تكون لى أيةدراية بهذا العقل الذى يجل عن الوصف والذى من الواضح أنه يتحكم فى الكون ؟ . . . ولكننا من صنعه وتدبيره »[١١٤] .

ويميل فولتير إلى الأعتقاد بأنه لم يكن ثمة خلق فى وقت معين . وأن الدنيا

قد وجدت دائماً . « تنبعث دائماً من هـــذه العلة البدائية الأساسية ، كما ينبعث الضوء عن الشمس » وأن الطبيعة كانت تنبعث فيها الحياة دائما[١١٥] . ولا يزال يؤمن بأن هناك تدبيرا مقصودا فى الكون ، أى « العناية الألهيه » التى توحيه الجميع ، ولكنها تسمح للجزء — بما فى ذلك كل إنسان بمفرده — أن يتدبر أمر نفسه[١١٦] . وينتهى إلى القول « إن قلت لى إنى لم أعلمك شيئا ، فتذكر أنى إبتدرتك بأنى جاهل[١١٧] .

وبدأ الفليسوف المتحير يحسد أولئك الذين لم يفكروا قط . ولكنهم آمنوا ، ورواودهم الأمل فحسب . ومع ذاك رجع إلى رأى سقراط وهو أن الحياة بدون تفكير غير جديرة بالإنسان . . . وعبر عن تردد بين هذه الآراء فى الحياة فى كتاب « تاريخ برهمى طيب » (١٧٦١) :

(اتفق لى أن التقيت فى رحلاتى ببرهمى عجوز . وكان الرجل ذا عقل راجح وعلم واسع وثراء عريض .. وقال لى الرجل ذات يوم : وددت لو أنى لم أولد قط ، فسألت : ولم هذا ، فقال : لأنى كنت أدرس طيلة تلك السنوات الأربعين ،ووجدت أنى قد ضيعت وقتاً طويلا . وأنى لاأعرف شيئاً على الرغم من أنى أعلم الآخرين .. أنا موجود فى الزمن دون أن أعرف ما هو الزمن ، أنا موضوع ، كما يقال حكماؤنا ، فى التخوم بين عالمين لا نهائيين ، ومع ذلك ليس عندى أية فكرة عن الأبدية أو الخلود . وأنا مكون من مادة فيما أظن . ولكنى لم أستطيع قط أن أقنع نفسى بهذا الذى ينتج التفكير . . . ولا أدرى لماذا أنا موجود ، ومع ذلك فأنا مكب كل يوم على حل اللغز ، ويجب أن أرد جوابا ، ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً مرضياً فى هذا الموضوع . إنى أتكلم كثيرا ، وعند ما انتهى من الكلام أظل متحيراً مرتبكا شاعرا بالخجل مما قلت ..)

وأهمتنى كثيراً الحالة التى رأيت عليها هذا الرجل حقا .

وفى اليوم نفسه كان لى حديث مع سيدة عجوز هى جارته . وسألتها أكانت يوما قد شعرت بعدم السعادة لأنها لم تعرف كيف صنعت نفسها .

ولم تفهم سؤالى . انها لم تفكر ولو لبرهة قصيرة فى حياتها . وفى هذه الموضوعات التى عذب البرهمى الطيب نفسه بالتفكير فيها . وآمنت من أعماق قلبها بتحول إلهها فشنو Vishnu وكانت ترى أنها أسعد النساء شريطة أن يتاح لها الحصول على شىء من الماء المقدس من نهر الكنج لتغتسل به . وأثارتنى سعادة هذه المخلوقة المسكينة ، فعدت إلى فيلسوفى وابتدرته بقولى : ألا تخجل من بؤسك وتعاستك . على حين أنه على بعد ٥٠ ياردة منك يوجد مخلوق آلى (أوتوماتيكى) لا يفكر فى شىء ويعيش هانئا راضيا فرد على بقوله « أنت على حق . لقد قلت فى نفسى ألف مرة إنى سأكون سعيداً لو أنى كنت جاهلا مثل جيرانى العجائز . ومع ذلك فتلك سعادة لا أرغب فيها . وكان أثر رد البرهمى فى نفسى أعظم من أى شىء مضى . وخلصت إلى أننا على الرغم من أننا قد نضفى على السعادة قيمة عظيمة ، فإننا لانزال نقدر للعقل قيمة أعظم .

ولكن بعد تأمل ناضج . . . لاأزال أرى أن هناك قدراً كبيراً من الجنون فى إيثار العقل على السعادة (١١٨)

٨ — فولتير متعصب

وفى حالة نفسية مماثلة لهذه كان بسكال قد اختار أن يخضع تفكيره الذى غلب عليه المنطق للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تنظيما كان قد وجده بعد طول التجربة مزيجاً من التعليم والطقوس تساعد على الفضيلة والأخلاق القويمة وتخفف من لوعة التساؤل والحزن . ولم يذهب فولتير فى سن السبعينات بعيداً إلى هذا الحد ، ولكنه سار مضطرباً مشوش الذهن فى هذا الإتجاه .

وبدأ بأن وطن النفس على قبول فكرة أن الدين ، أى دين ، أمر مرغوب فيه بصفة عامة . وحين سأله بوزول (٢٩ ديسمبر ١٧٦٤) ألا ترى أن تكون هناك عبادة عامة ؟ أجاب فولتير « نعم . من كل قلبى . فلنجتمع أربع

مرات فى كل عام فى معبد كبير، تصدح فيه الموسيقى، لنقدم الشكر لله على كل نعمائه. فهناك شمس واحدة، وهناك إله واحد. ولتكن لنا ديانة واحدة • ومن ثم يكون بنو البشر إخوة)[١١٩]. أن الشمس — كما يقولون مهدت له نصف الطريق إلى الله. وفى مايو ١٧٧٤ وهو فى سن الثمانين، صحا من نومه قبل الفجر، وصعد مع أحد أصدقائه ليشهد مشرق الشمس من تل قريب • وربما كان يقرأ روسو. وبلغ القمة وقد نال منه التعب، وأربكه جلال الشمس المنتصرة وعظمتها، فركع وصاح: يا الله العلى العظيم، أنى أؤمن! لكن ثابت نفس فولتير إليه فقال وهو ينهض على قدميه أما بالنسبة للسيد الإبن والسيدة أمه، فتلك مسألة أخرى[١٢٠].

وذهب شيئاً فشيئاً إلى أبعد من ذلك فارتضى وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقدمون الصلوات لله[١٢١]. واعترف بأن الأساقفة فى فرنسا وانجلترا أسهموا فى إقرار النظام الإجتماعى، ولكن الكاردينالات كانوا باهظى النفقة ويجب الاستغناء عنهم • وكان ينظر بعين الإجلال والإكبار إلى راعى الأبرشية البسيط الذى حفظ سجل القرية وساعد الفقراء وأصلح بين الأسرات المتنازعة، فهؤلاء الكهنة رعاة الأبرشيات يجب أن يكون احترامهم أكبر وأن تزاد مخصصاتهم، وألا يستغلهم رؤساء الكنيسة[١٢٢]. وفى ساعات التجلى كان التائب العجوز يريد زيادة الاجتماعات الدينية لتكون مرة فى كل شهر، بل حتى فى كل أسبوع[١٢٣]. ويجب أن يكون هناك صلوات وتكبير لله، وعبادات ودروس فى الأخلاق. ولكن لاقربان ولا ذبائح ولا توسلات، ولتكن العظات قصيرة • وإذا كان لابد من صور وتماثيل دينية فلتكن لتخليد ذكرى أبطال الإنسانية، لاذكرى القديسين المشكوك فى أمرهم، مثل هنرى الرابع (لاخليلاته) • وينبغى ألا يكون هناك تعاليم خارقة للطبيعة، اللهم إلا وجود إله عادل. ويجدر أن تخضع هيئة الكنيسة للدولة • وأن تتولى الحكومة تدريب رجال الدين ودفع أجورهم.

ويمكن أن تبقى الأديار والرهبنات على أن تكون ملاجىء للعجزة والمرضى . ومثل كثير من المتشككين نظر فولتير بعين الأكبار والإجلال إلى الراهبات اللائى خرجن من أديارهن لمساعدة المرضى والفقراء منذ رأى « إخوات البر والإحسان » فى مستشفيات باريس . وكان قد كتب فى رسالة العادات والأعراف : ليس فى العالم كله ما يضارع التضحية بالجمال والشباب وغالباً بكرم المحتد وعراقة الأصل ، تلك التضحية التى يقدمها الجنس اللطيف عن طيب خاطر للتخفيف من ويلات الإنسانية فى المستشفيات . إن الأمم التى انفصلت عن العقيدة الكاثوليكية قلدت بشكل منقوص ، أعمال البر والاحسان الجليلة هذه .(١٢٤)

وكما يعرف العالم بأسره شيد فولتير بالقرب من قصره فى فرنى كنيسة صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة « يارب إذكر عبدك فولتير » وادعى أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هـــذه الأرض . أما الكنائس الآخرى فهى مخصصة للقديسين(١٢٥) .

وطلب إلى رومه أن تزوده ببعض المخلفات المقدسة ليضعها فى كنيسته ، فأرسل البابا ثوبا من وبر الجمل للقديس فرانسيس أوف أسيسى ، ووضع فولتير على المذبح تمثالا بالحجم الطبيعى من المعدن المذهب للمسيح لا وهو مصلوب بل باعتباره حكيما . وهنالك إبتداء من ١٧٦٠ فصاعدا ، حضر فولتير القداس فى كل يوم أحد ، وكان يقوم هو نفسه بعملية البخور باعتباره سيد القرية . وفى عيد الفصح ١٧٦٨ تناول العشاء الربانى(١٢٦) وكان يرسل خدمه إلى الكنيسة بانتظام ودفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة(١٢٧) .

وربما قصد بجزء كبير من هذه التقوى والورع أن يكون قدوة حسنة لأهل قريته ، ويشجعهم على إيمان قد يحد من جرائمهم ويصون ممتلكاته . وكان واثقا أن الحاشية الملكية فى فرساى سوف يترامى إليها أنباء سلوكه المثالى ، وربما راوده الأمل فى أن هذا قد ييسر مهمته فى شن الحملات من أجل كالاس وآل سيرفن ودى لأبار ، ويشفع فى عودته إلى باريس . والحق أن

الملك والملكة قد سرهما ماسمعا من أنباء إصلاحه . ووافق الكاهن دى لاباترى على أن يتناول فولتير الأسرار المقدسة ، ولكنه عندما رأى هزال المبلغ أبدى ملاحظة فحواها أن فولتير نسى أن يدفن نفسه ، فأجاب فولتير بانحناء واحترام « يعدك ياسيدى ».[١٢٨] وفى ٣١ مارس سنة ١٧٦٩ إستدعى موثقا ووقع أمام عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته فى الموت على العقيدة الكاثوليكية[١٢٩]. وسخر منه الأخوة فى باريس ، وتقبل هو سخريتهم بصدر رحب .

وبعد ١٧٦٨ اعتاد كما هو الحال فى الأديار ، أن تقرأ عليه بعض الكتب التعبدية أثناء تناول الطعام . وكان لهـذا الغرض يؤثر « عظات ماسيون » لأنه إستطاع أن يقدر قيمة الأدب حتى ولو بقلم كاهن . وكان قد اشترك فى الحملة ضد اليسوعيين ، ولكن فى ١٧٧٠ انضم إلى رابطة علمانية للاخوة الكبوشيين . وحصل من رئيس هذه الطائفة على لقب « الأب الدنيوى لطائفة الكبوشية فى جكس » ، وهى القرية التى كان فيها سيدا اقطاعيا . وكان فخورا جداً بهذا التشريف ، وكتب عنه عدة رسائل وقع على بعضها باسم « الأخ فولتير الكبوشى » . وحياه فردريك قديسا جديدا فى الكنيسة ، ولكنه أبلغه أن السلطات الكنسية فى رومه كانت قد أحرقت فى نفس العام بعض أعمال الكبوشيين الحقيرة[١٣٠]. وليس من اليسير أن نتبين أن تودده إلى الكنيسة كان مخلصا أو أنه كان ترضية لقصر فرساى ، أو أنه كان بدافع الخوف من الحيلولة دون دفن رفاته فى الأرض المخصصة لهـذا الغرض . وهى تشمل كل مقابر فرنسا . وربما لعبت هذه العوامل الثلاثة دورا فى الكوميديا المقدسة .

وفى تلك الأعوام الأخيرة ١٧٧٠ — ١٧٧٨ وقف قلمه على تفنيد الالحاد لامهاجمة المسيحية . وأضاف إلى مقال « الله » فى القاموس الفلسفى فقرتين دحض فيهما « نظام الطبيعة » لدى هولباخ . وفى ١٧٧٢ دبج مقالا رائعا تحت عنوان « يجب أن نؤيد » وفيه دافع عن « الله والتسامح » . واعترف لمدام تكر والدوقة دى شوازيل ، وللامير البروسى فردريك وليم ، بخوفه

على حركة التسامح الدينى من أن يهزمها تأييد الالحاد والدفاع عنه . وأسف لأن نقده لدى هولباخ قد يهدد تضامن « الأخوة » ولكنه أصر فى عناد : « لاشك عندى فى أن المؤلف وثلاثة من مؤيدى هذا الكتاب سيكونون من الد أعدائى لأنهم تحدثوا بأفكارى . وقد أعلنت لهم أنى سأتكلم طالما كان فى عرق ينبض أو طالما ترددت أنفاسى دون أن أخشى المتعصبين للالحاد ولا المتعصبين للخرافة[١٣١] . ورد أنصار دى هولباخ على هذا بقولهم إن السيد الثرى يشتغل بالسياسة مع فرساى ويستخدم الله ليحافظ على النظام بين خدمه وفلاحيه فى فرنى .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، نظر إليه الرجال الذى هتف لهم يوما ، وحفزهم وشجعهم على الانضمام إلى الحملة ضد « الرجس » باعتبارهم أخوة ، نظروا إليه وكأنه قائد مضيع . أن ديدرو ما أحبه قط ، وما ألف تبادل الرسائل معه ، وكره منه زعمه الواضح بأن دالمبر هو رأس الموسوعة المفكر وروحها المدبر . لقد استحسن دفاع فولتير عن آل كالوس. ولكن افلتت منه عبارة تنم على الحقد يقول فيها « أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون الثانى فى كل الأحوال[١٣٢] » . أن فولتير لم يشارك ديدرو سياسته الثورية ولا حبه لمسرحية البرجوازية العاطفية ، أن البرجوازية حين تصبح ارستقراطية لا تسيغ قناعة البرجوازية . ولم يقم ديدرو ولادى هولباخ بحج الاخلاص والولاء إلى فرنى . وعلق جيم فى صرامة غير معهودة على نقد فولتير لهوبز وسبينوزا بقوله : « أن الفيلسوف الجاهل لمس بصعوبة سطح هذه الموضوعات ولم يتعمق فى فهمها »[١٣٣] . إن الملحدين فى باريس ، وقد زاد عددهم واعتزازهم بأنفسهم ، رأوا الآن ظهورهم لفولتير وانصرفوا عنه . وفى أوائل ١٧٦٥ ، وحتى وسط المعركة ضد « الرجس » نبذه أحدهم فى إحتقار قائلا « إنه متعصب إنه ربوبى[١٣٤] » .

وبدأ الشيخ الجليل الواهن حوالى ١٧٧٠ ، بعد أن تخلى عنه الجانبان وقاوموه ، بدأ يفقد ثقته فى أمكانات الفوز ، وأطلق على نفسه « المدمر

الكبير » الذى لم يبن شيئا .[١٣٥] وخشى من أن دينه الجديد — وهو دين « الله والتسامح » لن يتأتى إلا إذا قبل الحكام نصيحة القديس بطرس « أعملوا من أجل السلام الدائم » أى أنه لن يأتى أبدا . أنه أرتاب طويلا فى وهن الفلسفة وانعدام الفتنة والجاذبية ' العقل . إن أى فليسوف لم يؤثر فى عادات الناس حتى فى الشارع الذى يقطنه ، وأسلم الجماهير للخرافة أو الأساطير . وراوده الأمل فى أن يحظى بنحو أربعين حكيما فى فرنسا وبالفئات المتعلمة فى الطبقة الوسطى ، ولكن هذا الأمل نفسه بدأ يزوى ويذبل حين آذنت شمس حياته بمغيب . وكل الحلم الذى كان يراوده وهو يستعد فى سن الرابعة والثمانين ليرى باريس قبل أن يموت ، هو حلم « تنوير الشباب شيئا فشيئا » . فربما يعود إليه فى غمرة الترحيب الشديد به هناك ، إيمانه بالإنسان وأمله فيه .

وهل كان فولتير فيلسوفا ؟ نعم . أنه كان كذلك على الرغم من أنه لم يصطنع مذهبا . وأنه تردد وتذبذب فى كل شىء . وغالبا ما بقى فوق سطح الأشياء ولم يتعمق فيها . ولم يكن فيلسوفا إذا كانت هذه الكلمة تعنى صانع مذهب قائم على فكر موحد متماسك عن العالم والإنسان . إنه انصرف عن المذاهب باعتبارها هجمات وقحة على « المطلق غير المحدود » ولكنه كان فيلسوفا إذا كان المقصود بالفلسفة انشغال الذهن بشكل جدى بالمشاكل الأساسية للطبيعة والاخلاق والحكومة والحياة والقضاء والقدر . ولم يعتبر فولتير عميقا . وربما كان السبب فى هذا أنه كان غير متأكد . وكان واضحا وقل أن كانت أفكاره أصيلة . ولكن كل الأفكار الأصيلة تقريبا فى الفلسفة سخيفة . وانعدام الأصالة علامة الحكمة . يقينا كان الشكل الذى صاغ فيه أفكاره أصيلا . وفولتير بلا نزاع ألمع كاتب ظهر ، وهــل كان الرجل الثانى . لا الرائد الأول . فى كل مجال كما اتهمه ديدرو ؟ كان الثانى فى الفلسفة بعد ديدرو . نعم . وفى المسرحية بعد كورنى وراسين ولكنه كان الأول والأفضل فى زمانه فى فهمه وكتابته التاريخ وفى رقة شعره . وفى

سحر نثره وظرفه . وفى مدى تفكيره وتأثيره . ورفرفت روحه مثل اللهب فوق القارة وفوق القرن . كما أنها تثير وتهز مليون نفس فى كل جيل .

وربما أسرف فى كراهيته ، ولكن علينا أن نتذكر الاستفزاز والإثارة ، ونتصور أنفسنا عائدين إلى الوراء فى عصر كان الناس يحرقون فيه على الخازوق ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بسبب الارتداد عن الديانة التقليدية . وقد نرى المسيحية الآن أفضل مما كانت عليه أو مما رآها هو آنذاك ، لأنه ناضل وأصاب بعض النجاح للتخفيف من تعاليمها وحدتها . ويمكن أن نحس بقوة وروعة العهد القديم وجمال العهد الجديد وسموه ، لأننا أحرار فى أن نفكر فيهما باعتبارهما من عمل وإيحاء رجال غير معصومين من الخطأ . ويمكن أن نكون شاكرين ومقدرين لاخلاق المسيح لأنه لم يعد يهددنا بالجحيم ، أو يصب اللعنة على الناس والمدن التى لا تستمع إليه[١٣٧] .

ويمكن أن نحس نبل القديس فرانسيس الأسيسى لأنه لم يعد يطالب منا أن نصدق أن القديس فرانسيس أكسافيير كان يسمع فى عدة لغات على حين كان يتحدث بلغة واحدة ، ويمكن أن نحس بشعر الطقوس الدينية وبالمسرحية فى هذه الطقوس ، حيث تركنا الأنتصار العابر للتسامح أحرارا فى أن نتعبد أو نمتنع عن العبادة . ويمكن أن نتقبل مائة أسطورة باعتبارها رموز عميقة أو مجازات منيرة موضحة ، لأننا لم نعد يطلب منا أن نتقبل حقيقتها الحرفية . وتعلمنا أن نتعاطف مع ما كنا يوما نحبه . وكان علينا أن نتخلى عنه ، عندما نستعيد أجمل الذكريات لما كنا نحب فى شبابنا . ولمن ، أكثر من أى رجل واحد آخر ، ندين بفضل هذا التحرر العزيز علينا والذى يعتبر فاتحة عصر جديد ؟ أننا ندين بهذا الفضل لفولتير .

الفصل الثالث والعشرون

انتصار الفلاسفة

١٧١٥ — ١٧٨٩

١ — رجال الدين يصدون الهجوم

كان هناك الكثير مما يقال من أجل المسيحية . مما قاله المدافعون عنها فى قوة وحيوية ، أحيانا مع سوء تقدير أعمى للعصر ، وأحيانا فى رقة ووضوح توقعتهما فرنسا حتى من اللاهوت . وهناك من رجال الكنيسة من ظل يصر على أن أى انحراف عن المذهب الكاثوليكى المحدد يجب أن تعاقب عليه الدولة ، وأن مذبحة سانت برثلميو عملية مشروعة مثلها فى ذلك مثل أية عملية جراحية[1]. ولكن كان هناك من قبلوا التحدى وأخذوه مأخذ الرجال الكرام الشرفاء وأجازوا للأعداء أن يختاروا السلاح ، وهو العقل . وكانت لفتة كريمة ، فأن الدين إذا أرتضى العقل كان فى هذا بداية موته وفنائه .

ونشرت فرنسا فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧٨٩ نحو تسعمائة كتاب دفاعا عن المسيحية ، منها تسعون فى سنة ١٧٧٠ وحدها[2]. أن كتاب ديدرو « أفكار فلسفية » ، وكتاب هلفشيوس « الذكاء » ، وكتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، استلزم كل منها نشر عشرة كتب لتفنيده والرد عليه . أن الراهب هوتفيل فى كتابه « الديانة المسيحة كما تثبتها الأعمال » (١٧٢٢) أكد (مثل رئيس الأساقفة ويتلى Whately بعد ذلك بقرن من الزمان) أن المعجزات التى تثبت قدسية المسيحية ثابتة بشكل موثوق قدر ثبوت الأحداث المقبولة فى التاريخ العلمانى . وفى مجلدين اثنين نشر الكاهن

جويون Guyonh كتابه « مهبط الوحى عند الفلاسفة الجدد » (١٧٥٩ — ١٧٦٠) وهو كتاب هجاء ونقد . ونشر الكاهن بلوش Pluche كتابه « مشهد الطبيعة » فى ثمانية مجلدات (١٧٣٩ — ١٧٤٦) . وظهرت منه ثمانى عشرة طبعة غالية الثمن ، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود فى الطبيعة ليثبت وجود إله أسمى فى العقل والقوة . وإذا وجد العقل البشرى بعض الالغاز فى المشهد الضخم ، فيكن متواضعا . ولا ينبغى لنا أن ننبذ الإله لأننا لا نستطيع فهمه وأدراكه ، ولنقدم له فى نفس الوقت الشكر على بديع صنعه . أما الأب جوشا Gauchat فأنه فى ١٥ مجلدا بعنوان « رسائل نقدية » (١٧٥٥ — ١٧٦٣) هاجم فرضية التطور عند بيفون وديدرو وغيرهما ببرهان طائش « إذا كان الناس يوما أسماكا . . . فأن هذا استتبع واحدا من أثنين ، فإما أنه ليس للإنسان نفس روحية خالدة ، أو أن للاسماك مثل هذه النفس ، وكلتاهما فرضية تنافى التقوى والدين »[٣]. ووافق الفلاسفة فرحين مهللين . وأكد الأب سيجورن Sigorgne فى كتابه « الفاسفة المسيحية » على لزوم الدين دعامة للاخلاق ، فأن القيود العلمانية الخالصة تؤدى فقط إلى شحذ إذهان المجرمين الذين لا يعودون يؤمنون بالله البصير بكل شىء . وفى ١٧٦٧ نشر الأب شاندن Mayeul Chandon القاموس المضاد للفلسفة ، وقــد ظهرت منه سبع طبعات . أما الأب نونوت Nonotte وهو يسوعى سابق تحلى بسعة الأطلاع والثقافة مثل أعضاء طائفته[٤] ، فأنه أخرج فى ١٧٧٠ كتابه الضخم « أخطاء فولتير » وقد بيع من هذا الكتاب أربع طبعات فى عامه الأول ، وست طبعات فى ثمانية أعوام . وفى ١٨٥٧ عد فلوبير هذا الكتاب من بين ما تقرأ إما بوفارى . ودافع الأب جوينى Guenee عن الكتاب المقدس بروح وذوق وكياسة وتفقه فى كتابه « رسائل بعض اليهود » (١٧٧٦) . وهى رسائل توهم بأنهم صادرة من بعض علماء اليهود . وسلم فولتير بأن نقد جوينى « لاذع إلى حد بالغ[٥] » . ووجه المدافعون الكاثوليك وابلا من النيران فى كل شهر

ضد الفلاسفة فى نشرة « الدين المتقم » . وفى ١٧٧١ بدأوا يصدرون « موسوعة منهجية » ، أوسع حتى من موسوعة ديدرو ، تهاجم كل نقاط الضعف فى قلعة الشك هذه .

وواجه الماديون (أنصار المذهب المادى) خصما عنيدا فى شخص نقولا سلفستر برجييه وهو راعى أبرشية فى أسقفية بيزانسون . أن كتابه « الربوبية تفند نفسها » (١٧٦٥) كان « رد كاهن حقيقى على قسيس سافوى الذى إبتدعه خيال روسو[٦] » ومن أجل كتابه « صدق براهين المسيحية » (١٧٦٧) تلقى رسالة ثناء ومديح من البابا . وفى سن الواحدة والخمسين (١٧٦٩) رفع إلى مرتبة كاهن فى كاتدرائية نوتردام فى باريس ، وأصبح كاهن الاعتراف لبنات الملك لويس الخامس عشر . وفى نفس العام نشر كتاب « دفاع عن المسيحية ضد مؤلف فضح المسيحية » — وهو ضربة موجهة إلى دى هولباخ . وسرت جمعية رجال الدين بهذا الكتاب فقررت له فى ١٧٧٠ معاشا سنويا قدره ألفان من الجنيهات ليتفرغ للدفاع عن العقيدة . وفى بحر سنة أخرج كتابا فى مجلدين تحت عنون « اختبار المادية » وهو رد على كتاب دى هولباخ « منهج الطبيعة » وأوضح مرة أخرى أن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا بطريق مباشر ، فلم نهبط به إلى شيء آخر معروف لدينا عن طريق الذهن فقط[٧] . وأتهم دى هولباخ بعدة تناقضات : ١ — أعلن البارون أنه لا سبيل إلى معرفة الله ، ولكنه طبق بعد ذلك على المادة كل صفات اللاتناهى والأبدية ٢— أنه قبل مذهب الحتمية ومع ذلك حض الناس على إصلاح سلوكهم . ٣ — نسب الديانة إلى :

(أ) إلى جهل الإنسان البدائى . (ب) وحيل الكهنة ومغالطتهم .

(ج) وإلى مكر صانعى القانون وبراعتهم . — فلنتركه يقرر . وطرح الكاهن نقد العهد القديم جانبا بايضاحه أن ناسخى كلام الله من البشر كانوا قد استخدموا المجازات والاستعارات الشرقية . ولذلك ينبغى إلا يؤخذ الكتاب المقدس دائما بحروفه . والعهد الجديد هو جوهر المسيحية ، وحياة المسيح

من معجزاته تثبت قداسة الدين . ومهما يكن من أمر فإن سلطة الكنيسة لاترتكز على الكتاب المقدس وحده ، بل على التسلسل أو التعاقب الرسولى لاساقفتها ، وتقاليدهم التى وضعوها للدين . وفى كتاب اختبار الدين المسيحى (١٧٧١) أكد برجييه الحجة القائلة بأن الإلحاد ،على الرغم من الشخصيات الفردية الاستثنائية التى أبرزها بيل ، قد يدمر الفضيلة والأخلاق .

وأرق شخصية فى المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين فى القرن الثامن عشر فى فرنسا هوغليوم فرنسوا برتييه [٨] . فى سنة ١٧١٤ وهو فى سن الثانية عشرة التحق بالكلية اليسوعية فى بورج ، وهناك اشتهر بحدة ذهن لم تسىء إلى تقواه إساءة ظاهرة . وفى سن السابعة عشرة أبدى لوالديه رغبته فى الانضمام إلى « جمعية يسوع » فطلبا إليه أن يفكر فى الأمر لمدة عام . ففعل وأصر على رغبته . وفى الفترة التى سبقت تثبيته راهباً فى باريس أكب على القراءة والدرس والصلاة حتى إنه نادرا ما خصص للنوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم. وتقدم ونما بسرعة حتى أنه عين فى سن التاسعة عشرة لتدريس العلوم الإنسانية فى كلية دى بلوا ، وبعد سبع سنين قضاها هناك ، وسنة أخرى فى الرهبنة ، أرسل إلى رن ثم إلى روان استاذاً للفلسفة . وفى ١٧٤٥ عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم «جورنال دى تريفو» التى كانت تصدر فى باريس آنذاك . وأصبحت هذه النشرة الدورية على عهده من أكثر الأصوات احتراماً فى فرنسا المتعلمة .

وكتب برتييه معظم الصحيفة بنفسه . وعاش فى صومعة صغيرة لم تجر تدفئتها قط ،واشتغل كل ساعات النهار ، وكان بابه مفتوحاً أمام كل من قصده ، وكان ذهنه مفتوحاً لكل موضوع ، اللهم إلا العقيدة التى كانت تعمر بها حياته وتغمرها بالدفء . إن لاهارب La Harpe أحد تلاميذ فولتير ، وصف برتييه بأنه الرجل الذى نال إعجاب العلماء والباحثين جميعاً : لغزارة علمه وسعة إطلاعه ، كما نال إعجاب أوربا لفضائله الموسومة بالتواضع .[٩] وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية حتى عند الاختلاف فى الرأى . فهاجم

الأفكار لا الشخصيات وامتدح مواهب خصومه أومعارضيه (١٠). ومع ذلك فإنه دافع عن عدم التسامح الديني . واعتقاداً منه بأن المسيح ابن الله هوالذى أسس الكنيسة الكاثوليكية ، رأى أنه من واجب المسيحى أن يحول بكل الوسائل السلمية دون انتشار الخطأ الدينى .. ويجب حظر الدعاية المعادية للمسيحية فى أية أمة مسيحية ، لأنها تغرى بالسلوك غير الأخلاقى ، وتسىء إلى استقرار الدولة . ورأى أنه من الخطأ أن نخلط بين التعصب للكاثوليكية وبين التحمس للاضطهاد (١١) ، ولكنه لم يعد بعدم مواصلة الاضطهاد . وفى سنة ١٧٥٩ رد الاتهام بالتعصب وعدم التسامح إلى الفلاسفة فقال : أيها الكفار ، أنتم تتهموننا بالتعصب الذى لاأثر له لدينا ، على حين أن ما تضمرون من كراهية لديننا يبعث فيكم تعصباً لايمكن تخيل أفراطكم الواضح فيه (١٢) .

ولم يسلم برتييه بالحقيقة المطلقة للعقل وحتى على الاسس الحسية عند لوك ؛ لايستطيع العقل أن يصل إلا إلى الحواس ، أما فيما وراء هذه الحدود ، فهناك حقائق واقعة ينبغى أن تظل إلى الأبد أسراراً خفية فى الأذهان المحدودة ، ومن ثم فإن الفيلسوف الحق يحد من بحثه حين لايمكنه تخطى هذه الحدود بشكل معقول (١٣). أن السعى لإخضاع الكون أومعتقدات الناس التقليدية والعامة لاختبار عقل فردى ، ضرب من الغرور العقلى . والرجل المتواضع يقبل عقيدة بنى جلدته إذا لم يستطع فهمها . وذهب برتييه فى بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين لأنه يتدخل فى ملذاتهم ، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الأباحية ، فلابد أن ينهار القانون الأخلاقى ، ويطلق العنان للأهواء ، وتختفى المدنية فى حمأة الأنانية والشهوة والخداع والجريمة . وإذا لم توجد الإرادة الحرة ، فلاوجود للمسئولية الأخلاقية . وحيث أن الحتمية لاتسلم بأى قانون يلزم الضمير ، فإن الشخص المذنب الوحيد هوالشخص الذى لاينجح (١٤) . ومن ثم تكون الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة ، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح

جماح الأقلية الذكية الماهرة فى سوء استغلال سذاجة الأغلبية ، ولن يشعر أى حاكم بأى التزام نحو شعبه ، اللهم إلا المباعدة بينهم وبين الثورة بسبب استغلاله لهم.[١٥]

أن برتييه كان كما رأينا قد رحب بالمجلد الأول من الموسوعة وقرظة ، وعرض ما فيه من أخطاء وانتحالات فى دقة بالغة تنم على ثقافة واسعة ، ومن ثم أظهر أن مقالة العمل للأب ييفون Yvon التى شغلت ثلاثة أعمدة كاملة، أخذت بنصها كلمة بكلمة من كتاب الأب بوفييه « بحث فى الحقائق الأولية»[١٦]. وامتدح مثال «الفلسفة العربية» ولكنه أبدى فزعاً حين وجد أن مقالة الإلحاد قد أوردت الحجيج التى تساند الإلحاد على نفس مستوى الاسهاب والقوة الذى أوردت به الحجيج ضد الالحاد ، تاركة فكرة وجود الله فى شك رهيب. وعندما أصبحت النزعة المعادية للمسيحية أكثر وضوحاً فى المجلد الثانى هاجمها فى قوة وبراعة . وأوضح إن الموسوعة استمدت سيادة الحكومة من رضا المحكومين، وفى هذا ، فى نظر برتييه ، خطر على الملكية الوراثية . وربما كان له أثر فى وقف الموسوعة عن الظهور[١٧] .

وفى عدد أبريل من صحيفة دى تريفو عرض لكتاب فولتير « بحث فى العادات » فقال : إنه ليحزننا أن نرى مؤلفاً حياً نقدر مواهبه ونعجب بها ولكنه يسيء استغلالها فى أكبر الأمور الأساسية . لقد رأى فى كتاب فولتير محاولة لهدم الكنيسة والدين ليشيد على إطلالهما كياناً فلسفياً ، أومعبداً مخصصاً لإباحية الفكر ،نذره للاستقلال عن كل سلطة ، والهبوط بالعبادة والأخلاق والفضيلة إلى مجرد فلسفة علمانية بحتة بشرية . واتهم فولتير بتحيز أخزى المؤرخ ، حيث عمى عمى يكاد يكون تاماً عن فضائل المسيحية وخدماتها ، وصمم تصميما طائشاً على أن يلتمس لها الأخطاء فى منجزاتها وأعمالها . وقال : إن فولتير ادعى أنه يؤمن بالله ، ولكن من آثار كتاباته دعم الالحاد . وفى نفس العدد من الصحيفة تحول برتييه إلى كتاب فولتير« العذراء — جان دارك » فنفذ صبره . وصاح : إن

الجحيم لم يلفظ قط مثل هذا الطاعون الفتاك : . . . إن الشهوانية تعرض هنا بكل وقاحة أبشع الصور بذاءة ودعارة . إن الفحش والبذاءة تستعيران لغة السوقة ... إنه أحط الهزل الماجن يلطف الكفر والبعد عن التقوى ... إن الرائحة المنبعثة من هذه الأشعار كفيلة بإفساد ونقل العدوى إلى كل عصر وكل حالة في المجتمع (١٨)

ولم يسارع فولتير إلى الرد ، إنه مازال يحتفظ بذكريات طيبة لمعلميه اليسوعيين ، ولايزل على جدران مكتبه في فرني صورة الرجل الطيب العطوف المتدين الآب بورى Poree (١٩) . ولكن عندما أوقفت الحكومة الفرنسية صدور الموسوعة استجاب لتحريض دالمبير وأنبرى لقتال برتييه . فاتهمه بمناهضة الموسوعة لأنها نافست قاموس تريفو الذى زعم أنه إنتاج يسوعى (كان كذلك بشكل جزئى وبصفة غير رسمية) . ودعا مجتمع يسوع إلى فصل محرر تريفو . أى عمل هذا الذى يشتغل به كاهن ... أنه يبيع فى كل شهر من مخزن للكتب مقتطفات من آراء طائشة مفتراه . (٢٠) فرد برتييه (يوليو ١٧٥٩) بأن محررى صحيفة تريفو لا علاقة لهم بمحررى قاموس تريفو واعترف بأن كونه محرراً ليس عملا جميلا ولا مناسباً ، ولكنه تمسك بحق الكاهن فى استخدام صحيفة دورية للاشادة بالكتب القيمة واستهجان المؤلفات الغثة . وأسف لأن فولتير انزلق إلى المسائل الشخصية والاتهام بالفساد والرشوة وختم كلامه بالأمل فى أن يعود هذا الرجل ذو المواهب العظيمة فيما تبقى له من عمر تفضلت به عليه العناية الإلهية ، يعود إلى الديانة المقدسة لا الدين الطبيعى ، بل إلى المسيحية الكاثوليكية التى ولد فيها (٢١) . وفى نوفمبر أصدر فولتير (وكان لاشك يتذكر الدفن الوهمى لجون بارتريدج تأليف سويفت) ، رسالة مهيبة تحت عنوان « العلاقة بين المرض والاعتراف والموت وشبح برتييه اليسوعى » ذاكراً كيف أن المحرر مات فى نوبة من التثاؤب فوق صحيفة تريفو ، واعتذر عن أسلوبه فى الجدل فى خطاب إلى مدام ابيناى : لا بد من تسفيه الرجس والمدافعين عنه (٢٢) .

وفى ١٧٦٢ أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين ، ومر برتييه حين إنتهى عمله فى تحرير الصحيفة ، وآوى إلى دير للترابستيين ليحيا حياة الصمت والتأمل ، وطلب السماح له بالأنضمام إلى هذه الطائفة (التى يقوم مذهبها على دوام الصمت والتقشف والزهد) ولـكن رئيس اليسوعيين أبى عليه ذلك ، وعينه لويس الخامس عشر معلما لأبناء الأسرة المالـكة . ولما وقع الملك مرسوم طرد اليسوعيين من كل أنحاء فرنسا (١٧٦٤) هاجر برتييه إلى ألمانيا . وفى ١٧٧٦ سمح له بالعودة ، فاعتزل كل نشاط ، وأقام مع أخيه فى بورج . ومات هناك فى سن الثامنة والسبعين (١٧٨٢) وكان رجلا طيبا .

٢ — خصوم الفلاسفة

حمى وطيس الحرب حين نبذت أردية الكهنة ونبذت المجاملات ، وركز الصحفيون أنظارهم على الفلاسفة ، وسخر كل ذكاء باريس وكل مفردات لغتها للشد والجذب والطعان . ولقد رأينا كيف أن فولتير تعرض ١٧٢٥ لبعض المتاعب لانقاذ بيير ديفونتين من العقوبة القانونية للواط وهى الإعدام . ولم يغفر له ديفونتين هذا قط . وفى ١٧٣٥ شرع فى إصدار نشرة دورية تحت عنوان « ملاحظات على الكتابات الحديثة » إستمرت حتى عام ١٧٤٣ وعلى صفحاتها نصب نفسه مدافعا عن الفضائل وعن العفة بصفة خاصة . وهاجم ، فى زراية واحتقار ، كل مظاهر إنحلال الخلق أو الخروج على التقاليد السليمة ، بلغة الأدب فى ذلك العصر . ومات الد إعداء فولتير . ولما مات فى ١٧٤٥ أوصى براية الجهاد لصديقه فريرون .

كان أيلى كاترين فريرون أقدر خصوم الفلاسفة وأشجعهم وأغزرهم علما وثقافة . وكان عالما بحاثة إلى حد أنه كتب « تاريخ مارى ستيوارت »(١٧٤٢) وسبعة مجلدات في « تاريخ الامبراطورية الألمانية » (١٧٧١) . كما كان شاعرا إلى حد أنه نظم قصيدة « عن معركة فونتنوى » (١٧٤٥) ولأبد أن فولتير رأى فيها منافسة وقحة لقصيدته باعتباره المؤرخ الملكى . وفى ١٧٤٥

أصدر نشرة دورية تحت عنوان : « رسائل عن بعض كتاب هذا العصر » وتناول فيها فولتير بالنقد والتجريح أكثر من مرة . وقضى فريرون سنى فقره سائقا لعربة تجرها أربعة جياد . وزج به فى سجن الباستيل ذات مرة لمدة ستة أسابيع لنقده راهبا من ذوى النفوذ . ولكنه حارب لمدة ثلاثين عاماً معركته الجبارة من الماضى . وإستاء استياءاً واضحا من فولتير لأنه نصح فردريك بالعدول عن استخدامهمراسلا له فى باريس[٢٣]. وفى ١٧٥٤ أصدر مجلة جديدة تحت أسم « السنة الأدبية » التى حررها وكتب معظمها ، ونشرها مرة كل عشرة أيام حتى ١٧٧٤ .

وأعجب فريرون بتمسك بوسويه بالدين وبالطرق الفخمة والأسلوب الفخم فى القرن السابع عشر ، وأحس بأن فهم الفلاسفة للتنظيم الاجتماعى ودعائم الفضيلة والأخلاق وركائز الإيمان فهم سطحى إلى حد معيب . « لم ينجب عصر مثل عصرنا هذا قط مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المغوين مثيرى الفتن الذين يركزون قواهم فى التهجم على مقام إلا له ، أنهم يسمون أنفسهم رسل الإنسانية ، دون أن يدركو أنه لايلائم أى مواطن وأنه يسىء إلى الجنس البشرى أبلغ اساءة أن يسلبوهم الآمال الوحيدة التى تهيىء لهم بعض التخفيف من متاعب الحياة . أنهم لايدركون أنهم يقلبون النظام الاجتماعى ، ويحرضون الفقراء على الأغنياء والضعفاء على الأقوياء ، ويضعون الأسلحة فى يد ملايين الناس الذين منعهم حتى الآن الوازع الأخلاقى والدينى من اللجوء إلى العنف ، قدر ما يمنعهم القانون »[٢٤] .

وتنبأ فريرون بأن هذا الهجوم على الدين سوف يقوض أركان الدولة ، واستبق بجيل واحد تحذيرات ادموندبيرك : « أليس التعصب للكفر وهدم الدين أشد سخفا وخطرا من التعصب للخرافة ؟ أبدا بالتسامح مع عقيدة آبائك . أنكم لاتتحدثون إلا عن التسامح ، ولكنكم ابعد الناس عن التسامح .. أنا لا أنتمى إلى عصبة الروح الجميلة ، ولا أنتمى إلى حزب الدين والفضيلة والشرف[٢٥] .

وكان فريرون ناقداً لاذعا ، ولم يدخر وسعا فى تحطيم غرور الفلاسفة الحساس وجرح كبريائهم . وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لآرائهم ، ومن مزاعم سيادة فولتير الأقطاعية باعتباره «كونت دى تورناى» . ولما ردوا عليه فأسموه « وغدا متعصبا » ، أنتقم هو منهم فقال إن ديدرو منافق وإن جريم متملق الوجهاء الأجانب ، وأطلق على جماعة الكفار بأسرها أسم عصبة « الاوغاد المحتالين والوضعاء الحمقى »[٢٦]. وأتهم الموسوعيين بسرقة الرسوم الأيضاحية من كتاب Reaumur عن « النمل » . وأنكروا هم هذه التهمة وأيدت أكاديمية العلوم هذا الأنكار ، ولكن الحقائق أيدت الأتهام فيما بعد[٢٧] . ولم يتصرف فريرون تصرفا حسنا فى « عودة إلى كالاس » إنه ذهب إلى أن الدولة أثبتت أن كالاس مذنب . وكتب أن فولتير لم يكن مدفوعا فى دفاعه عن كالاس بأى شعور إنسانى قدر رغبته فى لفت أنظار الرأى العام إلى وجوده هو — أى فولتير ، وفى أن يجعل الناس يتحدثون عنه[٢٨] . وأحبت الأنسة كليرون ، وهى كاتبة مسرحية كبيرة ، فولتير وزارته ، ودأب فريرون على إمتداح منافستها ، وأبدى بعض ملاحظات على الحياة الخاصة غير الأخلاقية لممثلة بعينها . واستاء الممثلون من مزاعمه باعتبارها تدخلا غير كريم فى أمورهم الشخصية . وحرض دوق ريشيليو ، وهو الذى يغتفر الزنى ، لويس الخامس عشر على إعادة فريرون إلى الباستيل ثانية ولكن الملكة حصلت على عفو عنه « من أجل تقواه وبلائه الحسن فى مناهضة الفلاسفة[٢٩] » . ولما قبض ترجو صديق الفلاسفة على زمام الأمور سحب رخصة مجلة السنة الأدبية (١٧٧٤) وتعزى فريرون بتناول الطعام الجيد ، ومات بسبب أكالة شهية ، وطلبت أرملته إلى فولتير أن يتبنى أبنته ، ولكن فولتير رأى أن هذا اسراف فى الشهامة .

وبقدر ما أساءت مجلدات فريرون الثلاثون إلى الفلاسفة ، أساءت لفظة واحدة هى اللفظة الأخيرة فى عنوان كتاب هجاء جاكوب نقولا مور « مذكرات جديدة لايضاح تاريخ الكاكوواك Cacouacs » . ويقول مورو

إن هؤلاء « الكاكوواك » جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية تحمل تحت السنتها أكياسا من السم ، فإذا تكلمت إمتزج السم بالكلمات ولوث كل الهواء المحيط بها . واقتبس المؤلف الحاذق مقتطفات من ديدرو ، ودالمبر وفولتير وروسو ، وحاول أن يبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقاً يسمون أنفاس الحياة ، وأتهمهم بأنهم يرتكبون السيئات والشرور « لمجرد حبهم للشر وفرحهم بارتكابه »[٣٠] وسماهم ملحدين ، فوضويين ، لاخلاق لهم ، أنانيين . ولكن لفظة الكاكوواك هي التي آلمتهم أشد الأيلام . إن هذا اللفظ أوحى بتنافر النغمات في صوت البط ، وتهريج الثرثارين المجانين ، وأحيانا (كما قصد بالكلمة) رائحة المراحيض . وكافح فولتير ليرد ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفند الرائحة ؟

وتشجع المحافظون وشددوا من ضرباتهم . وفي ١٧٥٧ كسبوا جنديا جديداً طموحا نشيطا . فإن شارل باليسودى مونتيني كان قد زار فولتير في لى دليس (١٧٥٤) مع تقديم من تيرو على أنه « تلميذ صنعته مؤلفاتك »[٣١] وبعد ذلك بعام واحد مثل في نانسى ملهاة (كوميديا) تنتقد روسو بشكل لطيف ، وفي باريس رعى وشجع الأميرة الشابة الورعة Robecq التي كانت على الأقل صديقة الدوق دى شوازيل . وكان ديدرو الخبير في سوء السلوك قد عاب عليها خلقها في مقدمة كتابه « الأبن الطبيعى » وربما نشر باليسو (١٧٥٧) ، استرضاء لها ، كتاب « رسائل صغيرة عن كبار الفلاسفة » انتقد فيه ديدرو بشدة ، ولكنه إمتدح فولتير . وفي ٢ مايو ١٧٦٠ قدم تحت رعاية الآنسة دى روبيك على المسرح الفرنسى الملهاة الرائعة في الموسم وأسمها « الفلاسفة » . وكانت هذه بالنسبة لهلفشيوس وديدرو وروسو ما كانت مسرحية أرستوفان « السحب » بالنسبة لسقراط قبل ذلك بنحو ٢١٨٣ عاما . صور فيها هلفشيوس في صورة الفيلسوف المتحذلق فالير Valere الذى يشرح حب الغير في الأنانية للسيدة المثقفة ذات الأهتمامات الأدبية والفكرية سيد اليز Cidalise . وعرف جمهور المتفرجين

لأول مرة أن هذه السيدة تمثل مدام جيوفرين التى كان صالونها يتردد عليه الفلاسفة وصور ديدرو وكأنه دورتيديوس . وفى الخادم كرسبين Crispin الذى كان يحبو على أربع عبر المسرح وهو يمضغ الخس . رأى الباريسيون صورة ساخرة (كاريكاتورية) لجـان جاك روسو الذى كان فى ١٧٥٠ قد استنكر المدنية وأضفى صورة مثالية على « حالة الطبيعة » ومجدها . وكان هجاء جافا غير مصقول ، ولكنه مشروع . وأستمتع به كل من شاهده ، اللهم إلا الضحايا الذين قصدت المسرحية السخرية منهم . وملأت الآنسة دى روبك المسرح بأصدقائها وغيرهم من أتباعها ، وعدة أفراد من مختلف الرتب الكنسية . وأصرت الأميرة على الرغم من السل الذى كان يهدد كيانها ، على تشريف العرض الأول بجمالها المحموم . وفى نهاية المشهد الثانى دعى باليسو إلى مقصورتها ، وعانقته على مرأى من الناس ، ثم حملوها إلى دارها[٣٢] لأنها كانت تسعل دما . ومثلت مسرحية الفلاسفة أربع عشرة مرة فى تسعة وعشرين يوما .

وفى الوقت نفسه أنضم إلى الحملة على الكفار شخصية كبرى . فإن جان جاك لى فرانك مركيز دى بومبينان ، أحد حكام الإقاليم ، كتب قصائد وروايات ممتازة إلى حد فاز معه فى الإنتخابات للأكاديمية الفرنسية . وفى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة قبوله عضوا فيها ، قال جان مستنكرا : « هذه الفلسفة المضللة الخداعة التى تقول عن نفسها إنها لسان حال الحق ، وماهى إلا أداة للافتراء وتشويه السمعة ، إنها تتبجح بالاعتدال والتواضع ، ولكن تنتفخ أوداجها زهوا وكبرياء . أن أتباعها الذين يتجرأون ويتعالون ويتيهون عجباً بأقلامهم يرتعدون فرقا فى حطة فى حياتهم ، وليس ثمة شىء يقينى فى مبادئهم ، وليس ثمة غناء فى أخلاقهم . ولاقاعدة للحاضر ولا هدف للمستقبل »[٣٣] .

وإمتدح لويس الخامس عشر هذا الخطاب . وسخر منه فولتير فى نشرة من سبع صفحات لا تحمل أسم الكاتب ، عنوانها « عندما » لأن كل فقرة

فيها بدأت بكلمة « عندما » وعلى سبيل المثال . « عندما يحظى إنسان بشرف الأستقبال فى جمعية كريمة من رجال الأدب . فليس من الضرورى أن يكون خطاب الأستقبال هجاء لرجال الأدب ، لأن فى هذا اساءة للجمعية وللجمهور . وعندما لايكاد الإنسان يكون أديبا إلا بشق النفس ، ولا يكون على الأقل فيلسوفا ، فلا يجمل به أن يقول إن أدب امتنا زائف وفلسفتها عقيمة . . . »

وهكذا فى أسلوب غير رائع . ولكن موريليه أتبع هذه النشرة بنشرة أخرى كبيرة تكرر فيها لفظ « إذا » وسرعان ما صدرت بعد ذلك نشرة أمتلات بلفظة « لماذا » ثم أصدر فولتير بعد ذلك نشرات متوالية زاخرة بالألفاظ : « من ، الذى ، نعم ، لا لماذا » ، وهرب بومبينان من هذه العاصفة إلى بلدته مونتوبان ، ولم يظهر قط فى الأكاديمية ثانية . ولكنه عاد إلى الصراع فى ١٧٧٢ بكتاب أسمه « الدين يثأر من الشكوكية بالشكوكية نفسها » وبسط وجهة نظره فى أب المذهب المادى (المادية) لم يترك أى وازع للاخلاق والفضيلة ، وإذا لم يكن هناك إله فكل شيء جائز أو مرخص به ، وكل ما نحتاجه هو أن نتملص من الشرطة . وتساءل المركيز : إذا لم يكن هناك إله فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذى وضعتهم الجمهورية فيه[٣٤] ؟

وقال الكاهن جاليانى ، الذى جاء من نابلى إلى باريس ١٧٦١ ، وتألق فى الصالونات لمدة ثمانى سنوات ، للفلاسفة — الذين أحبوه — إن دعوة بعضهم إلى « اتباع الطبيعة » نصيحة مجنونة تهبط بالإنسان المتحضر إلى الوحشية والهمجية[٣٥] وإن شواهد التدبير الألهى المقصود فى الكون بارزة جلية[٣٦] وإن التشكك أدى إلى الفراغ العقلى واليأس الروحى :

« بسبب تنوير أنفسنا وجدنا فراغا أكثر مما وجدنا أمتلاء . . . وهذا الفراغ الذى ألح على نفوسنا وعلى خيالنا هو السبب الحقيقى فى كآبتنا[٣٧] . . وبعد كل ما قيل وما عمل فالتشكك هو أعظم محاولة تبذلها روح الإنسان

ضد غرائزه وفطرته وأذواقه . . . إن الناس فى حاجة إلى التيقن . . . أن الغالبية من الناس وبخاصة النساء (وخيالهن ضعف خيالنا) لا يمكن أن يكونوا « لا أدريين » ، وإن هؤلاء القادرين على اعتناق مذهب اللاادرية (الذين يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها) ، لايستطيعون إن يبقوا على مذهبهم إلا بسمو شباب نفوسهم وقوتها ، فإذا هرمت النفس وولى شبابها يعود بعض الإيمان إلى الظهور ثانية[٣٨] .... إن اللاادرية يأس له ما يبرره »[٣٩] .

وضد جاليانى اللامع ، وبرجييه العالم الفقيه وبرتييه الدمث ، وفريرون المجـد المكافح وبومبينان النبيل ذى اللقب ، وياليسو المرهق ، ومورو الثرثار ، استخدم الفلاسفة ضد هؤلاء جميعا كل أسلحة الحرب الفكرية ، من العقل والسخرية إلى الرقابة والقدح والذم . وتخلى فولتير عن هدوئه وغامر بأمنه وطمأنينته ليرد فى شىء من الدعاية أكثر منه بالمحاجة والجدل غالبا ، على كل من يهاجم الفلاسفة والعقل ، فكتب إلى ديدرو « أرسل إلى إسماء هؤلاء الرفاق التعساء ، وسأعاملهم بما يستحقون »[٤٠] .

وكان من الصعب التعرض لمورو لأنه كان أمين المكتبة ، وكان مؤرخ الملكة . وكان من الممكن التشهير ببومبنان بالتفاصيل الصغيرة ، والنيل من باليسو بالتورية والتلاعب بالألفاظ ، وهكذا كتب مارمونتل قطعة من المتعذر ترجمتها « هذا الرجل كان اسمه ذات يوم بالى ، وفى البداية أسموه بالى الغبى ، ثم بالى المنحط وبالى الأحمق ، وبالى العقيم وبالى البارد ، وتتويجا لهذا التقريع المطول العنيف وختاما لهذه المقطوعة الهجائية ، جاءت الكلمة المناسبة على الفور ، فأسموه بالى المغفل ، وهبوطا إلى مستواك يجب علينا ، أنا واللفظة أن نمزح مرحا صاخبا ، تأمل وفكر إذا استطعت أن تستخدم تلك الآلة ولكن لا تكتب ، بل اقرأ « أيها الأحمق » .

وأجل ديدرو الأنتقام حتى يسرد فجور باليسو وفسقه فى كتابه « أين أخى رامو »[٤١] وكاد ألا يكون جديرا بفيلسوف ، ولكنه تورع عن

نشرة ، ولم يدفع به إلى المطبعة الفرنسية إلا بعد وفاة فريسته أو غريمه . على أن موريليه أخرج على الفور كتابا لا يهزأ فيه من باليسو وحده بل كذلك من « حاميته » الآنسة دى روبيك — وإستصدر أحد إصدقائها فى البلاط الملكى أمرا بايداع موريليه سجن الباستيل (١١ يونيه ١٧٦٠) وحصل روسو على أمر بأطلاق سراحه ، ولكنه قطع علاقته بالفلاسفة منذ ذاك الوقت . ولطخ باليسو إنتصاره بالأنغماس فى اللهو والشراب . وفى ١٧٧٨ إنحاز إلى جانب أنصار فولتير ، وانضم ثانية إلى الفلاسفة :

ووقعت أشد ضرباتهم على رأس فريرون . ووصفه ديدرو فى ابن أخى رامو[٤٢] بأنه « واحد من جماعة الأدباء المأجورين المبتذلين الذين عاشوا على مائدة الثرى (المليونير) برتان » . وخصص فولتير أحدى مقطوعاته الساخرة لفريرون ، حيث يقول « بالأمس القريب ، فى أحد الأودية لدغ ثعبان جون فريرون ، فماذا تظن قد حدث آنذاك ؟ لقد مات الثعبان .

ومن أمثلة البذاءة التى أساءت إلى سمعة فولتير والقرن الثامن عشر وصفه لفريرون بأنه « الدودة التى خرجت من إست ديفونتين »[٤٣] ولكن الهجوم الأكبر ورد فى رواية فولتير « المرأة الاسكتلندية » التى بدأ تمثيلها على المسرح الفرنسى فى ٢٦ يوليو ١٧٦٠ حيث كانت محاكاة ساخرة لرواية باليسو « الفلاسفة » مع مبالغات واضحة فى أنها نسبت إلى ضحاياه مسئولية هزائم الجيوش الفرنسية فى الحروب وانهيار مالية الدولة . وصور فريرون على أنه كاتب مأجور مبتذل تافه فى شارع جرب Grub street (شارع اشتهر بهذا الأسم سابقا) ، جاء بالرجس والعار فى كل فقرة كتبها نظير بستول واحد (عملة أسبانية أوربية) . ومن بين النعوت التى أطلقت عليه فى رواية فولتير : وغد ، ضفدع الطين (شخص تافه) ، كلب ، جاسوس ، سحلية ، ثعبان ، موطن التجسس والقذارة[٤٤] . واتبع فولتير نفس العادة المألوفة فملأ المسرح بأصدقائه أو « بالأخوة » ونافست

هذه الرواية رواية باليسو فى شعبيتها واقبال الجمهور على مشاهدتها ، ومثلت ست عشرة مرة فى خمسة أسابيع . وخرج فريرون من العاصفة سالما بحضوره العرض الأول مع زوجته الجميلة ، وواضح أنه كان أول المصفقين . وتبين فولتير مزاج غريمه . فأذا سأل زائر عمن يؤخذ رأيه فى قيمة الكتب الجديدة أو مزاياها ، أجاب فولتير بقوله « أرجعوا إلى هذا الوغد فريرون ... إنه الرجل الوحيد الذى له ذوق . إنى مضطر إلى الاعتراف بهذا على الرغم من أننى لا أحبه »(٤٥) .

٣ – سقوط اليسوعين

كشف الأنهيار السريع « لجمعية يسوع » عن روح العصر ومزاجه ، ولو أن هذا السقوط نتيجة لتصرف برلمان باريس أكثر منه نتيجة لعمل الفلاسفة . أن مؤسسها إطلق عليها إسم « عصبة (شركة) يسوع » وأقرها البابا بول الثالث ١٥٤٠ تحت إسم مجتمع يسوع – أى هيئة دينيية تتبع قاعدة محددة ، تعيش على الصدقات . وقد أصبح هؤلاء « اليسوعيين » كما سماهم النقاد – على مدى قرن من الزمان أقوى جماعة من رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية . وما وافى عام ١٥٧٥ حتى كانوا قد أسسوا فى فرنسا وحدها أثنتى عشر كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب فى فرنسا . ولمدة مائتى عام اختار ملوك فرنسا كهنة إعترافهم من بينهم ، وحذا سائر الحكام الكاثوليك حذوهم . وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل بات لهؤلاء اليسوعين أو « جماعة يسوع » أبلغ الأثر فى تاريخ أوربا بأسرها .

ومنذ بداية عهد اليسوعين فى باريس تقريباً كان البرلمان والسوربون يقاومانهم . وفى ١٥٩٤ اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان شاتيل الاعتداء على حياة هنرى الرابع . وفى ١٦١٠ اتهمهم البرلمان بتحريض رافياك على قتل الملك ، وأيد البرلمان هذه الاتهامات بالإشارة إلى بحث اليسوعى الأسبانى ماريانا الذى دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك فى

ظروف معينة . ولكن جماعة يسوع إزدادت عدداً وقــوة وسلطانا وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى مهاجمة الجانسنيين فى بورت رويال ، على أنهم كلفنيون تحت شعار أنهم كاثوليك . ولاتزال الإقلية المتعلمة تذكر « الرسائل الإقليمية » التى كتبها يسكال١٦٥٦ ، ومع ذلك فأنه فى ١٧٤٩ كانت جماعة يسوع تضم ٣٣٥٠ عضوا فى فرنسا من بينهم ١٧٦٣ كاهنا . وبرزوا بين رجال الدين فى فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين وأفصح الوعاظ ، وأتقى المدافعين عن الكنيسة ، وأنشطهم وأنجحهم ، وأسهموا فى كثير من العلوم ، وأثروا فى تطوير الفنون ، وكانوا باجماع الآراء أفضل المعلمين فى أوربا . وكانوا يتميزون بصرامة أخلاقهم ، ومع ذلك لجأوا إلى كل ألوان التحايل للتخفيف من متطلبات الاخلاق المسيحية عند الرجل العادى ، وحتى مــع هذا لم يتغاضوا قط عن فسق النبلاء والملوك وفجورهم ، وبفضل إعدادهم أو تربيتهم الشاقة ومثابرتهم الصابرة ، جعلوا من أنفسهم قوة تسيطر على سياسات الملوك وعقول الناس . وبدا فى بعض الأحيان أن أوربا بأسرها قد تدعن لصلابة ارادتهم المتحدة المتميزة بالنظام والانضباط .

أن قوة اليسوعيين هى تقريباً التى قضت عليهم . وبدا واضحا كل الوضوح لدى الملوك أن تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة فى مسائل الإيمان والاخلاق وغيرها ، إذا لم يوضع له حد سيجعل من كل الحكام المدنيين أتباعا للبابوات ، ويعيد سلطان رومه الامبراطورية . أنهم ولو أنهم كانو أقرب الجماعات إلى آذان الملوك ، دافعوا عن حق الشعب فى خلع الملك . أنهم ولو أنهم كانو متحررين نسبيا فى اللاهوت والاخلاق ، وسعوا إلى التوفيق بين العلم والكنيسة ، فأنهم شجعوا ورع الناس بتأييدهم دعوى مرجريت مارى الاكوك بأن المسيح كشف لها عن « قلبه المقدس » الذى يتحرق حباً للبشر . إنهم أنشأوا وبنوا عقول ديكارت وموليير وفولتير

وديدرو ، لمجرد أن يروا هؤلاء الرجال اللامعين ينقلبون عليهم وعلى نظام التعليم اليسوعى .

وأتهم منهج المدارس اليسوعية بتعلقه الشديد وحرصه البالغ على اللغة اللاتينية ، إلى حد أنه عوق نمو المعرفة باستبعاد كل شيء اللهم إلا الأفكار التقليدية . إنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغى على الذاكرة ، وعلى الطاعة العمياء السلبية . ومن ثم فان قيمة الدراسة فقدت كثيراً بسبب حاجة العصر إلى قدر أكبر من الاستفادة بالعلوم ، وإلى نظرة أكثر واقعية إلى الحياة البشرية . وعلى ذلك فأن دالمبير فى مقاله عن « الكلية » فى الموسوعة رثى للسنوات الست التى قضاها الطلبة فى المدارس اليسوعية فى دراسة لغة ميتة ، وأوصى بمزيد من الاهتمام باللغتين الانجليزية والايطالية والتاريخ والعلوم والفلسفة الحديثة . وأهاب بالحكومة أن تسيطر على التعليم ، وتدخل منهجا جديدا للدراسة فى مدارس جديدة . وفى ١٧٦٢ نشر روسو كتابه « إميل » أعلن فيه ثورة على التعليم .

ومهما يكن من أمر فأن الفلاسفة كانوا عاملا أقل شأنا فى سقوط اليسوعيين فى فرنسا . إن نوعا من الهدنة المتبادلة خيم على العداء المتبادل ، ذلك أن الكفار احترموا علم اليسوعيين وخلقهم ، وهؤلاء من جانبهم كانوا يأملون بالأناة والصبر فى معالجة الأمور فى أن يعيدوا هؤلاء المتشككين الخطائين إلى حظيرة الدين القويم . ووجد فولتير أنه من العسير عليه أن يشن الحرب على معلميه السابقين . وكان قد أرسل روايته « هنرياد » إلى الأب بورى راجيا أياه أن يصحح ما قد يكون فيها من فقرات تسيء إلى الدين[٤٦]. وفى كتابه « معبد الذوق » كان قد إمتدح فى اليسوعيين تقديرهم لقيمة الأدب وكثرة استخدامهم للرياضيات فى تعليم الشباب . وتجاوبت معه صحيفة تريفو بنشر تقريظ لرواية هنرياد ، وكتابى « شارل الثانى » و « فلسفة نيوتن » . وانتهى هذا الأتفاق شبه الودى حين لحق فولتير بفردريك فى بوتسدام ، فتخلى عنه زعماء اليسوعيين عند ذاك باعتباره نفسا ضائعة . ولكن

فى أواخر ١٧٥٧ حاول بعضهم التوفيق بين فولتير وجماعة يسوع[٤٧]. وفى فرنى (فى ١٧٥٨ وما بعدها) احتفظ فولتير بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين واستمتع نفر منهم بكرم وفادته . وكان فى نفس الوقت قد هاجم الكنيسة فى مائة صحيفة فى كتابه « رسالة فى العادات والاعراف » . كما كان يكتب مقالات ضد المسيحية للقاموس الفلسفى . وعندما سمع بنبأ مهاجمة رئيس الوزراء كارفالو لليسوعيين فى البرتغال (١٧٥٧) واحراق مالاجريدا اليسوعى (١٧٦٤) شجب اتهامات كارفالو بأنها غير عادلة وإعدامه بأنه قسوة غاشمة[٤٨] . ولكنه طوال تلك السنوات كان هو نفسه فى حرب مع الكنيسة ، وكانت كتابات « أخوته » ديدرو ودالمبير وموريليه تسهم فى اضعاف اليسوعيين فى نرنسا .

وربما أسهمت المحافل الماسونية ، المخصصة بصفة عامة لمذهب اليبوبية فى عملية تقويض أركان اليسوعيين وأضعافهم . ولكن أقوى التأثيرات فى المأساة كانت شخصية متعلقة بصراعات طبقية . ولم تستطع مدام دى بمبادور أن تنسى أن اليسوعيين قاوموا كل خطوة فى سبيل تسنمها مراقى العظمة والسلطان ، وأنكروا الغفران للملك مادام يحتفظ بها ، ورفضوا أن ينظروا بعين الجد إلى عودتها المفاجئة إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين. وأعلن الكاردينال برنيس وكان لأمد طويل ذا حظوة لدى المركيزة ، أن قمع حركة اليسوعيين فى فرنسا يرجع أساساً إلى إمتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام دى بمبادور على الرغم من توكيدانها بأن علاقاتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية[٤٩] . وردد الملك صدى استيائها : لماذا كان هؤلاء الكهنة متساهلين مع الآخرين ، قساة متشددون مع المرأة التى أضاءت جوانب حياته المرهقة الموحشة ؟ لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الإعتمادات اللازمة لجيشه وبحريته فى حرب مشئومة تنذر بكارثة ، ومن أجل ملابس عشيقته وأجور تدريبها وإعدادها فى « منتدى

الظباء » وكان دامين قد حاول قتل الملك ، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحاولة ولكن كان لدامين كاهن إعتراف يسوعى . ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل الملوك ؟ وبدأ الملك يصغى إلى شوازيل والى بعض شبه إنصار فولتير فى وزارته » ممن قالوا بأن الوقت قد حان لتخليص الدولة من ربقة وصاية الكنيسة ، وإقامة نظام إجتماعى إخلاقى مستقل عن رجال الدين النزاعيين إلى تعويق إنتشار المعرفة ، وعن لاهوت العصور الوسطى . وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة فى الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين فلم لا تقدم فرنسا المستنيرة على مثل هذا ؟

وتأثر اليسوعيون بهذه العداوات المختلفـــة وأشتد الارتياب فى أنهم ربطوا بين فرنسا والنمسا فى حرب السنين السبع ، ومن ثم فأنهم تعرضوا لكراهية مفاجئة بشكل غريب . وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردزيك فى روسباخ ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفا فى باريس ، بات اليسوعيين هدفا للنكات والشائعات والأفتراءات المشوهة للسمعة حتى إلى حد الأتهام باللواط[٥٠] ، واتهموا بالأنهماك فى متاع الدنيا وبالهرطقة وبجمع الثروة وبأنهم عملاء لدولة أجنبية . وإنتقد كثير من رجال الدين غير المنتسبين إلى طوائف لاهوتهم بأنه متحرر أكثر مما ينبغى ، وإفتاءهم فى قضايا الضمير والسلوك والأخلاق بأنه مفسدة للاخلاق ، وسياستهم بأنها تقوم على إرتماء فرنسا فى أحضان رومه . وفى ١٧٥٩ كتب دالمبير إلى فولتير « إن الأخ برتييه والمتواطئين معه لايجرؤون على الظهور فى الشوارع فى هذه الأيام خشية أن يلقى الشعب بالبرتقال البرتغالى على رؤوسهم »[٥١]

وكان برلمان باريس أعظم القوى التى إنقلبت على اليسوعيين عداء ، وكانت هذه الجماعة تتألف من محامين وقضاة يتدثرون فى أردية كئيبة رهيبة مثل الملابس الكهنوتية ، وينتمون إلى طبقة « نبلاء الرداء » .

إن هذه الأرستقراطية الثانية المنظمة تنظيما جيدا، الذربة اللسان كانت ترقى مدارج السلطة والسطوة بسرعة ، وكانت متلهفة على تحدى سلطان رجال الدين . وفوق هذا كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين . وعلى الرغم من كل القمع عاناه الجانسنيون فإن هذا المذهب المتشدد ، وهو نتاج تشدد القديس بولص فى مسيحية المسيح وهى أيسر وأخف ، إجتذب قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى فى فرنسا ، وعلى الأخص تلك العقول القانونية التى أحست منطقه ، ورأت فيه وقفة قوية ضد اليسوعيين . واتضح الآن بما لأيدع مجالا للشك أن اليسوعيين هم الذين ألحوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير بورت رويال تدميرا تاما ، وإكراههم الشديد على قبول المرسوم البابوى البغيض الذى جعل من الجانسنية هرطقة أنكى من الالحاد . فهل تحين الفرصة للرد على هذا الايذاء بمثله والأنتقام لمثل هذا الأضطهاد !

وهيأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة . إنهم لعدة أجيال مضت قد إشتغلوا بالتجارة والصناعة ، وسيلة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكلياتهم وبعثاتهم التبشيرية وسياستهم . إنهم فى رومه احتكروا كثيراً من نواحى الإنتاج والحرف والصناعات . وفى آنجرز بفرنسا أسسوا مصنعا لتكرير السكر(٥٢) ، واحتفظوا بمراكز تجارية فى كثير من الأراضى الأجنبية مثل جوا . وكانوا من أغنى المقاولين فى مستعمرات إسبانيا والبرتغال فى أمريكا(٥٣) . وجأرت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة . حتى أن الكاثوليك الأفاضل تعجبوا كيف أن طائفة نذرت نفسها للتقشف مثل اليسوعيين تجمع مثل هـــذه الثروة . وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب إنطوان دى لا فالت Valette الرئيس الأعلى لليسوعيين فى جزر الأنتيل الذى أدار باسم الجماعة مزارع وأسعة فى جزر الهند الغربية واستخدم آلافا من المواطنين السود(٥٤) وصدر السكر والبن إلى أوربا . وفى ١٧٥٥ إقترض مبالغ ضخمة من مصارف مرسليا ، ولسداد هذا القرض

أرسل فرنسا سفنا محملة بالبضائع التى تقدر قيمتها بمليونى فرنك (٥ ملايين من الدولارات) ، ولكن البوارج الانجليزية استولت عليها سنة ١٧٥٥ فى مقدمات حرب السنين السبع . وأملاً فى تعويض هذه الخسائر اقترض فالت مبالغ أكبر ، ولكنه أخفق وأعلن افلاسه ، وهو مدين بمبلغ ٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنك . وطالب الدائنون بالدفع ، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئوليتها عن ديون لا فالت . ورفض زعماء اليسوعيين زاعمين أنه تصرف بصفة فردية ، لا باسم الطائفة ، وأقام أصحاب المصارف دعوى على الجماعة فنصحهم الأب فرى Frey الخبير السياسى لها فى فرنسا بعرض الأمر على البرلمان . وتم هذا فى مارس ١٧٦١ ، وتعلق مصير الطائفة بأيدى أقوى أعدائها . وفى الوقت نفسه أرسل أحد اليسوعيين رسالة سرية إلى الملك يوصى فيها بطرد شوازيل من الوزارة بوصفه عدوا للجماعة والدين ، ودافع شوازيل عن نفسه بنجاح .

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التى تكشف عن تنظيم الجماعة وأنشطتها . وفى ٨ مايو أصدر حكما فى مصلحة الشاكين ، وأمر الجماعة بتسوية كل ديون لا فالت . فشرع اليسوعيين فى عمل بعض التسويات مع الدائنين الأصليين[٥٥] . ولكن فى ٨ يوليو قدم الراهب Terray إلى البرلمان تقريرا عن « المذهب الخلقى والعملى لجماعة اليسوعيين» . وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان فى ٦ أغسطس قرارين قضى أحدهما بأحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين فى القرنين السابقين لأنها تعلم مبادىء « بغيضة تدعو إلى سفك الدماء » وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الأنضمام إلى عضوية الجماعة بعد الآن فى فرنسا . كما قضى بأنه حتى أول أبريل ١٧٦٢ ، يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التى تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها . أما القرار الثانى فأباح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة فى الجماعة أو بواسطتها . وفى ٢٩ أغسطس أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين ، ووافق

البرلمان على تعطيلهما مؤقتا حتى أول إبريل . وحاول الملك المنزعج الوصول إلى تسوية وسط . وفى يناير ١٧٦٢ أرسل إلى كليمنت الثالث عشر وإلى لورنزو رتشى رئيس اليسوعيين اقتراحاً بأن تفوض منذ الآن فصاعدكل سلطاته فى فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين يقسمون اليمين على طاعة القانون الفرنسى ، ومواد قانون ١٦٨٢ التى أحلت الكنيسة الفرنسية فى الواقع من الخضوع للبابا . وفوق ذلك يجب أن تكون المدارس اليسوعية خاضعة لتفتيش البرلمانات . ولكن البابا وريتشى رفضا الاقتراح فى شىء من التحدى « فليبق اليسوعيون كما هم أو لا يبقون مطلقا »[٥٦] . ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت برجال الدين الفرنسيين مباشرة . وفى هذا خرق للقانون الفرنسى . ورفض رجال الدين الفرنسيون رسالة البابا وأحيلت إلى الملك الذى أعادها إلى البابا .

ودخلت البرلمانات الإقليمية الآن حلبة النزاع وأضافت بعض التقارير التى تلقتها مزيداً من الاتهامات الموجهة إلى اليسوعيين . وأثر برلمان رن Rennes فى بريتانى بالتقرير الذى قدمه النائب العام لويس رينيه دى لاشالوتيه فى ١٧٦١ — ١٧٦٢ عن « نظام اليسوعيين » الذى اتهم فيه الجماعة بالهرطقة والوثنية والأعمال غير المشروعة والدعوة إلى قتل الملوك ، وأكد أنه لزام على كل يسوعى أن يقسم يمين الطاعة المطلقة للبابا ورئيس الطائفة الذى كان يقيم فى رومه. وأنه بناء على ذلك تكون الجماعة بمقتضى دستورها خطراً يهدد فرنسا ومليكها ، ومن ثم ألح التقرير على أن يكون تعليم الأطفال حقاً مطلقاً للدولة لامراء فيه . وفى ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان روان كل اليسوعيين فى نورمندى بإخلاء دورهم وكلياتهم وعزل كل المديرين الأجانب ، وقبول القانون الفرنسى . وصدرت قرارات مماثلة من البرلمانات فى رن ، اكس أن بروفانس ، بو ، بريبنان ، تولوز ، وبوردو . وفى أول أبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ونقل إدارة المدارس اليسوعية فى دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين .

وحاول رجال الدين الذين لاينتمون إلى طوائف على الرغم من أنهم من الناحية التقليدية يحقدون على اليسوعيين، نقول حاولوا إنقاذهم، ووجهت جمعية من الأساقفة الفرنسيين فى أول مايو نداء إلى الملك من أجل هذه الطائفة : التى هى نظام مفيد للدولة ... وهم جماعة من المتمسكين بالدين الجديرين بالثناء، لنزاهة أخلاقهم وشدة انضباطهم، واتساع نطاق نشاطهم وعملهم وسعة إطلاعهم وعلمهم، والخدمات التى لاتحصى التى قدموها للكنيسة ... إن كل شيء يا صاحب الجلالة يناشدك العطف على اليسوعيين.

إن الدين يرى فيهم المدافعين عنه، وترى فيهم الكنيسة خدامها، كما يرى فيهم المسيحيون حراساً على ضمائرهم، إن عدداً كبيراً ممن كانوا تلاميذهم يتشفعون لديك من أجل معلميهم القدامى. وإن كل شباب مملكتك يدعون ويصلون من أجل أولئك اليسوعيين الذين يشكلون عقولهم وقلوبهم. نرجو يا مولاى أن تعير أذناً صاغية إلى توسلاتنا التى أجمعنا على تقديمها إلى جلالتكم (٥٧).

وأضافت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين فى الحاشية تضرعاتهم من أجل اليسوعيين. ولكن شوازيل وبمبادور نصحا الملك آنذاك قطعاً بالأذعان للبرلمان وإغلاق المدارس اليسوعية. وذكرا لويس بأن عليه أن يفرض ضرائب جديدة، وأن هذا يتطلب موافقة البرلمان وعلى حين كان الملك متردداً بين هذه النصائح المتضاربة، اتخذ البرلمان خطوات حاسمة. وفى ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لاتلتئم مع قوانين فرنسا، وأن الإيمان التى أقسمها الأعضاء، طغت على ولائهم للملك، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية جعل منها هيئة أجنبية داخل دولة مفروض أنها ذات سيادة. وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة فى فرنسا، وبتخلى كل الجزويت فى بحر ثمانية أيام عن كل ممتلكاتهم فى فرنسا، فأعلن أنها صودرت لجانب الملك.

وأخر الملك تنفيذ هذا القرار تنفيذاً كاملا لمدة ثمانية شهور. ورفض

برلمانا بيزانسون ودواى الامتثال لهذه القرارات ، على حين أطال ثلاثة برلمانات ديجون وجرينوبل ومتز الجدل والمناقشة كسباً للوقت . ولكن برلمان باريس أصر . وأخيراً فى نوفمبر ١٧٦٤ أمر لويس بوقف نشاط جماعة اليسوعيين وقفاً تاماً فى فرنسا . وبلغت قيمة الممتلكات المصادرة نحو ٥٨ مليوناً من الفرنكات(٥٨) ، وربما ساعد هذا على موافقة الملك على حل هذه الطائفة . وخصص معاش ضئيل لليسوعيين السابقين ، وسمح لهم بالبقاء فى فرنسا لبعض الوقت . ولكن فى ١٧٦٧ قرر البرلمان وجوب مغادرة كل اليسوعيين السابقين أرض فرنسا . وتبرأ قليل منهم من الطائفة وبقوا فى فرنسا .

وكان رحيلهم موافقاً للنبلاء والطبقة الوسطى والمثقفين ورجال الأدب والجانسنيين ، ولكن لم يرق فى أعين بقية الأهالى . واستنكر كريستوف دى بومونت رئيس أساقفة باريس تصرفات البرلمان بشدة ، وعبرت مجموعة رجال الدين الفرنسيين (١٧٦٥) بالاجماع عن حزنها وأسفها لحل الجماعة ودعت إلى إعادتها . وأعلن البابا كليمنت الثالث عشر فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فأحرق المدعى العام المرسوم فى شوارع عدة مدن ، على أساس إن البابوات ليس لهم حق مشروع فى التدخل فى شئون فرنسا(٥٩) . ورحب الفلاسفة فى أول الأمر بطرد اليسوعيين باعتباره إنتصاراً مشجعا للفكر الحر . وأورد دالمبير فى سرور تعليق جان أستروس العالم الباحث فى الأسفار المقدسة ، والذى قال فيه « إن الموسوعة ، لا الجانسنيين ، هى التى قضت على اليسوعيين(٦٠) . وزادت الآن بسرعة مطبوعات الفكر الحر . وفى عقد السنين التى تلت عملية الطرد ، قارب دى هولباخ ومعاونيه حد الإلحاد .

ومهما يكن من أمر فثمة تفكير ثان ، وهو أن الفلاسفة أدركوا أن الأنتصار يرجع إليهم أقل مما يرجع إلى الجانسنيين والبرلمانات ، وأن الفكر الحر ترك ليواجه عدوا أشد تعصبا من اليسوعيين بكثير(٦١) . وعبر دالمبير فى كتابه « تاريخ القضاء على اليسوعيين » عن إبتهاج يسير بمصيرهم :

يقيناً إن العدد الأكبر منهم ، الذين لم يكن لهم صوت فى إدارة الأمور كان يجدر ألا يتحملوا وزر أخطاء رؤسائهم ، إذا كان هذا التفريق بين هؤلاء جائزاً من الوجهة العملية . وهنـــاك آلاف من الأبرياء خلطنا مع الأسف بينهم وبين عشرين شخصاً مذنبين . . . إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة ألا يرقى تعصب الجانسنيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .

وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التى هى أقل طغياناً وجوراً . فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ويتكيفون معهم ، شريطة إلا يعلن المرء عداءه لهم أجازوا للمرء أن يفكر كيفما شاء . أما الجانسنيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم . وإذا قدر لهم أن يسودوا لفرضوا على الناس تحكماً شديداً فى الاذهان والكلام والاخلاق[٦٢] .

وكأنما أراد برلمان باريس الذى سيطر عليه الجانسنيون أن يضرب أمثلة توضح وجهة النظر هذه فأصدر فى نفس عام ١٧٦٢ الذى أمر فيه بحل جماعة يسوع أمراً باحراق كتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبياً . وفى تلك السنة أعدم برلمان تولوز الذى تحكم فيه الجانسنيون كذلك ، جان كالاس ، وأحرق برلمان باريس فى ١٧٦٥ قاموس فولتير الفلسفى . وبعد ذلك بعام وأحد ثبت حكم التعذيب والإعدام الصادر على الشاب شيفالييه دى لابار من محكمة آبفيل .

وفى ٢٥ سبتمبر ١٧٦٢ كان دالمبير قد كتب إلى فولتير : « هل تعلم ماذا سمعت عنك بالأمس ؟ سمعت أنك بدأت ترثى لحال اليسوعيين ، وأنك واقع تحت إغراء الكتابة فى مصلحتهم »[٦٣] لقد كان فى قلب فولتير دائماً رصيد من الشفقة والعطف ، والآن وقد بدا أن المعركة ضد جماعة يسوع قد كسبت تماماً فإنه كان يسمع أصواتاً من اللوم والعتاب من معلميه الذين قضوا نحبهم . وأخذ إلى داره فى فرنى أحد اليسوعيين السابقين ،

هو الأب آدم الذى تسلم صدقاته ، وغلبه دائما فى الشطرنج . وحذر فولتير شالوتيه بقوله « إحترس حتى لا يوقع الجانسنيون يوما من الضرر والأذى قدر ما أحدث اليسوعيون .... وماذا يفيدنى أن إتخلص من الثعالب إذا أسلمونى للذئاب »[٦٤]. أنه خشى أن يعمد الجانسنيون مثل البيوريتانيين فى القرن السابع عشر فى انجلترا إلى إغلاق المسارح ، والمسرح كل هوى نفسه الأثير لديه تقريبا ، ومن ثم كتب إلى دالمبير « كان اليسوعيون ضروريين ، وكانوا ضربا من التسلية ، وكنا نسخر منهم ، أما الأن فسوف يسحقنا المتحذ لقون »[٦٥]. وكان على استعداد للصفح عن اليسوعيين لمجرد أنهم أحبوا الآداب القديمة والمسرحية[٦٦] .

وشاركه صديقه وعدوه فردريك الأكبز فى هذه المشاعر . وسأل الأميردى لين ١٧٦٤ : « لماذا قضوا على مستودع نفائس أثينا وروما ، معلمى الإنسانيات وربما الإنسانية الممتازين ، وهم اليسوعيون ؟ أن التعليم سيعانى من القضاء عليهم....ولكن حيث أن الأخوة الملوك الأكثر كثلكة ومسيحية وإخلاصا وإيمانا ورسولية قد طردوهم ، فانى وأنا الأكثر هرطقة سأجمع أكبر عدد منهم وأحافظ عليهم »[٦٧] .

وعندما أنذر دالمبير بأنه سوف يأسف لهذا الود واللطف وذكره بأن اليسوعيين كانوا يعارضون غزوه لسيليزيا أنب الملك الفيلسوف بقوله :

« لا تنزغج من أجل سلامتى . أنى ليس لدى ما أخشاه من اليسوعيين ، إنهم يستطيعون تعليم شباب البلاد وهم أقدر على ذلك من غيرهم — حقا إنهم كانوا يعارضوننى أثناء الحرب ، ولكنك بصفتك فيلسوفا يجدر بك إلا تلوم أحدا لكونه عطوفا رحيما مشربا بالروح الإنسانية تجاه أى فرد من الجنس البشرى مهما كان من أمر دينه أو الجماعة التى ينتمى إليها . حاول أن تكون فيلسوفا أكثر منك ميتافيزيقيا »[٦٨] .

وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها ١٧٧٣ أبى فردريك السماح بنشر المرسوم البابوى فى مملكته.وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم فى بروسيا وسيليزيا .

ولم تعكر كاترين الثانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم فى الجزء الذى استولت عليه من بولندة ١٧٧٢ ، وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلو إلى روسيا فيما بعد . وثابروا وصبروا فى جهد متواصل حتى عودتهم (١٨١٤) .

٤ — التعليم والتقدم

ولكن من ذا الذى يتولى الآن تعليم شباب فرنسا بعد أن ذهب اليسوعيون ؟ هنا حدثت فوضى ، ولكن حدثت كذلك ثورة وإنقلاب فى عالم التربية والتعليم .

إن شالوتيه وهو بعد متحمس لأتهامه لليسوعيين ، إنتهز الفرصة وقدم لفرنسا رسالة عن التعليم القومى « (١٧٦٣) هالل لها الفلاسفة مرحبين بها . والآن كانت دعواه تقوم على أساس أنه لا يجدر بالمدارس الفرنسية أن تنتقل من أخوة دينية (طائفة) إلى أخرى — على سبيل المثال من طائفة « الأخوة المسيحيين » إلى « طائفة الأوراتوريين » . أنه لم يكن ملحدا ، إنه على الأقل رحب بتدعيم الدين للفضيلة والاخلاق القويمة ، إنه يود تلقينها واحلالها المحل اللائق بها ، ولكنه لا يرضى بسيطرة رجال الدين على التعليم . وسلم بأن كثيرين منهم كانوا معلمين ممتازين لا ينافسهم أحد فى صبرهم وجلدهم وأخلاصهم ، ولكنه إحتج بأن تحكمهم فى فصول الدراسة بغلق الأذهان أن عاجلا أو آجلا دون الفكر الأصيل ، يغرس فى نفوس التلاميذ الولاء لدولة أجنبية ، ويجب أن تلقن مبادى الاخلاق مستقلة عن أى مذهب دينى « يجب أن يكون لقوانين الأخلاق الأسبقية على كل القوانين سماوية كانت أو بشرية ، وينبغى أن تستمر ولو لم تعلن هذه القوانين الأخيرة مطلقا»[٦٩]. إن شالوتيه كذلك رغب فى غرس المبادىء، ولكن كذلك أراد تلقين المثل العليا الوطنية[٧٠] « إنى أطالب للأمة بتعليم يعتمد على الدولة وحدها »[٧١]. ويجب أن يكون المعلمون علمانيين ، وإذا كانوا كهنة فيجدر ألا يكونوا من المنتمين لطائفة دينية . ويجب أن يكون الغرض من التعليم هو إعداد الفرد

لا للسماء بل للحياة ، ولا للطاعة العمياء بل للخدمة الممتازة فى مجالات المهن والإدارة وفنون الصناعة . ويجب أن تكون الفرنسية لا اللاتينية لغة التعليم ، ويجب أن يخصص للغة اللاتينية وقت أقل وللانجليزية والإلمانية زمن أكبر . ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم . ومن أدنى المراحل حتى الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة يمكن استيعاب مبادىء الجغرافيا والفيزياء والتاريخ الطبيعى . كذلك التاريخ ينبغى أن يكون له مكان أكبر فى التعليم المدرسى . « ولكن الذى يعوز فى العادة من يكتبون التاريخ ومن يقرأون التاريخ على حد سواء هو الذهن الفلسفى »[72]. وهنا قلد شالوتيه فولتير أكليل الغار وشهد له بالسبق فى هذا المضمار . وفى المراحل المتأخرة يجب أن يكون ثمة تعليم الفن وتربية الذوق . ويجب توفير الوسائل لتعليم الأناث ، ولكن ليس من الضرورى تعليم الفقراء ، فإن ابن الزارع لن يتعلم فى المدرسة خيرا مما قد يتعلم فى الحقل ، وإن تعليمه شيئا غير هذا سيجعله غير راض عن طبقته.

وصعق هلفشيوس وترجو وكوندورسيه لهذا الرأى الأخير ، ولكن فولتير استحسنه وكتب إلى شالوتيه « أشكرك على تحريم التعليم على العمال . وأنا الذى أزرع الأرض إحتاج إلى عمال يدويين لا إلى رجال دين حليقى الرؤوس ، أرسل إلى أخوة جهلة حقاً ليقودوا مركباتى أو يهيئوها للاستخدام »[73]. وكتب إلى داميلا فيل الذى كان قد إقترح التعليم للجميع « أشك فى أن أولئك الذين يكسبون قوتهم باستخدام عضلاتهم يكون لديهم فسحة من الوقت ليتعلموا ، وسيموتون جوعا قبل أن يصبحوا فلاسفة ... وليس العامل اليدوى هو الذى يجب أن نعلمه بل البرجوازى ساكن المدينة »[74]. وفى مواضع أخرى تنازل فأيد تعليم الجميع التعليم الإبتدائى ، ولكنه كان يأمل فى تقييد التعليم الثانوى إلى حد يسمح بترك فئة كبيرة من العمال اليدويين ليقوموا بالأعمال البدنية فى المجتمع[75] . إن أول مهمة للتعليم فى رأى فولتير هى وضع حد للتعليم للكنسى الذى رأى أنه مسئول عن الخرافات التى أمتلأت بها عقول الجماهير وعن تعصب الناس .

وبناء على طلب كاترين الثانية ١٧٧٣ رسم ديدرو « خطة لجامعة لحكومة روسيا » . واستنكر مثـل شالوتيه المنهج التقليدى فى عبارات نسمعها نحن اليوم :

« لايزال يدرس فى كلية الآداب لغتان ميتتان لايستخدمهما إلا نفر قليل من المواطنين ، وهاتان اللغتان تدرسان لمدة ست أو سبع سنوات دون أن يحفظا . وتحت اسم البلاغة يدرس فن الكلام قبل فن التفكير ، وتحت اسم المنطق يملا الرأس بتفاصيل دقيقة من أرسطو . . . وتحت أسم الميتافيزيقيا تبحث نقاط تافهة معقدة تضع أساس التشكك والتعصب كليهما . وهناك تحت اسم الفيزياء نزاع لا حد له حول المادة ونظام العالم دون كلمة واحدة عن التاريخ الطبيعى (الجيولوجيا والميبولوجيا) . أو عن الكيمياء وعن حركات الأجسام وجاذبيتها . وهناك تجارب قليلة جداً . ولاتزال الدراسة التشريحية قليلة وليس هناك جغرافيا(٧٦) .

ونادى ديدرو يسيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين ، ومزيد من العلوم . فينبغى أن يكون التعليم عمليا يخرج الزراعين والفنيين المتخصصين والأفراد العلميين والمديرين . ويجب إلا تدرس اللغة اللاتينية إلا بعد سن السابعة عشرة ، ويمكن حذفها كلية إذا لم يتطلع الطالب إلى استخدامها . ولكن لا يمكن أن يكون الإنسان أديبا دون معرفة باليونانية وللاتينيه(٧٧) . وحيث أن العبقرية قد تظهر فى أية طبقة فينبغى أن تكون المدارس مفتوحة أمام الجميع دون أجر ، ويجب أن يقدم الطعام للفقراء ويزودوا بالكتب بالمجان(٧٨) .

وإذ هوجمت الحكومة الفرنسية على هذا النحو فأنها جاهدت لتفادى توقف التعليم نتيجة طرد اليسوعيين ، وخصصت الممتلكات المصادرة من الطائفة إلى حد كبير لأعادة تنظيم المدارس الخمسمائة فى فرنسا . وجعلت هذه المدارس جزء من جامعة باريس . وحولت كلية لويس الأكبر إلى مدرسة للمعلمين لتدريب المدرسين ، وحددت الرواتب على أساس بدا معقولا .

وأعفى المدرسون من الضرائب البلدية ووعدوهم بمعاش تقاعد عند إنتهاء الخدمة . وقبل البندكتيون والأوراتوريون والأخوة المسيحيون الانخراط فى سلك المعلمين ، ولكن الفلاسفة شنوا حملة ضدهم احدثت أثرا يذكر . وظل المذهب الكاثوليكى جزءا هاماً فى المنهج ولكن العلوم والفلسفة الحديثة بدأت تحتل مكان أرسطو والاسكولاسيين (الفلاسفة المسيحيين فى العصور الوسطى) ، وحاول بعض المدرسين المدنيين أن ينقلوا أفكار الفلاسفة[٧٩] . وأنشئت المعامل فى الكليات مع أساتذة للفيزياء التجريبية ، وفتحت المدارس الفنية والحربية فى باريس والأقاليم . وكانت ثمة تحذيرات كثيرة بأن خطة الدراسة الجديدة ستعمل على تحسين العقول لا الأخلاق . وقد تضعف الفضيلة والانضباط وتؤدى إلى الثورة[٨٠] .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة بنوا آمالهم للمستقبل على اصلاح التعليم. إنهم بصفة عامة إعتقدوا بأن الإنسان خير طيب بالطبيعة ، وأن بعض انحرافات زائفة أو شريرة كهنوتية أو سياسية هي التى أفسدته ، وكل ما ينبغى عليه أن يفعله هو أن يطهر نفسه من الخداع والبدع ويعود إلى « الطبيعة » التى لم يحددها أحد بعد تحديدا مرضيا . وهذا كما سنرى كان لب الموضوع عند روسو . وقد لحظنا إيمان هلفشيوس « بأن التعليم يمكن أن يغير كل شيء »[٨١] . وحتى فولتير المتشكك نفسه ذهب فى بعض الحالات إلى أننا جنس من القردة يمكن أن يتعلم أن يتصرف تصرفا عقلانيا أو غير عقلانى[٨٢]. وأصبح الإيمان بامكانات التقدم التى لا حدود لها عن طريق تحسين التعليم والتوسع فيه أحد التعاليم الهامة فى الديانة الجديدة . إن السماء واليوتوبيا هما الدلوان المتنافسان اللذان يحومان حول بئر المصير والقدر فإذا هبط أحدهما صعد الآخر ، والأمل يرفع الواحد منهما أو الآخر إلى أعلى كل بدوره . وربما إذا صعد كلا الدلوين خاليا وهنت المدنية وبدأت تفنى .

وفى ١١ ديسمبر ١٧٥٠ صاغ ترجو العقيدة الجديدة فى محاضرة فى السوربون بعنوان « الخطوات المتعاقبة إلى الأمام فى الذهن البشرى » :

« إن الجنس البشرى إذا تأملناه من القدم يبدو لعين الفيلسوف كلا مترامى الأطراف ، له مثل الكائن الفرد مرحلة طفولته وتقدمه . . . فتصبح آداب السلوك أكثر رقة وتهذيبا والذهن أكثر تنورا ، وتتقارب بعضها من بعض الأمم التى كانت آنذاك منعزلة ، وتربط التجارة والعلاقات السياسية أركان الكرة الأرضية بعضها ببعض ، ويستمر الجنس البشرى بأسره فيما بين تقلبات الهدوء والعاصفة وتقلبات الأيام حلوها ومرها فى مسيرته قدما ، ولو بخطى وئيدة نحو كمال يقترب منه دوما[٨٣] . ووافق فولتير على هذا متردداً ، فهو يقول :

« قد نؤمن بأن العقل والصناعة سوف تتقدمان أكثر فأكثر ، وتتحسن الفنون الناقصة . وأنه من بين الشرور والمساوىء التى تنتاب بنى الإنسان ستختفى شيئا فشيئا الحزازات بين من يحكمون الأمم ، ولو أن تلك الحزازات ليست أقل الكوارث ، وأن الفلسفة بانتشارها على أوسع نطاق سيكون فيها عزاء لأرواح البشر عن المصائب التى يتعرضون لها فى كل العصور[٨٤] . »

ورحب الفيلسوف المحتضر بتولى ترجو زمام السلطة فى ١٧٧٤ لأنه ليس لديه ثقة بالجماهير . وتعلقت آماله باستنارة الملوك . إننا لا نستطيع تعليم الرعاع والغوغاء — كما كان يسمى عامة الناس — لأنهم منهوكون بالكد والكدح قبل أن يتعلموا التفكير . ولكن فى مقدورنا أن نعلم قلة تقترب من الذروة فيعلمون الحاكم أو الملك . أن حلم « المستبدين المستنيرين » هذا بأعتبارهم قادة مسيرة الجنس البشرى ، كان الرسالة الملكية « المحفوفة بالمخاطر التى بنى عليها معظم الفلاسفة رؤيتهم للتقدم ، وكان لديهم هواجس كثيرة تنذر بالثورة ، ولكنهم أوجسوا منها خيفة أكثر مما رغبوا فيها . ووثقوا أن العقل قد يكسب الطبقة الحاكمة إلى جانبه ، وأن الوزراء والحكام قد يستمعون إلى صوت الفلاسفة وينفذون الأصلاحات التى تحول دون الثورة ، وتسير بالجنس البشرى على طريق السعاده ومن ثم رحبوا باصلاحات فردريك الثانى ، وإغتفروا آثام كاترين الثانية . ولو أنهم عاشوا لا بتهجوا

بجوزيف الثاني فى النمسا . وما ثقتنا فى الحكومة إلا أنها ذاك الأمل يبتعث من جديد ؟

٥ — الأخلاقيات الجديدة

بقيت مشكلة معلقة مرهقة . يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعى بالأمال والمخاوف الخارقة للطبيعة (الجنة والنار) ؟ هل يمكن الاحتفاظ بأخلاق شعبية عامة دون إيمان شعبي عام فى أصل سماوى للقانون الاخلاقى، وإيمان باله بصير بكل شيء، إله يثيب ويعاقب ؟ إن الفلاسفة (فيما خلا فولتير) زعموا أن هذه الدوافع ليست مطلوبة للأخلاق . ومع التسليم بأن هذا قد يصدق بالنسبة للقلة المثقفة ، فهل يصدق بالنسبة للباقين ؟ وهل كانت أخلاق القلة المثقفة صدى أخلاقيا للإيمان الذى فقدوه ، وللتربية الدينية التى تلقوها ؟

وقامر الفلاسفة بفعالية الأخلاق الطبيعية . وكانت الشكوك تخامر فولتير فيها ، ولكن ديدرو ود المبير وهلفشيوش ودى هولباخ ومايلى ، وترجو ، وغيرهم دافعوا عن أخلاق يمكن أن تكون مستقلة عن اللاهوت ، أخلاق قوية إلى حد الصمود أمام تقلبات العقيدة أو الإيمان . وكان بيل قد مهد الطريق بمحاولته التدليل على أن الملحدين قد يكونون على خلق مثل المؤمنين تماما ، ولكنه كان قد عرف الأخلاق بأنها عادة الإنسجام مع العقل ، وافترض أن الإنسان حيوان عقلانى ، كما أنه كان قد ترك العقل دون تعريف. وهل يكون المجتمع أو الفرد حكما على ما هـو معقول ؟ وإذا إختلف المجتمع والفرد ، فماذا غير القوة يكون لهـا القول الفصل بينهما ؟ وهل يكون النظام الاجتماعى مجرد صراع بين تنفيذ القانون والتملص منه ؟ وهل تحصى الفضيلة أو الأخلاق القويمة فرص الكشف فحسب ؟ أن ف . ف توسان F. V. Toussin كان قد شرح الأخلاق الطبيعية فى كتابه « العادات والاعراف » (١٧٤٨) ، وكان أيضا قد عرف الفضيلة بأنها « الدقة والأمانة فى الوفاء بالالتزامات التى يفرضها العقل »[٨٥]، ولكن كم من الناس يستطيعون التفكير ، أو كم من الناس فكر بالفعل إذا كان هذا فى مقدرته ؟ ألم يتشكل

الخلق (الذى يحدد الفعل) قبل أن ينمو العقل ؟ ألم يكن العقل مطية أقوى الرغبات ؟ تلك كانت بعض المشاكل التى واجهت الأخلاق الطبيعية .

وقبل معظم الفلاسفة شمولية حب الذات مصدرا أساسيا لكل الأفعال الإرادية أو الواعية ، ولكنهم آمنوا بأن التعليم والتشريع والعقل قد تعمل كلها على تحويل حب الذات إلى تعاون متبادل ونظام إجتماعى . إن دالمبير بنى فى ثقة الأخلاق الطبيعية على :

« حقيقة واحدة لا تقبل الجدل هى حاجة الناس بعضهم إلى بعض ، والالتزامات المتبادلة التى تفرضها تلك الحاجة وإذ نسلم بهذا إلى حد كبير ، فإن كل القوانين الأخلاقية تستتبعه فى تسلل منتظم لا مناص منه ولا يمكن تفسيره . ولكل المشاكل المتعلقة بالأخلاق حل فورى فى قلب كل منا ، وهو حل قد تروغ منه أو تتحايل عليه احيانا أهواؤناوعوا طفنا ، ولكنها لا تقضى عليه مطلقا . وحل كل مسألة بعينها يؤدى . . . . إلى الجذر الأساسى وهذا بطبيعة الحال هو مصلحتنا الذاتية وهى المبدأ الأساسى فى كل الالتزامات الأخلاقية(٨٦) .

وتبين لبعض الفلاسفة أن هذا يتطلب هيمنة العقل بصفه عامة فى الناس عموما — أى مصلحة ذاتية « مستنيرة » إلى حد كاف لترى اختيار النفس (الاختيار الذاتى) فى صورة كبيرة إلى حد يسمح بالتوفيق بين أنانية الفرد وخير الجماعة . ولم يشارك فولتير فى هذه الثقه فى ذكاء الأنانية وبدا له التعقل عملية إستثنائية ، وآثر أن يؤسس الأخلاق على وجود غيرية (حب الغير) مستقلة عن حب الذات ، واستمد هذه الغيرية من شعور بالعدالة بثه الله فى الناس . واتهمه الأخوة بأنه يسلم القضية للدين .

ومذ افترض الفلاسفة شمولية حب الذات فأنهم بصفة عامة خلصوا إلى أن السعادة هى الخير الأسمى ، وأن كل اللذات مجازة مسموح بها إذا كانت لا تؤذى الجماعة أو الفرد نفسه .

وجريا على أساليب الكنيسة دبج جريم ودى هولباخ ومابلى وسانت

لامبير كتيبات تفسر الأخلاقيات الجديدة . ووجه سانت لا مبير كتيبه « التعاليم الشاملة » إلى الأطفال فى سن الثانية عشرة أو الثالثه عشرة :

س — ما هو الإنسان ؟

ج — كائن له شعور وعقل .

س — إذا كان هذا الكائن على ما تصف ، فماذا يجب عليه أن يفعل ؟

ج — يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم .

س — أليس هذا هو حب الذات ؟

ج — أنه النتيجة اللازمة له .

س — هل يوجد حب الذات فى كل الناس بقدر سواء ؟

ج — نعم ، لأن كل الناس يهدفون إلى حفظ الذات وإلى تحقيق السعادة .

س — ماذا تفهم من السعادة ؟

ج — حالة مستمرة نجد فيها لذة أكثر مما نعانى ألما .

س — ماذا يجب علينا أن نفعل لنبلغ هذه الغاية (الحالة) ؟

ج — يجب أن نهذب عقولنا ونفعل ما يمليه علينا العقل .

س — ما هو العقل ؟

ح — معرفة الحقائق التى تفضى إلى سعادتنا ورفاهيتنا .

س — إلا يقودنا حب الذات دائما إلى كشف تلك الحقائق والعمل بمقتضاها؟

ج — كلا ، فليس كل الناس يعرفون كيف يمارسون حب الذات .

س — ماذا تعنى بهذا ؟

ج — أعنى أن بعض الناس يمارسونه ممارسة حقة وبعضهم يمارسونه ممارسة خاطئه .

س — من هم هؤلاء الذين يمارسون حب الذات ممارسة صائبة ؟

ج — هم الذين يحاولون أن يعرف بعضهم بعضا ولايفصلون سعادتهم عن سعادة الأخرين[٨٧] .

وركز الفلاسفة فى أخلاقهم العملية على ذكرياتهم عن الأخلاقيات المسيحية . فاحلوا محـل عبادة الله ومريم والقديسين — وهى العبادة التى عاونت بطريق غير مباشر على الفضيلة — إخلاصا مباشراً للجنس البشرى ؛ أن الراهب سان بيير اقترح لفظة جديدة لفضيلة قديمة — البر و الاحسان التى نترجمها ترجمة ضعيفة — وقصد بها العون الجاد المتبادل والتعاون مـع الآخرين فى أعمال الخير والبر المشتركة . ومع هذه أكد الفلاسفة كذلك على الإنسانية ، أى التحلى بالروح الإنسانية وحب الخير العام ، ولهذه جذورها وأصولها فى ثانية الوصايا التى أعلنها السيد المسيح . ولابد أن رينال حين دمغ قسوة الأوربين مع السود والهنود (فى الشرق والغرب) بأنها عمل غير إنسانى ، عرف أن أسقفا أسبانياً هو لاس كاساس قد سبقه إلى هذا الأتهام فى عام ١٥٣٩ . ولكن التحمس الجديد لمساعدة الفقراء والمساكين والمرضى والمظلومين كان يرجع أساسا إلى الفلاسفة . وفوق كل شىء إلى فولتير . أن اصلاح القانون فى فرنسا يرجع إلى حملاته المتواصلة . وأشتهر رجال الدين الفرنسيون بالصدقات ولكنهم آنذاك مارسوا رؤية الأخلاق العملية فى المسيحية يبشر بها الفلاسفة ويدعون إليها بنجاح يذكر . ونمت الأخلاقيات أكثر استقلالا وإنفصالا عن الدين ، وفى مجالات الروح الإنسانية والعطف والتسامح وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية والسلام انتقل الأمر من أساس لا هوتى إلى أساس علمانى أو دنيوى ، وأثرت على المجتمع بشكل لم يعهد له مثيل من قبل .

وحين واجه الفلاسفة المشكلات الأخلاقية التى ولدتها الحرب ، تحاشوا التهدئة على حين كانوا ينصحون بالسلام ، وأقر فولتير الحروب الدفاعية ولكنه دلل على أن الحروب عملية سلب ونهب ، وأنها تؤدى إلى ضعف وفقر المنتصر والمنهزم على حد سواء ، وأنها تجلب الغنى والثراء إلى نفر قليل

من الأمراء ومقاولى الحرب والعشيقات الملكات ، واحتج على غزو فردريك لسيليزيا ، وربما كان يعيه فى ذاكرته حين شرح فى مقال غاضب عن « الحرب » فى القاموس الفلسفى كيف يرتضى الضمير الملكى العدوان : « إن أحد علماء الأنساب يثبت لأحد الأمراء أنه ينحدر مباشرة من سلالة كونت عقد أبواه ميثاقا عائليا منذ ثلاثة أو أربعة قرون مع بيت لم تبق منه حتى الذكرى ، وكان لهذا البيت بعض الحقوق المزعومة فى الأقليم . . . إن الأمير ومجلسه يلمسون حقه على الفور . وهذا الأقليم الذى يبعد عنه بعدة مئات من الفراسخ ، يحتج عبثا بأنه لا يعرفه (أى الأمير) وأنه لا يرغب فى أن يكون تحت حكمه وأنه لكى يسن القوانين لشعب هذا الأقليم يجب على الأقل الحصول على موافقتهم ورضاهم . إن الأمير يحشد على الفور عددا كبيراً من الرجال الذين لن يخسروا شيئا ، ويزودهم بالملابس الزرقاء الخشنة . . . ويأمرهم بالألتفاف يمنة ويسرة ويتقدم إلى ساحة المجد » .

وعلى الرغم من ذلك نصح فولتير كاترين الثانية بامتشاق الحسام لطرد الأتراك من أوربا ، وكتب مرثية وطنية للضباط الذين ما توا من أجل فرنسا فى ١٧٤١ ، وبارك إنتصار الجيش الفرنسى فى فونتنوى .

ونبذ الفلاسفة القومية والوطنية على أساس أن هذه الأحاسيس والعواطف تعمل على تضييق مفهوم الإنسانية والالتزامات الخلقية ، وأنها جعلت من السهل على الملوك أن يقودوا شعوبهم إلى الحرب . وشجبت مقالة « الوطنية » فى القاموس الفلسفى « الوطنية » باعتبارها أنانية ضيقة الأفق . إن فولتير توسل إلى الفرنسيين إن يخففوا من تفاخرهم بسمو اللغة والأدب والفن والحرب ، وذكرهم بأخطائهم وجرائمهم ونقائصهم(٨٨) . وكان مونتسكيو وفولتير وديدرو ودالمبير فى فرنسا كما كان لسنج وكانت وهردر وجيته وشيلر فى ألمانيا ، أوربيين طيبين ثم بعد ذلك فرنسيين أو ألمان . وكما أن ديانة واحدة ولغة واحدة كانتا قد أنشأتا « العالمية » فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، فكذلك نمت العالمية فى القارة نتيجة لإنتشار اللغه والثقافة الفرنسيتين.

وتحدث روسو فى ١٧٥٥ عن تلك « الأذهان العالمية التى تهمل الحواجز التى أقيمت لتفصل بين الأمم بعضها عن بعض ، والذين مثل الذات العلية التى خلقتهم يحتضنون الجنس البشرى بأسره فى نطاق النزعة إلى عمل البر والخير [٨٩]. وفى مكان آخر كتب فى مبالغه ملحوظة « لم يعد هناك فرنسى ولا ألمانى . . . هناك فقط أوربيون »[٩٠] ولم يصدق هذا إلا على النبلاء ورجال الفكر ، ولكن فى هذه الطبقات إمتدت الروح العالمية من باريس إلى نابلى وبطرسبرج. وحتى فى زمن الحرب اختلط رجال الأدب بأضرابهم ممن هم فى طبقتهم عبر الحدود ، فقد رحب المجتمع الباريسى بهيوم وهوراس وولبول وجيبون وآدم سميث ، بينما كانت فرنسا مشتبكة فى حرب مع إنجلترا . وأحس الأمير دى لين أنه فى وطنه بين أهله وعشيرته فى كل عاصمة أوربية تقريبا . والجنود أنفسهم كان لديهم شىء من هذه النزعة العالمية . قال فرديناند دوق برنزويك « أنه لمما يشرف كل ضابط ألمانى أن يخدم تحت لواء فرنسا »[٩١] وكانت فى الجيش الفرنسى كتيبة بأكملها « الكتيبة الملكية الإلمانية » مكونة من الألمان. ووضعت الثورة الفرنسية حداً لهذه النزعة العالمية فى التوافق الشديد فى العادات والعقول ، وتضاءلت هيمنة فرنسا ، وإزدادت الروح القومية .

وهكذا نجد الثورة الفكرية التى كانت إلى حد ما نتيجة رد فعل أخلاقى ضد قساوات الألهة والكهنة قد انتقلت من نبذ اللاهوت القديم إلى أخلاق قائمة على أخوة عالمية اشتقت من أجمل جوانب العقيدة التى طرحت جانبا . ولكن المشكلة هى هل يمكن لقانون أخلاق لايسانده ويدعمه الدين أن يحتفظ بنظام اجتماعى ؟ وهى مشكلة باقية دون حل ، وهى لاتزال تواجهنا . أننا نعيش هذه التجربة الحرجة الدقيقة .

٦ — تراجع الديانة

وفى الوقت نفسه ، حتى الآن ، بدا الفلاسفة وكأنهم كسبوا المعركة ضد المسيحية . أن المؤرخ النزيه إلى حد الأعجاب هنرى مارتن وصف شعب فرنسا فى ١٧٦٢ بأنه جيل ليس لدية أى إيمان بالمسيحية»[٩٢] . وفى ١٧٧٠ قال المحامى العام سيجويه Siguier فى تقرير له :

« سعى الفلاسفة بأحدى اليدين أن يشلوا العرش ، وباليد الأخرى أن يقلبوا المذابح (أن يهدموا الكنائس) . وكان غرضهم أن يثيروا الرأى العام ضد النظم المدنية والدينية . وهذا الأنقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل . فإن التاريخ والشعر والقصص بل حتى القواميس قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق . ولاتكاد كتاباتهم تنشر قبل أن تطغى على الإقاليم مثل السيل الجارف ، وإمتدت العدوى إلى المصانع والأكواخ »[٩٣] .

وكأنما كان أيضاحاً لهـــذا التقرير أن يجمع سيلفان ماريشال فى ١٧٧١ « قاموس الملحدين » الذى توسع فيه بتضمينه ابيلار وبوكاشيو والأسقف بيركلى[٩٤] . وفى ١٧٧٥ أعان رئيس أساقفة تولوز أن « الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأى السائد »[٩٥] . وذهبت مدام دى ديفان إلى أن الإيمان بالمعجزات المسيحية أصبح خامدا مثله فى ذلك مثل التصديق بالأساطير اليونانية[٩٦] ، وبقى الشيطان ضربا من لغو الكلام ، والجحيم أضحوكه[٩٧] . وأزعج علم الفلك الجديد رب اللاهوت فى الفضاء وكأنما يتراجع عن الفضاء مع ارتياد الكواكب فى زماننا هذا . وفى ١٨٥٦ تحدث توكفيل عن ضعف الثقة فى الإيمان الدينى الذى أنتاب الناس فى أو آخر القرن الثامن عشر[٩٨] .

لقد بولغ فى كل هذه التصريحات والبيانات ، وربما قيلت وباريس والطبقات العليا والمثقفة ماثلة فى أذهان ناشريها . إن حكم لكى Leeky أكثر تميزاً وتحديداً حيث يقول : إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة . وتغاضى كل موظفى الإدارة فى مصالح الحكومة جميعها عن انتشارها وتداولها ، أو قل أنهم رحبوا بهذا وذاك[٩٩]. وظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة ، فلم يقبلوا المعجزات القديمة فحسب بل الجديدة كذلك ووجد الباعة المتجولون سوقاً رائجة للتماثيل الصغيرة التى تمثل معجزات العذراء[١٠٠] . وكانت التماثيل والمخلفات تحمل فى المواكب بغية تفادى الكوارث العامة أو وضع حد لها وزوالها . وازدحمت الكنائس حتى

فى باريس بالناس أيام الأعياد الكبرى فى السنة الدينية ، ودوت أجراس الكنائس بالتراتيم فى المدينة تدعو النا س إليها . وكانت « الأخوات » الدينية تضم أعضاء كثيرين وبخاصة فى مدن الأقاليم على الأقل . وأكد سيرفان لدى لمبير حين كتب إليه من جرينوبل (١٧٦٧) : « قد تدهش أيها الأخ لتقدم الفلسفة فى هذه المناطق الهمجية غير المتمدينة » . وفى ديجون كان هناك ستون مجموعة من الموسوعة ، ولكن تلك كانت حالات استثنائية ، وبقيت البرجوازية الإقليمية فى جملتها مخلصة للكنيسة .

وفى باريس وصلت الحركة الجديدة إلى كل طبقة . وكان العمال يزداد عداؤهم للكنيسة ، وكانت المقاهى قد طردت الرب منذ زمن بعيد .

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه قال له وهو يصفف شعره « أنت ترى يا سيدى أننى شخص مسكين تافه ، ولكنى مع ذلك لم يعد لى دين مثل أى إنسان آخر »[١٠١] . وواصل نساء الطبقة الكادحة عباداتهن القديمة واستخدمن مسابحهن فى شغف زائد . أما السيدات العصريات الأنيقات فقد اتبعن أسلوب الفلاسفة على أية حال ، واستغنين عن الدين إلى حد كبير ، وأرسلت كل منهن تقريباً فى طلب القسيس حين تأكدن من دنو الأجل . وكانت معظم الصالونات الكبرى تتبع الفلاسفة . واحتقرت مدام دى ديفان هولاء الرجال ، ولكن مدام جيوفرين رحبت بهم فى أمسياتها ، حتى أكتظت بهم مائدتها . وتكاثروا حول الآنسة لسبيناس وتصدر جريم صالون مدام ابيناى ، ووصف هوراس وولبول الجو المكرى للصالونات فى ١٧٦٥ فقال :

« هناك إله وهناك ملك يجب القضاء عليهما . والرجال والنساء جادون فى تدميرهما . أنهم يظنوننى دنسا لأن لدى بقية من إيمان[١٠٢] . . . والفلاسفة لايطاقون ، وهم سطحيون متغطرسون متعصبون ، إنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة ، وهم يجهرون بالألحاد ، وقد لاتصدق مبلغ صراحتهم ، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعيا[١٠٣] .

وعلى الرغم من ذلك اختارت الأكاديمية لعضويتها تسعة من الفلاسفة فى الإنتخابات الأربعة عشر التى جرت فيما بين عامى ١٧٦٠ و فى ١٧٧٢ ، وجعلت دالمبير سكرتيرها الدائم .

والتهم النبلاء فى إبتهاج مشوب بالعداء للدين كل ما قدمته لهم العقول القوية . وقال لاموث لا نجون «كان الالحاد سائدا إلى حد بالغ فى المجتمع الراقى ، وكان الإيمان بالله دعوة إلى الحماقة والسخف وإنتشر الكفر والبعد عن الدين بين الأستقراطية بعد ١٧٧١[١٠٥] . وكانت دوقة دانفيل ودوقات دى شوازيل وجرامونت ومونتسون وتسى ربوبيات . وارتبط رجال من ذوى المناصب الرفيعة فى الحكومة — مثل شوازيل وروهان وموريباس وبوفو وشوفيلين بأواصر الود والصداقة مع دالمبير وترجو وكوندورسيه . وفى الوقت نفسه أوضح الفلاسفة لفرنسا أن النظام الإقطاعى جاوز عمر الفائدة المرجوة منه ، وأن الأمتيازات الوراثية جور متحجر طال عليه الزمن ، وأن صانع الأحذية الطيب خير من لورد مبذر لا يصلح لأى عمل ، وأن كل السلطة مستمدة من الشعب .

وسرت العدوى حتى إلى رجال الدين . وفى ١٧٦٩ قاس تشامفورت درجة تزعزع الإيمان لدى رجال الدين تبعا لتسلسل مراتبهم الكنيسة : « يجب أن يؤمن القسيس قليلا ، أما وكيل الكنيسة فيبتسم لأية قضية تثار ضد الدين ، ويسخر الأسقف دون تحفظ ، ويضيف الكاردينال ملاحظه بارعة أو نكتة ساخرة من عنده[١٠٦] . وعدد ديدرو ودى هولباخ مجموعة كهنة متشككين من بين أصدقائهم . وكان القساوسة تورنى وفوشية ، وموري ، ودى بولونى « من بين أكثر من يرددون آراء الفلاسفة»[١٠٧] . وأنا لنسمع عن « جماعة القساوسة ذوى العقول الناضجة » وبعض هؤلاء الكهنة الأذكياء كانوا ربوبيين ، كما كان بعضهم ملحدين — وعاد مسليه إلى الحياة . إن المركيز دى شاستللولكس أبلغ بريستلى حين كان يتناول العشاء مع ترجو ١٧٧٤ « إن السيدين الجالسين أمامه هما أسقف أكس ورئيس أساقفة

تولوز ، ولكنهما ليسا أكثر إيماناً منك أو منى ، وأكدت له أنى مؤمن . وأبلغنى مسيولى روى الفيلسوف أنى أنا الوحيد المدرك الواعى الذى عرف أنه مسيحى » (١٠٨)

وكان للإلحاد بعض الأصدقاء حتى فى الأديار . وتجنباً للفضيحة والعامة كان دوم كولينيون يسمح لمشيقتيه بأن تكونا معه على المائدة حين يكون الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم . ولم يكن يسمح لطائفة الرسوليين أن تتدخل فى مائدته ، ولكنه أعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب للحفاظ على الأخلاق عند العامة (١١٠) . وتحدث ديدرو (١٧٦٩) عن يوم قضاه مع راهبين : « قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قرية جداً عن الإلحاد ، زاخرة بالأفكار الجديدة الجريئة . وعلمت فى شىء من الدهشة أن هذه هى النظرية السائدة فى أديارهم . وبالنسبة للبقية كان هذان الراهبان نموذجا فذاً للأديار . وكانا يتحليان بالتفكير والمرح والابتهاج وحسن النية والمعرفة (١١٠) .

ويروى لنا مؤرخ كاثوليكى غيور أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كان قد حل شعور بالاحتقار ، مبالغ فيه ، ولكنه عام شامل ، فى كل مكان ، محل التبجيل الذى كانت الأديار الكبرى قد بثته فى العالم الكاثوليكى (١١١) .

إن ازدياد التسامح نتج أساساً من تدهور الإيمان الدينى . فمن السهل أن نكون متسامحين إذا كنا غير مكترثين . إن نجاح فولتير فى قضيتى كالاس وسيرفنس حرك عدداً من حكام الأقاليم إلى مطالبة الحكومة المركزية بتخفيف القوانين ضد البروتستانت ، وتم هذا بالفعل ولم تلغ قوانين الهرطقة ولكنها كانت تطبق بشىء من الاعتدال . وترك الهيجونوت فى سلام كما كان فولتير قد اقترح ، وأبدى برلمان تولوز ندمه ، بتطبيق مبدأ التسامح إلى حد أزعج الملك (١١٢) . وأصدر بعض الأساقفة — مثل فيتز جيمس أسقف سواسون ١٧٥٧ — رسالة كهنوتية يدعو فيها كل المسيحيين إلى اعتبار الناس أخوة . (١١٣) .

وأضفى فولتير على الفلاسفة شرف هذا الانتصار ، فكتب إلى دالمبير ١٧٦٤ « أن الفلاسفة وحدهم هم الذين إلى حد ما هذبوا سلوك الناس ، وإنه لولاهم لشهدنا مذبحتين أو ثلاثا من مثل مذبحة سانت برثلميو فى كل قرن[١١٤]. وينبغى أن نلاحظ مرة أخرى أن الفلاسفة أنفسهم كانوا أحياناً متعصبين ، أن دالمبير ومارمونتيل حرضا مالشرب على كبح جماح فريرون (١٧٥٧)[١١٥] ، وطلب إليه دالمبير أن يقيم الدعوى القضائية على بعض نقاد الموسوعة (١٧٥٧) ، وحثته مدام هلفشيوس على إسكات صحيفة كانت قد عرضت بكتاب زوجها « الذكاء » ١٧٦٨ . وفى بعض المناسبات توسل فولتير إلى السلطات لإيقاف حملات التشهير بجماعة الفلاسفة والطعن فيهم والسخرية منهم[١١٦]. وبقدر ما كان هذا التشهير حقيقيا — أى افتراء مؤذيا — فقد كان لتوسلاته ما يبررها .

وكان ثمة عوامل أخرى غير الفلسفة لنشر التسامح ، فإن الإصلاح الدينى على الرغم من أنه أثار العصب ، خلق فرقاً وشيعا كثيرة » . كان بعضها قويا إلى حد الدفاع عن نفسه ، إلى درجة أن التعصب نادراً ما تجاوز حد الكلام . وكان على هذه الشيع والفرق أن تتجادل وتقرع الحجة بالحجة ، وقبلت اختبار العقل كارهة ، ورفعت من شأنه . إن ذكرى الحروب « الدينية » فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وما نتج عنها من خسائر إقتصادية ، حولت كثيراً من الزعماء الاقتصاديين والقادة السياسيين إلى التسامح . ووجدت بعض مراكز التجارة مثل همبرج وأمستردام ولندن ، أنه من الضرورى أن تصبر على مختلف المذاهب والعقائد التى يعتنقها زبائنهم الذين يتعاملون معهم . إن ازدياد قوة الدولة القومية جعلها أكثر إستقلالا عن الوحدة الدينية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بالنظام الاجتماعى ، وانتشار التعرف على مختلف المدنيات والثقافات أضعف ثقة كل عقيدة فى احتكارها للإله ، وفوق كل ذلك جعل تقدم العلوم من العسير على العقيدة الدينية أن تصل إلى القساوة والهمجية مثل محاكمات محكمة التفتيش أو إعدام

السحرة . وتقبل الفلاسفة بسرور معظم هذه التأثيرات فى دعايتهم من أجل التسامح واستدعوا بحق أن يدعوا بعض الفضل فى الانتصار ، وكان مقياس نجاحهم أنه بينما فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان دعاة الهيجونوت لا يزالون يعلقون على أعواد المشانق فى فرنسا ، حدث فى ١٧٧٦ أو ١٧٧٨ أن دعا ملك كاثوليكى سويسريا بروتستانتيا لأنقاذ الدولة .

٧ — الخلاصة

وهكذا ننتهى كما بدأنا ، إذ نرى أن الفلاسفة واللاهوتيين — لا المحاربين والدبلوماسيين — هم الذين كانوا يحاربون معركة القرن الثامن عشر الحاسمة . وأننا كنا على حق فى تسمية هذه الحقبة « عصر فولتير » . قال كوندورسيه « إن الفلاسفة من مختلف الأمم ، إذ اعتنقوا فى تأملاتهم المصلحة العامة لبنى البشر كونوا كتيبه قوية متحدة ضد أى وصف للخطأ أو أى لون من الظلم والطغيان [١١٧] » ، وكانت على أية حال كتيبة متحدة . وسنرى روسو يتخلى عن الحياه والسلطان ، وكان يحاول التوفيق بين الفلسفه والدين . ولكنه كان حقا صراعا من أجل النفس الإنسانية . ونتائجه بارزة بيننا اليوم .

وفى هذا الوقت ترك فولتير فرنى لانتصاره فى باريس (١٧٧٨) . إن الحركه التى كان قد قادها أصبح لها الغلبة فى السيطرة فى مجال الفكر فى أوربا ووصفها فريرون عدوها اللدود بأنها « مرض العصر وحماقته [١١٨] » . وهرب اليسوعيون وولى الجانسينيون الأدبار ، وتغيرت كل نغمة المجتمع الفرنسى . ونهج كل كاتب فى فرنسا تقريبا نهج الفلاسفة ، وسعى إلى كسب رضاهم . وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات وآلاف الشفاه ، « إن عبارة مديح من فولتير أو ديدرو أو دالمبير كانت أثمن وأعظم قيمة من نيل الحظوة عند أى أمير ومن عطفه [١١٩] » . ووقعت الصالونات والأكاديمية الفرنسية ، بل حتى وزراء الملك نفسه ، أحيانا ، تحت تأثير الفلاسفة .

واحتال الزوار الأجانب على الدخول إلى الصالونات طمعا فى لقاء مشاهير الفلاسفة والاستماع إلى حديثهم ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم نشروا الأفكار الجديدة . وها هو ذا هيوم . على الرغم من أنه استبق فولتير فى كثير من

آرائه ، نراه ينظر إليه على أنه استاذ معلم . وبعث روبرتسون إلى فرنى بكتابه القيم « شارل الخامس » وكان تشسترفيلد وهوراس وولبول وجاريك من بين المراسلين الكثيرين لفولتير فى إنجلترا . وأسهم سمولت وفرانكلين وغيرهما فى إعداد ترجمة إنجليزية لمؤلفات فولتير فى سبعة وثلاثين مجلدا لنشرها فى إنجلترا (١٧٦٢) . وفى أمريكا تأثر مؤسسو الجمهورية الجديدة تأثرا عميقا بكتابات الفلاسفة . أما فى ألمانيا فيمكنك أن تستمع إلى ملاحظات جوته إلى اكرمان فى ١٨٢٠ و ١٨٣١ :

« ليس لديك فكرة عن مبلغ تأثير فولتير ومعاصريه العظام على فى شبابى ، وكيف تسلطوا على ذهن العالم المتحضر بأسره ... إنه يبدو لى أنه شىء رائع عجيب حقا أن ترى أى رجال هؤلاء الذين ظهروا فى ميدان الأدب فى فرنسا فى القرن الأخير . وكم تتولانى الدهشة لمجرد النظر فى هذا . إنها حركة التحول فى أدب عمره قرن من الزمان ، والذى كان آخذا فى النمو منذ عهد لويس الرابع عشر حتى أينع الآن وأثمر وآتى أكله .[١٢٠]

وشارك الملوك والملكات فى التهليل والتصفيق لفولتير ، وتاهوا عجبا بأنهم فى عداد أتباعه . وكان فردريك الأكبر من أوائل من أدركوا أهميته. والآن فى عام ١٧٦٧ بعد ثلاثين عاما من التعرف عليه فى كل معايب شخصية وكل توقد ذهنه ، هلل فردريك للانتصار فى الحملة ضد الرجس والعار . وقوضت أركان صرح الخرافة من أساسها » . « وستدون كل الأمم فى حولياتها أن فولتير كان هو الذى أحدث هذا الانقلاب الجارى الآن فى الروح الإنسانية فى القرن الثامن عشر) .[١٢١] وشاركت كاترين الثانية قيصرة روسيا وجوستاف الثالث ملك السويد فى هذا التملق . ومما لا نزاع فيه أن الامبراطور جوزيف الثانى كان مدينا بفضل روح اصلاحاته للفلاسفة ، ولو أنه لم يعلن عن نفسه بمثل هذه الصراحة . وتسلم المعجبون مقاليد السلطة فى ميلان وبارما ونابلى ومدريد ، وكلها بلدان كاثوليكية . وفى ١٧٦٧ لخص جريم الموقف بقوله : (إنى ليسرنى أن أشهد جمهورية مترامية الأطراف

من ذوى العقول المثقفة تتكون فى أوربا . إن الاستنارة تنتشر فى كل مكان)[١٢٢].

إن فولتير نفسه وقد قهر فى نفسه التشاؤم الذى يصاحب كبر السن ، نراه يردد نغمة الانتصار : (إن العقول الراجحة المشكاة تشكيلا حسنا كثيره الآن ، وهى تتصدر الأمم وتؤثر فى سلوك الجماهير . وان التعصب الذى طغى فى الأرض لينحسر سنة بعد سنة جوره الكريه . وإذا لم تعد الديانة الآن تثير الحروب الأهلية فأننا مدينون بهذا للفلسفة وحدها . وبدأ الناس ينظرون إلى الصراعات الدينية وكأنها عرض فى مسرح العرائس فى السوق . إن العقل الذى يبسط سلطانه وحكمه ، ينسف فى كل لحظة أى جور بعيض مؤذ قائم على الخداع والاحتيال من جهة ، وعلى الغباء من جهة أخرى [١٢٣] .

ولنوف الرجل حقه . اننا قد نسلم بعد معرفتنا بتطرفات الثورةواسرافها وبرد الفعل الذى تلاها ، بأن الفلاسفة (باستثناء فولتير) كانت لديهم ثقة متفائلة فى الطبيعة البشرية ، وأنهم انتقصوا الان من قوة الغرائز التى تولدت فى آلاف السنين من عدم الشعور بالأمن ومن الوحشية والهمجية ، وأنهم بالغوا فى قوة التعليم لتنمية العقل ضابطا متحكما إلى حد كاف فى هذا الغرائز ، وأنهم عموا عن مطالب الخيال والعاطفة ، وصمت آذانهم عن صيحات المقهورين التماسا لعزاء الإيمان ، ولم يقيموا كبير وزن للتقاليد والنظم التى انتجتها قرون من التجربة والخطأ ، وأقاموا وزنا كبيرا للعقل الفردى الذى هو فى أحسن الظروف نتاج لحياة قصيرة ضيقة محدودة . وإذا كانت هذه تقديرات خاطئة خطيرة فانها لم تتأصل فى مجرد زهو أو غرور فكرى ، ولكن تأصلت كذلك فى طموح واسع الآفاق فى إصلاح البشر وتحسن أحوالهم . إننا مدينون لفلاسفة القرن الثامن عشر — وربما للفلاسفة الأكثر عمقا فى القرن السابع عشر — بالحرية النسبية التى ننعم بها فى الفكر والكلام والعقائد ، كما أننا مدينون لهم بالفضل فى تضاعف عدد المدارس والمكتبات

والجامعات ، وفى مئات من الاصلاحات الإنسانية فى القانون والحكومة ، وفى معالجة الجريمة والعلل والأدواء والأمراض العقلية . ونحن مدينون لهم ولأتباع روسو بفضل الاستثارة العظيمة للذهن التى انتجت أدب القرن التاسع عشر وعلومه وفلسفته ، وفن الحكم وإدارة شئون الدولة فيه . وبسببهم استطاعت دياناتنا أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكئيبة واللاهوت الذى يبتهج بالتعذيب ، كما يمكنها أن تولى ظهورها لمعوقات التقدم وللاضطهاد، وتتبين الحاجة إلى عطف متبادل من مختلف نواحى جهلنا وآمالنا . وبسبب هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل ، ولو مع شىء من اللوم . إننا إذا توقفنا عن تمجيد فولتير وتكريمه سنكون غير جديرين بالحرية .

خاتمة فى الفردوس

(شخصا الحوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير)
(المشهد : مكان فى ذاكرة البشر الشاكرة)

بندكت : إنى سعيد برؤيتك هنا ياسيدى ، فعلى الرغم من أنك آذيت كثيراً الكنيسة التى قدر لى أن أكون على رأسها طيلة ثمانية عشر عاما ، فقد أحسنت صنعا بشن الحملة على آثام الكنيسة وأخطائها والمظالم التى أخزتنا جميعا فى عصرك .

فولتير : أنت الآن كما كنت فى حياتك أرق البابوات حاشية وأكثرهم صفحا . وإذا كان كل خادم من خدم الله مثلك لتحققت من أن آثام الكنيسة هى خاصية طبيعية فى الإنسان ، ولبقيت أجل وأحترم هذا النظام العظيم . وإنك لتذكر أننى لمدة خمسين عاما إحترمت اليسوعيين :

بندكت : أذكر ذلك ، ولكنك اشتركت فى الهجوم عليهم فى نفس الوقت الذى كانوا قــد خفضوا فيه من دسائسهم السياسية ، وكانوا يقفون فيه بشجاعة ضد فسق الملك ومجونه واباحيته .

فولتير : كان جديرا بى أن أعرف أكثر من أن أقف إلى جانب الجانسنيين فى تلك القضية .

بندكت : حسناء أنت ترى الآن أنك أيضا قد تخطىء مثل البابا . والآن وقد وجدتك معتدل المزاج ، دعنى أحدثك لماذا بقيت أنا مخلصا للكنيسة التى تخليت أنت عنها .

فولتير : أن هذا يشوقنى كثيراً .

بندكت : أخشى أن أرهقك لأنى سأطيل الحديث ، ولكن تذكر كم ألفت أنت من مجلدات .

فولتير : كثيراً ما تاقت نفس لزيارة رومه ، وكم كان يسعدنى أن تتحدث إلى.

بندكت : وكثيراً ما رغبت أنا فى التحدث معك . ويجدر بى أن اعترف بأنى تمتعت بذكائك وبراعتك ، ولكن تألق ذكائك هو الذى ضللك . من العسير أن تكون متألقا بأرعا ومحافظا ، إنه لايروق العقول النشيطة كثيراً أن تقف إلى جانب التقاليد والسلطة ، وهناك ما يغريها بالنقد . حيث يمكن أن تشعر بلذة النزعة الفردية والإبداع والجدة ، ولكن فى الفلسفة يكاد يتعذر أن يكون الإنسان أصيلا إلا إذا كان مخطئا . وإنى لأتحدث إليك ، لابصفتى كاهنا أو رجل لاهوت ، ولكن بصفتى فيلسوفا يتحدث إلى فيلسوف .

فولتير : أشكرك ، لقد كان هناك كثير من الشك فى كونى فيلسوفا .

بندكت : لقد كنت حصيفا ، فلم تصطنع منهجا جديدا . ولكنك ارتكبت خطأ فاحشا أساسيا .

فولتير : ما هو ؟

بندكت : ظننت أنه من الميسور لذهن واحد على مدى حياة واحدة أن يكتسب هذا القدر من المعرفة وعمق التفكير ، مما يجعله صالحا لينصب نفسه حكما على حكمة الجنس البشرى كله — على تقاليد ونظم شكلتها خبرة الناس وتجربتهم عبر القرون . فالتقاليد بالنسبة للجماعة هى بمثابة الذاكرة للفرد . وكما أن أى خلل فى الذاكرة قد يؤدى إلى الجنون ، فأن أية مخالفة مفاجئة للتقاليد قد تنزلق بالأمة بأسرها إلى هاوية الجنون ، مثل فرنسا فى الثورة .

فولتير : أن فرنسا لم تصب بالجنون ، ولكنها ركزت فى عقد من السنين على ما تراكم من استياء وغيظ أثناء قرون من الظلم والجور ، فضلا عن ذلك فأن « الجنس » الذى تتحدث عنه ليس « ذهنا »،

بل هـو مجموعة وتساسل لأفراد غير معصومين من الخطأ ، وليست حكمة الجنس إلا مجموعة مركبة من أخطاء الأفراد وحسن تبصرهم ، وماذا حدد أى العناصر من هذا الحطام من الأفكار سينتقل إلى الأعقاب والذرارى ويسترعى انتباه الزمن ؟

بندكت : إن نجاح الأفكار واخفاقها فى تجارب الجماعات والأمم هو الذى حدد البقاء لبعض الأفكار وفناء الباقى .

فولتير : لست متأكدا ، فربما كان التحيز متسربلا ثياب السلطة هو الذى حدد فى كثير من الحالات أى الأفكار يجب الاحتفاظ به ، وربما منعت الرقابة ألفا من الأفكار الطيبة من الدخول إلى تقاليد الجنس البشرى .

بندكت : أظن أن خلفائى فكروا فى الرقابة وسيلة لمنع إنتشار الأفكار التى قد تقوض الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى ، والمعتقدات المؤثرة التى تساعد الناس على احتمال أعباء الحياة وأنى لأسلم بأن مراقبينا قد ارتكبوا أخطاء جسيمة مثل ما حدث مع جاليليو — ولو أنى أرى أنا كنا أكثر اعتدالا معه مما سول اتباعك لكثير من الناس أن يعتقدوا .

فولتير : قد تكون التقاليد اذن خاطئة ظالمة وتكون حجر عثرة فى سبيل تقدم التفاهم . وكيف يتقدم الإنسان إذا حرم مناقشة التقاليد ؟

بندكت : ربما كان علينا أن نناقش التقدم أيضا . ولكن فلنطرح هذه المسألة جانبا الآن مؤقتا . أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش التقاليد والنظم مع حرصنا على ألا نهدم أكثر مما نبنى ، ومع الحذر من أن الحجر الذى نزعزعه من مكانه لا يكون ضروريا لتدعيم مانريد الابقاء عليه . على أن نعى دائماً حقيقة متواضعة ، تلك هى أن خبرة الأجيال قد تكون أفضل وأحكم من عقل فرد عابر .

فولتير : ومع ذلك فالعقل أجل نعمة أنعم الله بها علينا .

بندكت : لا ، الحب هو أكبر نعمة . أنا لا أريد الأنتقاص من قيمة العقل ولكن يجب أن يكون خادم الحب لاخادم الغرور والزهو .

فولتير : أنا غالبا ما سلمت بهشاشة العقل وسهولة انقيادة . أنا أعلم نزوعه إلى أثبات كل ما توحى به رغباتنا ، أن صديق البعيد ديدرو كتب فى مكان ما أن حقائق الشعور أكثر ثباتا من حقائق العرض المنطقى[1] ، إن المتشكك الحقيقى لأبد أن يرتاب فى العقل أيضاً ، وربما بالغت أنا فى العقل لأن ذلك الرجل المجنون روسو بالغ فى الوجدان ، وفى رأيى أن اخضاع العقل للوجدان أشد خطرا من اخضاع الوجدان للعقل ،

بندكت : إن الإنسان ، كل الإنسان ، محتاج إليهما كليهما فى تفاعلهما . ولكنى الآن أتساءل هل لك أن تصاحبنى إلى خطوة أبعد ؟ إلا تتفق معى فى أن انصع معرفة مباشرة هى معرفتنا أننا موجودون وأننا نفكر ؟

فولتير : حسنا ؟

بندكت : إذن نحن نعرف الفكر بطريق مباشر أكثر مما نعرف أى شىء آخر .

فولتير : عجيب ! أعتقد أننا نعرف الأشياء قبل أن تتحول إلى انفسنا ونتبين أننا نفكر .

بندكت : ولكن اعترف بأنك حين تنظر فى نفسك تدرك حقيقة مختلفة تمام الأختلاف عن المادة التى تميل أحيانا إلى أن تختزل إليها كل شىء .

فولتير : أنا أشك فى هذا ، ولكن استمر .

بندكت : واعترف أيضا بأن ما تراه حين تنظره فى داخل نفسك هو بعض من واقع الاختيار ومن حرية الإرادة .

فولتير : أنت تنطلق بسرعة . أيها الأب ، لقد اعتقدت يوما بأنى نعمت

بدرجة معتدلة من الحرية ، ولكن المنطق أرغمنى على قبول القضاء والقدر .

بندكت : أى أنك أخضعت ما أدركت مباشرة لما انتهيت إليه من عملية تفكير طويلة مزعزعة .

فولتير : أنا لم أستطع أن أدحض آراء صانع العدسات الصغير العنيد سبينوا . هل قرأت له ؟

بندكت : بالطبع قرأت . إن البابا ليس مقيدا بقائمة معينة من الكتب المهذية.

فولتير : أنت تعرف أننا اعتبرناه ملحداً .

بندكت : يجدر بنا ألا نخلع النعوت والالقاب بعضنا على بعض . أنه كان محببا إلى نفسى ، ولكنه كان مكتثيا إلى حد لايطاق . أنه رأى الله بطريقة شاملة إلى حد أنه لم يترك مجالا للشخصية الإنسانية. أنه كان متدينا مثل أو غسطين ، وقديسا عظيما مثله .

فولتير : إنى أحبك يابندكت . أنك أرحم به منى .

بندكت : فلنتابع حديثنا ، أسألك أن توافق على أن الفكر والوعى والأحساس بالشخصية هى أعظم الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر.

فولتير : حسنا . . هذا مسلم به .

بندكت : وعلى هذا أشعر بأنى محق فى رفض المادية والالحاد والجبرية . فكل منا روح والديانة تبنى على هذه الحقيقة .

فولتير : فلنسلم بكل هذا ، فكيف نجيز تلك المجموعة الضخمة من السخافات التى أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرنا بعد قرن ؟

بندكت : أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق ، ولكن الناس كانوا يتصايحون من أجلها ، وفى كثير من الأحيان نجد الكنيسة فى تقبلها لهذه الأعاجيب ، كانت تخضع للمطلب العام

الواسع الأنتشار ، وإذا أنت انتزعت من الناس المعتقدات التى نجيز لهم اعتناقها ، فانهم سيعتنقون أساطير وخرافات لا ضابط ولا حصر لها . أن الديانة المنظمة لن تخترع خرافة ، بل تحول دونها . اقض على أية ديانة منظمة فسيحل محلها هذه المتاهة من الخرافات المخلة التى تنشأ ضغثا على أبالة فى المسيحية وتزيد فى جراحها . ومع ذلك ففى العلم أشياء لاتصدق أكثر منها فى الديانة . أهناك شىء أبعد عن التصديق من الأعتقاد بأن حالة بعض سديم يدائى هى التى حددت وفرضت كل سطر فى رواياتك ؟

فولتير : وما بالك بحكايات القديسين غير القابلين للاحتراق حين يلقى بهم فى النار ، وحكاية القديس الذى ضرب عنقه ومشى ورقبته فى يده ، وحكاية مريم التى رفعت إلى السماء — أنا لم أهضم هذه الحكايات كلها .

بندكت : أن معدتك كانت ضعيفة دائما . إن الناس لا يجدون فيها شيئاً عسيرا لأن هذه الحكايات جزء من عقيدة تساند حياتهم ويجدون فيها بعض العزاء . وهذا هــو السبب فى أنهم لن يعيروك أذنا صاغية طويلا ، حيث أن أنفاس حياتهم لا تتوقف على الاصغاء إليك — وهكذا ففى الصراع بين الإيمان والكفر ، فأن الإيمان يكسب المعركة دائما . أنظر كيف تكسب الكثلكة غرب المانيا ، وتستعيد فرنسا الكافرة ، وتسود أمريكا اللاتينية ، ويشتد عودها فى أمريكا الشمالية ، حتى فى أرض الحجيج والبيوريتانيين .

فولتير : أنا أرى أحياناً ، أيها الأب أن ديانتكم تستعيد مكانتها ، لاعن طريق صدق عقيدتكم ، ولا عن طريق الجاذبية فى أساطيركم ، ولا بفضل إستخدامكم البارع للمسرحية والفن ، ولكن

بفضل تشجيعكم الدقيق بشكل شيطانى للاخصاب بين الناس عندكم . وأعتقد أن معدل التكاثر هو العدو رقم ١ للفلسفة ، نحن نتناسل فى القاعدة ونموت فى القمة . وخصوبة السذاجة تهزم حدة الذكاء .

بندكت : أنت تخطىء إذا اعتقدت أن معدل التكاثر هو سر نجاحنا . فان شيئاً أعمق من هذا بكثير موجود ضمناً . هل أخبرك لماذا يعود كل الأذكياء فى كل أنحاء للعالم إلى حظيرة الدين ؟

فولتير : لأنهم تعبوا من التفكير .

بندكت : لا ، ليس هذا تماماً ، إنهم إكتشفوا أن فلسفتكم ليس لها جواب إلا الجهل واليأس . ويدرك العقلاء أن كل المحاولات فيما أسماه أخوتكم « الأخلاق الطبيعية » أخفقت . وقد نتفق أنت وأنا على أن الإنسان ولد وفيه غرائز تميل إلى النزعة الفردية تكونت فى آلاف السنين من الظروف والأحوال البدائية ، وأن غرائزه الاجتماعية ضعيفة نسبياً ، وأن شريعة قوية من الأخلاق والقوانين مطلوبة لترويض هذا الفوضوى بالطبيعة ، وتحويله إلى مواطن عادى مسالم . إن علماء اللاهوت عندنا أسموا هذه الغرائز التى تتسم بالنزعة الفردية « الخطيئة الأصلية الأولى » الموروثة عن « آبائنا الأولين » ، أى أولئك الناس المرهقين الذين لايخضعون لقانون ، المعرضين دائماً للخطر ، الصيادين الذين كان لزاماً عليهم أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال والقتل من أجل الطعام أو الرفاق ، وأن يكونوا مولعين بالاكتساب والمشاركة ، وأن يكونوا قساة إلى حد العنف ، لأن أى نظام إجتماعى ساد بينهم ، كان لابد أن يظل ضعيفاً ، ولكن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فى الأمن على حياتهم وممتلكاتهم .

فولتير : أنت لاتتحدث كما يتحدث البابا .

بندكت : قلت لك إنه ينبغى علينا أن نتحدث كما يتحدث الفلاسفة . فالبابا أيضاً يمكن أن يكون فيلسوفا ، ولكن عليه أن أن يعبر عن نتائج الفلسفةلابلغة مفهومةللناس فحسب ،بل كذلك بلغة خليقة بالتأثير على عواطفهم وسلوكهم . نحن مقتنعون — والعالم كله يعود الينا لأنه يعلم — بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى من وضع الإنسان بشكل صريح معترف به ، يمكن أن يؤثر بدرجة كافية حتى يضبط ويتحكم فى الدوافع غير الاجتماعية فى الرجل الطبيعى . إن الناس عندنا محكومون فى حياتهم الأخلاقية — ولو أن هذا لا يلتئم مع الجسد — بقانون أخلاق تعلموه وهم أطفال فى طور التشكيل ، باعتباره جزءاً من دينهم ، واعتباره من عند الله لامن عنديات الإنسان . أنت تريد أن تحتفظ بالأخلاق وتنبذ اللاهوت ، ولكن اللاهوت هو الذى يجعل الأخلاقيات تستقر فى أعماق النفس . ويجب أن نأخذ القانون الأخلاقى على أنه جزء لايتجزأ من الايمان الدينى الذى هو أثمن ما يمتلك الإنسان ، لأنه عن طريق هذا الايمان وحده تكتسب الحياة معنى ومنزلة سامية تعزز وجودنا وتضفى عليه شرفا ونبلا .

فولتير : وعلى هذا ابتدع موسى أحاديثه مع الله .

بندكت : إن الذهن الناضج لايوجه مثل هذا السؤال

فولتير : أنت على حق تماما .

بندكت : إنى أغتفر لك تهكمك الفطير غير الناضج . إن حمورابى وليكورغوس (مشرع أسبرطة فى القرن التاسع ق . م) ونوما وبومبليوس كانوا بالتأكيد على حق فى أن يضعوا للأخلاق أساسا دينيا حتى لأتنهار تحت الضربات المتواصلة من أقوى غرائزنا . وأنت نفسك قبلت هذا حين تحدثت عن إله يثيب ويعاقب ؛ إنك

أردت أن يتمسك خدمك بالدين ، ولكنك ظننت أن أصدقاءك يمكن أن يعيشوا بلادين .

فولتير : ما زلت أرى أن الفلاسفة يمكنهم أن يستغنوا عن الدين .

بندكت : كم أنت ساذج ! هل الأطفال أهل للفلسفة ؟ هل يستطيع الأطفال أن يفكروا ويتأملوا ؟ إن المجتمع مؤسس على الأخلاقيات ، وهذه مؤسسة على الشخصية ، والشخصية تتكون زمن الطفولة والشباب . قبل أن يكون العقل موجها ومرشداً بزمن طويل . وينبغي أن نغرس الفضيلة فى الفرد حين يكون صغيراً مطواعا غض الأهاب ، حيث تكون الفضيلة والأخلاقيات قوية إلى حد يسمح بمقاومة نوازعه المشربة بروح الفردية . بل حتّى تفكيره الفردى . أخشى أن تكون قد بدأت تفكر بسرعة . والعقل عمل فردى أساسى ، وإذا لم تحكمه وتضبطه الأخلاق فانه يمكن أن يمزق مجتمعا إربا .

فولتير : إن بعض أحسن الرجال فى عصرى وجدوا أن العقل فضيلة وأخلاقيات كافية .

بندكت : كان هذا قبل أن يتغلب العقل القائم على النزعة الفردية والزمن على آثار الديانة . إن نفراً قليلا من الناس مثل سبينوزا وبيل ودى هولباخ وهلفشيوس قد يكونون قد عاشوا حياة طيبة بعد تخليهم عن دين آبائهم ، ولكن من يدرينا أن فضائلهم لم تكن نتيجة تعليمهم الدينى ؟

فولتير : كان هناك مئات من الناس المعاصرين لى ، ممن كانوا خليعين محتقرين على للرغم من تعليمهم الدينى وعقيدتهم الكاثوليكية ، مثل الكاردينال ديبوا ولويس الخامس عشر .

بندكت : الذين كتبت عنهم مديحا يثير الاشمئزاز .

فولتير : واحسرتاه! نعم ، كنت مثل بعض رهبانكم ، استخدمت بعض حيل وخدع تقية لأصل الى ما شعرت بأنه غايات طيبة .

بندكت : مهما يكن من أمر ، فليس ثمة شك فى أن هنالك آلافا من الناس ممن يتمسكون بالعقيدة القويمة ، حتى وممن يواظبون على كل الطقوس ، يمكن أن يكونوا آثمين خطائين ومجرمين عريقين فى الإجرام . إن الدين ليس علاجا معصوما من الخطأ للجريمة ، إنه ليس إلا مجرد عون فى المهمة الشاقة ، مهمة تمدين الإنسان . وأننا لنعتقد أن الناس بدون الدين يمكن أن يكونوا أسوأ بكثير مما هم .

فولتير : ولكن تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الجحيم . حولت الإله إلى إلى غول بشع أ شد قسوة من أى مستبد غاشم فى التاريخ .

بندكت : أنت تمقت هذه الفكرة ، ولكنك إذا عرفت الناس معرفة أكثر وأفضل ، لأدركت أنه يجب إرهابهم بالمخاوف والعقاب . أن رأس الحكمة مخافة الله . وعندما فقد إتباعك هذا الخوف بداؤا يتدهورون ويفسدون . إنك كنت محتشما معتدلا نسبياً فى فسقك وفجورك ، وكان ثمة شىء جميل فى علاقتك الطويلة بمدام دى شاتيليه ، ولكن علاقاتك مع إبنة أختك كانت شائنة مخزية . ولم تجد شيئا يستحق اللوم فى سلوك صديقك الفاجر الداعر الدوق دى ريشيليو .

فولتير : وكيف كان يمكن أن ألومه ؟ إذن لتعرضت قروضى للخطر .

بندكت : أنت لم يمتد بك زمنك لترى كيف أن الإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيوان . هل قرأت المركيز دى ساد ؟ أنه فى نشو الثورة الفرنسية نشر ثلاث قصص (٢) أوضح فيها أنه لو لم يكن

هناك إله لكان كل شيء مباحا اللهم إذا كشف وكلاء القانون أمره. وأشار إلى أن كثيراً من الأشرار الخبثاء تزدهر أحوالهم فى الدنيا ، وكثيراً من الطيبين الفضلاء يعانون ويشقون ، وعلى ذلك فإنه إذا لم يكن هناك جنة أو نار ، فليس ثمة معنى فى أن نكون طيبين لنسىء إلى ملذاتنا . وانتهى إلى أنه إذا لم تكن الإرادة حرة فليس هناك مسئولية أخلاقية ، وليس هناك خير أو شر ، بل هناك فقط ضعفاء وأقوياء والخير هو الضعف ، والضعف هو الشر ، حتى ولو كان لما يجد القوى — اللذة فى استغلال الضعيف مايبررها. وحاول أن يثبت أن القسوة أمر طبيعى وأنها غالباً ما تكون سارة مرضية . وهكذا أقر كل ضروب اللذة ، بما فى ذلك أحط ألوان الانحراف وأبغضه ، حتى بدا آخر الأمر أن الخير الأعظم يكمن فى إيقاع الألم وتلقيه ، أسلوباً من أساليب اللذة الجنسية .

فولتير : كان لزاماً أن يضرب هذا الرجل بالسوط حتى يموت.

بندكت : نعم إذا استطعت الإمساك به . أما إذا لم تستطع ؟ فكر فى الجرائم التى لاتحصى والتى ترتكب فى كل يوم ، والتى لا تكتشف والتى تفلت دون عقاب مطلقاً ، إنه من الضرورى أن يكون هناك قانون أخلاقى يمنع الناس من الإجرام حتى لو أحسوا أنهم فى مأمن من كشف أمرهم . فهل يكون عجيباً أن « عصر فولتير » أبعد العصور عن الأخلاق وأكثرها فساداً فى التاريخ . . ؟

أنا لن أذكر شيئاً عن « غادتلك » ولكن فكر فى الملك و منتدى غزلانه » وفى الأدب الداعر الفاجر الذى كان يطبع بكميات كبيرة ويتداول على أوسع نطاق، ويتلهف الناس حتى النساء على شرائه : إن هذا الزاد الطائش ، والإثارة الجنسية تصبحان طوفانا فاجراً فى أزمان الكفر وأرضه .

فولتير : يجب أن تعلم يا صاحب القداسة أن الغريزة الجنسية قوية جداً حتى عند بعض البابوات ، وأنها لابد أن تجد متنفساً على الرغم من أى قانون .

بندكت : وبسبب قوة تلك الغريزة فإنها تحتاج إلى ضوابط وقيود خاصة، لا إلى تشجيع قطعاً . وهذا هو مادعانا إلى محاولة حصرها فى حدود الزواج المنظم ، وعملنا كل ما فى وسعنا لجعل الزواج المبكر حيز الإمكان . إنكم فى مجتمعاتكم الحديثة تجعلون الزواج متعذراً للجميع اللهم إلا للطائشين المسرفين ، أى ما بعدالوصول إلى مرحلة النضج الجنسى بزمن طويل . ومع ذلك تجعلون كبح جماح الغريزة الجنسية أمراً شاقاً عسيراً بالنسبة لهم بإثارة خيالهم الجنسي وشهوتهم الجنسية فى كل لحظة بالأدب والمسرح ، بدعوى حرية الصحافة والمسرح .

فولتير : إن شبابنا لايضارون كثيراً بحريتهم .

بندكت : أظنك مخطئا . إن الرجل الذى تعود على الإختلاط الجنسى غير المشروع قبل الزواج نادراً ما يكون زوجاً أمينا مخلصا ، والمرأة التى تفرط فى عرضها قبل الزواج لن تكون زوجة أمينة إلا من قبيل الاستثناء، وهكذا نساق إلى إباحة الطلاق بشروط يسيرة . إننا نجعل من الزواج سراً مقدساً رهيباً وعهداً بطول الصبر والأمانة — مدى الحياة ، ولكنكم تجعلون منه عقد عمل يحق لأى من الطرفين أن يفسخه، أثر شجار عابر أو تطلعاً إلى رفيق أصغر سناً أو أكثر ثراء . إن كل بيت مفتحة الآن أبوابه كلها ، الأمر الذى يدعو إلى الانفصال ويشجع عليه . ووقع نظام الزواج فى حالة من فوضى التقارب المؤقت التجريبى ، مما يشكل كارثة للنساء ويقوض أركان النظام الأخلاقى .

فولتير : ولكن الزواج بواحدة فقط أمر غير طبيعي وغير محتمل ، أيها الأب العزيز .

بندكت : وإن أي كبت للغريزة أمر غير طبيعي ، ومع ذلك يستحيل قيام المجتمع دون كثير من هذه القيود ، وأعتقد أن الرجل أو المرأة مع رفيق (زوج) واحد وعدة أطفال أسعد من رجل أو امرأة مع عدة رفاق وطفل واحد . وكيف ينعم رجل بالسعادة وقد طلق زوجته التي فقدت جمالها في الحمل وفي تربية أبنائه ، حين أثاره وجه جديد وقوام رشيق ؟

فولتير : ولكن بتحريمك الطلاق يجب أن تتسامح مع الزنى المنتشر انتشارا واسعا في الأقطار الكاثوليكية .

بندكت : نعم نحن هناك ضعفاء مجرمون . نحن ضعفاء بسبب الكفر والتخلي عن الإيماني ، وربما كان الزنى أفضل من الطلاق ، لأنه يهيء في الظاهر بيتا متحداً آمنا للابناء ، وينطوي على ارتباك وتشويش أقل الأسرة . ولكني أشعر بالخجل لأننا لم نجد حلا أفضل .

فولتير : أنت رجل مؤمن مخلص أيها الأب ، إني لأتنازل عن كل ما أملك إذا قدر لي إن أشاركك إيمانك وطيبة نفسك .

بندكت : ومع ذلك فمن الصعب إقناعك . وإني ليتولاني اليأس أحيانا من كسب الرجال الأذكياء اللامعين أمثالك ، ممن تحرك أقلامهم مليونا من الانفس وتوجهها نحو الشر أو الخير . ولكن بعض أتباعك يفتحون أعينهم على الحقيقة المرة الرهيبة . فإن فقاقيع التقدم إنفجرت في قرن شهد مزيدا من قتل الرجال والنساء بالجملة . ومزيدا من إجتياح المدن وتخريبها ، ومن تحجر القلوب وفسادها ، أكثر من أي قرن آخر في التاريخ . إن التقدم في المعرفة والعلم ووسائل الراحة والقوة ليس إلا تقدما في الوسائل ،

وإذا لم يكن ثمة تحسين الغايات والأغراض أو الرغبات فلن يكون التقدم إلا وهما وخداعا . إن العقل يعمل على تحسين الوسائل ولكن الغايات تحددها الغرائز التى تتشكل قبل المولد وتتكون قبل نمو العقل .

فولتير : أنا مازلت أثق فى ذكاء الإنسان ، أننا سنحسن الغايات والوسائل معاً إذا صرنا أكثر اطمئنانا وأمنا على حياتنا .

بندكت : هل ستصبح أكثر أمنا واطمئنانا ؟ هل ينخفض معدل الجريمة العنيفة ؟ هل الحرب أقل فظاعة وبشاعة من ذى قبل ؟ أنك تتعلق بأمل كاذب فى إن قوة التدمير فى أسلحتكم سوف تعوقكم وتعوق أعداءكم عن الحرب . ولكن هل التقدم المتكافىء من السهم إلى القنبلة سيعوق الأمم عن تحدى بعضها بعضا حتى الموت؟

فولتير : إن تعليم الجنس البشرى سيستغرق عدة قرون .

بندكت : فى نفس الوقت إنظر إلى الخراب الروحى الذى نشرته دعايتكم . وربما كان هذا كارثة أفظع من أى خراب فى المدن . أليس الالحاد مقدمة لتشاوم أعمق من أى تشاؤم عرفه المؤمنون ؟ وأنت أيها الفتى الذائع الصيت ، ألم تفكر كثيراً فى الأنتحار ؟

فولتير : نعم ، وحاولت أن أومن بالله ، ولكنى أعترف لك أن الله لم يعد شيئا فى حياتى ، وفى دخيلة نفسى شعرت أيضا بفراغ فى موضع إيمان طفولتى ، ولكن يحتمل أن يكون هذا هو أحساس أفراد وأجيال فى فترة إنتقال فقط . ولكن حفدة هؤلاء المتشائمين سيمرحون ويسرحون فى حرية حياتهم ، وتتهيأ لهم سعادة أكثر من المسيحين المساكين الذين أظلمت حياتهم بالخوف من الجحيم .

بندكت : إن هذا الخوف لم يلعب إلا دورا صغيرا فى حياة الغالبية العظمى من المؤمنين . إن ما أثلج صدورهم هو احساسهم بأن سكرات

الموت لم تكن عبثا غير ذى معنى : بل مقدمة لحياة أكبر تصحح وتشفى فيها كل المظالم والقساوات الدنوية ، وسيكونون متمتعين بالسعادة والسلام مع من كانوا يحبونهم ثم فقدوهم .

فولتير : نعم كان فى هذا راحة تامة ، مهما تكن خداعة . أنا لم أحس بها لأنى أكاد لا أعرف والدنى ، ولم أر والدى إلا نادرا ، وليس لى أولاد معروفون .

بندكت : أنت لم تكن رجلا كاملا ، ولم تكن فلسفتك كاملة . هل عرفت يوما حياة الفقراء ؟

فولتير : عرفتها من الخارج فقط . ولكنى حاولت أن أكون منصفا وعونا للفقراء الذين عاشوا فى ضياعى .

بندكت : لقد كنت سيداً فاضلا ، وفطنت إلى أن الإيمان والعقيدة التى اعتنقها هؤلاء الذين إستخدمتهم فى شبابك والتى لهم فيها عزاء وسلوى ، يجب إن تتجدد عن طريق التعليم الدينى والقيادة ولكن فى نفس الوقت كان إنجيلك المدمر الذى لا أمل فيه فيما وراء القبر يسود فرنسا بأسرها . هل أجبت يوما على سؤال دى موسيه(٣) ؟ بعد أن علمت أنت أو إتباعك الفقراء أن الجنة الوحيدة التى يمكنهم الوصول إليها يجب أن يخلقوها هم أنفسهم على الأرض أو فى الدينا . وبعد أن ذبحو حكامهم ، ويظهر حكام جدد . ويبقى الفقر بالأضافة إلى خلل وفساد وعدم إستقرار أكبر من ذى قبل ، فاذ إذن تستطيع أن تقدم من عزاء للفقراء المغلوبين على أمرهم ؟

فولتير : أنا لم أحبذ قتل حكامهم ، وارتبت فى أن يكون الجدد أقرب شبها بالقدامى ، ولكن اسوأ سلوكا .

بندكت : لن أقول إن الثورة ليس لها ما يبررها مطلقا ، ولكنا تعلمنا من التجارب والخبرات التى تراكمت ونقلتها الينا الأجيال . أنه

بعد كل انقلاب، سيكون هناك ثانية سادة وأناس ، وأغنياء وفقراء نسبياً . نحن ولدنا جميعا غير متساوين ، وكل إختراع جديد وكل تعقيد جديد يضاف إلى الحياة أو الفكر يزيد فى الهوة بين البسطاء والدهاة البارعين ، وبين الضعفاء والأقوياء . إن أولئك الثوريين المؤمنين تحدثوا عن الحرية والمساواة والاخاء ولكن هذه الأقانيم لا تتمشى مع بعضها البعض . لأنك إذا أقررت الحرية سمحت للتفاوتات وعدم المساواة الطبيعية أن تتضاعف إلى تفاوتات وفوارق مصطنعة . فإذا حلت دون هذه التفاوتات كان عليك أن تقيد الحرية ، وهكذا تصبح مثلك العايا فى الحرية ستاراً للاستبداد وفى غمرة هذا يصبح الأخاء مجرد كلمة .

فولتير : نعم هو كذلك .

بندكت : حسناً إذن ، ومن منا يقدم عزاء أكبر للغالبية التى لا مفر من أن تكون تكون مغلوبة على أمرها ؟ هل تظن أنك تحسن صنعاً أو تؤدى خدمة للكادحين فى فرنسا وإيطاليا إذا إقنعتهم بأن أضرحتهم القائمة على جانب الطريق وصلبانهم وصورهم الدينية وتقدماتهم التقية مجرد شعائر سخيفة لا معنى لها ، وأن صلواتهم موجهة إلى سماء خالية ، وهل يمكن أن تكون ثمة مأساة أشد من أنه يجب على الناس أن يؤمنوا بأنه ليس فى الحياة شىء إلا تنازع البقاء وليس فيها شىء أكيد على وجه اليقين إلا الموت . ؟

فولتير : أنا أشاركك شعورك أيها الأب . لقد أثر فى نفسى وأزعجتنى رسالة تلقيتها من مدام دى تلموند ، أنا أذكرها جيداً ، وجاء فيها « أرى ياسيدى ألا يكتب فيلسوف مطلقا إلا ليحاول أن يجعل الجنس البشرى أقل شراً وأقل شقاء مما هو عليه . وأنت الآن تعمل على النقيض من ذلك تماما . أنت دائما تكتب ضد الدين . وهو وحده القادر على كبح جماح الشر وتقديم السلوى والعزاء

إذا ألم الخطب[٤] ، ولكن لى إيمانى كذلك بأن الحق سيكون على مدى الأيام نعمة حتى للفقراء .

بندكت : ان يكون الحق حقاً إلا إذا بقى صادقا عبر الأجيال . إن الأجيال السابقة تكذبك والأجيال القادمة ستلومك ، بل إن المنتصرين فى صراع الحياة سيلومونك على إنتزاعك الآمال من صدور المساكين وهى الآمال التى حملتهم على قبول المكانة المتواضعة فى مجتمع مقسم إلى طبقات ، وهو تقسيم لامناص منه .

فولتير : أنا لا أستسلم لخداع الفقراء والمساكين خداعا مزدوجا على هذا النحو .

بندكت : نحن لا نخدعهم . أننا نعلمهم الإيمان والأمل والبر والاحسان ، وتلك كلها نعم حقيقية فى حياة البشر . أنكم سخرتم كثيراً من التثليث ، ولكن هل كانت لديكم يوما أى فكرة عن الراحة النفسية التى أحس بها ملايين الملايين من الأنفس لمجرد التفكير فى أن الله نفسه قد نزل إلى هذه الأرض ليشاركهم آلامهم ومعاناتهم ، ويكفر عن خطاياهم ؟ وسخرتم من ولادة العذراء ، ولكن هل فى كل الأدب شىء محبب أو مؤثر أكثر رمزاً لبساطة النساء واعتدالهن ورمزا لحب الأم ؟

فولتير : أنها قصة جميلة ، ولو أنك كنت قرأت كل مجلداتى التسعة والتسعين لوجدت أننى اعترفت بقيمة هذه الأساطير التى تبعث فى النفوس السلوى والعزاء .

بندكت : نحن لا نسلم بأنها أساطير ، أنها من بين أعمق الحقائق . إن آثارها من بين أكثر الحقائق يقينا فى التاريخ . أنا لن أتحدث عن الفن والموسيقى اللذين خلقتها ، وهما من أغنى تراث الإنسان . . .

فولتير : كان الفن ممتازا . ولكن أغنيتكم الجريجورية كانت عبثاكريها كئيبا .

بندكت : لو أنك كنت أكثر عمقا لقدرت قيمة طقوسنا وأسرارنا المقدسة . إن احتفالاتنا تجمع بين المصلين فى مسرحية حية وأخوة تشجع على الوحدة ، وأسرارنا المقدسة هى حقاً أسم على مسمى من أمارات أو علامات ظاهرية على نعمة وبركة باطنة داخلية ، وأنها لراحة نفسية للآباء أن يروا طفلهم فى التعميد والتثبيت مقبولا فى جماعة العقيدة العريقة وفى ميراثها . وهكذا توحد الأجيال فى أسرة لا يحددها زمان ، ولا يعود الفرد فيها يحس أنه وحيد . وإنه لمن أجل النعم للمخطىء أن يعترف بخطاياه ويتلقى الغفران . وأنتم تقولون إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد سماح له بارتكاب الذنب ثانية ، ونحن نقول بأن هذا يشجعه على أن يبدأ حياة أفضل غير مثقلة بوزر الأثم . ألا يكافح أطباؤكم النفسيون من أجل إيجاد بديل عن الاعتراف للكاهن ؟ إلا يخلقون مصابين بالأمراض العصبية قدر ما يعالجون ويشفون ؟ أليس جميلا إنه فى سر القربان المقدس يقوى الإنسان الضعيف ويتأثر باتحاده مع الله ؟ هل رأيت شيئا أجمل من ذهاب الأطفال لأول عشاء ربانى لهم ؟

فولتير : لا يزال يزعجنى ويضايقنى فكرة أكل الله ، أنها بقايا عادات وحشية .

بندكت : أنك تخلط مرة ثانية بين الأشارة الظاهرية الخارجية والبركة الباطنية . ليس ثمة شىء ضحل مثل التحريف ، إنك تحكم على كل شىء من سطحه ، وتظن أنه عميق . وقـــد ضلل هذا التحريف كل الحياة الحديثة . وفى الدين مر العقل الناضج بثلاث مراحل : الإيمان والكفر والفهم .

فولتير : قد تكون على حق . ولكن هذا لا يبرر نفاق أساقفتك الآثمين الخطائين ، أو اضطهاد الفكر الصادق المستقيم .

بندكت : نعم . كنا مذنبين . إن العقيدة طيبة لأغبار عليها ، ولكن القائمين عليها رجال ونساء عرضة للخطأ والأثم .

فولتير : ولكن إذا كان القائمون عليها عرضة للخطأ ، فلماذا يزعمون أنهم معصومون منه ؟

بندكت : إن الكنيسة تدعى العصمة فقط لأحكامها الوسمية الأساسية الموقرة جداً ، ويجب الكف عن الجدل فى موضع ما ، إذا أريد للذهن أو المجتمع أن يعيش فى هدوء وسلام .

فولتير : وهكذا نعود ثانية إلى الرقابة الخانقة والتعصب الوحشى الذميم اللذين كانا مصدر الأذى والهلاك فى حياتى ، ومبعث الخزى والعار فى تاريخ الكنيسة . ويمكننى أن أرى أبواب محاكم التفتيش مفتوحة من جديد .

بندكت : أرجو إلا يكون الأمر كما تقول . إن هذا كان بسبب ضعف البابوية ، إن محاكم التفتيش كانت قاسية . إن خلفائى كافحوا لوقفها .

فولتير : البابوات أيضاً مذنبين . أنهم نظروا برباطة جاش إلى قتل مئات اليهود أثناء الحروب الصليبية ، وتآمروا مـــع دولة فرنسا على قتل الالبيجنسيين (طائفة دينية ازدهرت فى جنوب فرنسا فيما بين ١٠٢٠ — ١٢٥٠ م وأخيرا قضى عليها بتهمة الزندقة) . لماذا نعود إلى عقيدة استطاعت على الرغم من كل سحرها وفتنتها أن تولد مثل هذه الوحشية ومازالت تتغاضى عنها ؟

بندكت : أننا شاركنا فى عادات عصرنا وسلوكه . ونحن نشارك الآن فى تحسين الأخلاق . أنظر إلى قساوستنا ، أليسو ، مجموعة ممتازة من الناس فى تعليمهم وتبتلهم وسلوكهم ؟

فولتير : هكذا يقولون لى . ولكن ربما كان هذا بسبب المنافسة . ومن يدرى ماذا سيكونون عليه ، حين يهيىء لهم إنصارهم ذوو الأصل

العريق التفوق السياسى ؟ إن المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى من حقبتنا أشتهروا بسمو الخلق لكنك تعلم كيف اصبحوا حين تسلموا مقاليد الأمور . إنهم قتلوا من أجل الخلاف الدينى أناسا أكثر مائة مرة مما قتل أباطرة الرومان .

بندكت : إن قومنا كانوا آنذاك بادئين فى التعليم ، فلنأمل أن نفعل أفضل مما فعلوه فى المستقبل .

فولتير : لقد أحسنت الكنيسة صنعا فى بعض الأحيان . ففى النهضة الإيطالية أظهر بعض خلفائك تسامحا لطيفا نحو الكفر . ولم يحاول غير المؤمنين أن يحرموا المساكين من عقيدتهم التى توفر لهم العزاء والسلوى . أنا من جانبى لا أريد أن أدمر عقيدة الفقراء المساكين ، وأؤكد لك أن هؤلاء المساكين لايطالعون كتبى .

بندكت : بارك الله فى المساكين الفقراء .

فولتير : فى نفس الوقت ، ينبغى أن تغفر لى ولأمثالى إذا واصلنا مساعينا لتنوير أقلية كبيرة العدد إلى حد كاف ، مصممة على أن تحول دون تسلط الكنيسة مرة ثانية على أفكار المتعلمين . وسيكون التاريخ غير ذى قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب الطبيعى فى ديانة تقليدية تستغل القوة . إنى أجلك وأقدرك أعظم تقدير ، أيها الأب بندكت ، ولكن يجب أن ابقى كما أنا فولتير .

بندكت : ليغفر الله لك .

فولتير : المغفرة دعاء الجميع .



CHAPTER XVIII

1. Pappas, J. N., *Berthier's* Journal de Trévoux *and the Philosophes*, 122.
2. Helvétius, *De l'Esprit*, Eng. translation, 414.
3. D'Alembert, *Mélanges de littérature, d'histoire, et de philosophie* (1759), in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 3; Frankel, *Faith of Reason*, 7-8.
4. In Wolf, 39.
5. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 27.
6. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 55.
7. *Ibid.*, 54.
8. Taine, *Ancient Regime*, 288.
9. *Ibid.*
10. In Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 122.
11. Morley, *Diderot*, I, 169.
12. Mornet, 52.
13. Meslier, Jean, *Superstition in All Ages, or Last Will and Testament*, 30.
14. *Ibid.*, Sec. CXXXV.
15. CVIII.
16. LXVI, CLXXXII-III, and CLX.
17. CLX.
18. LII.
19. II.
20. XXXII.
21. XC.
22. CLX.
23. XL.
24. XII.
25. CXII.
26. CLXI.
27. CLIII.
28. CXLIX.
29. CLV.
30. Preface, p. 37.
31. CVII.
32. CXLI.
33. CLXVI.
34. CLXII.
35. Preface, pp. 42-43.
36. CCIV.
37. *Ibid.*
38. CLV.
39. Preface, p. 41.
40. In Martin, K., 240.
41. *Ibid.*, 242.
42. 241-42.
43. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 56.
44. La Mettrie, *Man a Machine*, 4.
45. Walt Whitman's formula for war
46. La Mettrie, 99.
47. *Ibid.*, 100.
48. 91.
49. 134.
50. 128.
51. In Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 305.
52. *Ibid.*, 316.
53. La Mettrie, 146.
54. *Ibid.*
55. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 316.
56. La Mettrie, 103.
57. Fellows and Torrey, II, 307.
58. La Mettrie, 122.
59. *Ibid.*, 129.
60. 149.
61. In Hazard, 128.
62. La Mettrie, 92.
63. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 397.
64. La Mettrie, 119; Lange, F. A., *History of Materialism*, II, 86 f.

65. Parton, *Life of Voltaire*, II, 25.
66. Desnoiresterres, IV, 198-200.

CHAPTER XIX

1. Crocker, L. G., *Embattled Philosopher*, 5.
2. *Ibid.*, 8.
3. 38.
4. Diderot, *Pensées philosophiques*, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 264.
5. Crocker, 65.
6. Diderot, *pensée* xxvi.
7. In Crocker, 68.
8. Wilson, A. M., *Diderot: The Testing Years*, 86.
9. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 189; Wilson, A. M., 90.
10. Diderot, *Lettre sur les aveugles*, in *Oeuvres*, 601.
11. *Ibid.*, 608.
12. 629.
13. 631-32.
14. 650.
15. 617-22.
16. Crocker, 102-3.
17. Havens, *Age of Ideas*, 289.
18. Crocker, 77.
19. *Ibid.*, 83.
20. 87.
21. Brunetière, *Évolution des genres dans l'histoire de la littérature* (Paris, 1890), 210, in Wilson, *Diderot*, 169.
22. Diderot, art. "Encyclopedia."
23. Aldis, *Madame Geoffrin*, 91.
24. Hazard, 199.
25. Morley, *Life of Voltaire*, 198.
26. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 316; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 165.
27. Lévy-Bruhl, *History of Modern Philosophy in France*, 212.
28. Fellows and Torrey, 319.
29. *Ibid.*, 320.
30. Ortega y Gasset, *Toward a Philosophy of History*, 77.
31. Crocker, *Embattled Philos.*, 133.
32. Lough, K., ed., *The* Encyclopédie: *Selected Articles*, 6.
33. Papp[illegible] *Berthier's* Journal de Trévoux, 181.
34. Wilson,
35. *Ibid.*, 163.
36. Pappas, 185.
37. Wilson, 160.
38. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 235; Wilson, 165.
39. Wilson, 169.
40. Becker, C., *Heavenly City of the [illegible] Century Philosophers*, 119.
41. Wilson, 283.
42. *Ibid.*, 288.
43. Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 52.
44. Wilson, 288-89.
45. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 175.
46. Wilson, 312.
47. *Ibid.*
48. 358.
49. 339; Crocker, *Embattled Philos.*, 237.
50. Wilson, 339.
51. Crocker, 239.
52. Green, F. C., in Diderot, *Writings on the Theater*, 12.
53. See Hazard, 202, and Naves, 98.
54. In Lough, *Selected Articles*, 180-83.
55. Diderot, art. "Philosophy."
56. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 23.
57. Art. "Philosophy."
58. Art. "Political Authority."
59. *Ibid.*
60. Lough, 43.
61. Morley, *Diderot*, I, 216.
62. *Ibid.*, 172.
63. Article "Privileges."
64. Article "Art."
65. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 5.
66. Diderot, Prospectus, in Havens, 307.
67. Wilson, 136.
68. Grimm, *Correspondance*, VII, 146.
69. Lough, introd., xiv.
70. Art. "Encyclopedia."

CHAPTER XX

1. *Enc. Brit.*, XVII, 614.
2. Cru, *Diderot*, 234.
3. *Ibid.*, 395.
4. Dupee, F. W., *Great French Short Novels*, 8.
5. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 115.
6. *Pensées sur l'interprétation de la nature*, Sec. LVIII, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 276, and Wilson, *Diderot*, 194.
7. Faguet, *Dix-huitième siècle*, 334.
8. Letter of Sept. 2, 1769, to Sophie Volland.
9. Letter of Sept. 11, 1769.
10. Letter of Sept. 2, 1769.
11. Diderot, *Dialogues*, 34-35.
12. *Ibid.*, 43.
13. 53.
14. 57.
15. 69.
16. 79-80.
17. 93.
18. 96.
19. 105.

20. 110.
21. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 312.
22. Crocker, *Embattled Philosopher*, 318.
23. *Ibid.*, 320.
24. *Ibid*, 409; Crocker, *Age of Crisis*, 124.
25. Letter to Damilaville, 1766, in Morley, *Diderot*, I, 20.
26. Cru, 65.
27. Diderot, *Jacques the Fatalist*, 125.
28. Diderot, *Plan for a University*, in La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 279.
29. *Enc. Brit.*, IV, 4192.
30. Crocker, *Embattled Philos.*, 319.
31. Cru, 417.
32. Grimm, *Correspondance*, 1770, in Diderot, *Oeuvres*, 957-59.
33. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 67.
34. *Ibid.*, 68.
35. These passages are listed in Diderot, *Jacques the Fatalist*, 271-73.
36. *Ibid.*, 8.
37. 166.
38. Crocker, *Embattled Philos.*, 268.
39. *Neveu de Rameau*, in Diderot, *Oeuvres*, 249.
40. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 143 f.
41. *Oeuvres*, 191.
42. G. B. Shaw's phrase.
43. *Oeuvres*, 262, 270.
44. *Ibid.*, 222.
45. 218.
46. 268.
47. 220.
48. *Dialogues*, 119-20.
49. *Ibid.*, 146.
50. 140-41.
51. 154.
52. "Essay on Women," in *Dialogues*, 186.
53. Crocker, *Age of Crisis*, 101.
54. Crocker, *Embattled Philos.*, 340.
55. Crocker, *Age of Crisis*, 209.
56. *Ibid.*, 274.
57. *Neveu de Rameau*, in Crocker, *Age of Crisis*, 209.
58. *Ibid.*, 105.
59. 104.
60. *Supplement to the Voyage of Bougainville*, in *Dialogues*, 157.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 343.
62. Articles "Civil Liberty" and "Representatives."
63. Diderot, *Oeuvres*, Édition Assézat et Tourneux (Paris, 1875-77), IX, 16.
64. *Ibid.*, II, 411, in Morley, *Diderot*, II, 242-43.
65. Cru, 135.
66. Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 62.
67. Havens, *Age of Ideas*, 341.
68. Crocker, *Embattled Philos.*, 398.
69. *Ibid.*, 393.
70. Diderot, *Salons*, I, 1.
71. *Ibid.*, 79.
72. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 130.
73. Diderot, *Salons*, I, 188.
74. Crocker, 176.
75. *Ibid.*, 196.
76. Chambers, F. P., *History of Taste*, 146.
77. *Ibid.*, 140 f.
78. Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 533.
79. *Salons*, I, 418.
80. Morley, *Diderot*, II, 79.
81. Crocker, 19.
82. Cru, 287.
83. Wilson, 273.
84. Crocker, 243.
85. Wilson, 326.
86. Voltaire, *Phil. Dict.*, article "Rhyme."
87. Wilson, 237.
88. Sime, *Lessing*, I, 209.
89. Diderot, *Paradox of Acting*, 14, 18.
90. Cru, 328.
91. *Hamlet*, III, ii.
92. Lee Strasberg, in Diderot, *Paradox of Acting*, introd., *x*.
93. Wordsworth's phrase.
94. Ellis, *The New Spirit*, 56.
95. Hazard, 383.
96. Crocker, *Embattled Philos.*, 232-33.
97. Michelet, V, 408n.
98. Morley, *Diderot*, I, 30.
99. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 73.
100. Taine, *Ancient Regime*, 266.
101. Diderot, *Oeuvres*, 143.
102. Crocker, 26.
103. *Salons*, II, 354.
104. Crocker, 147.
105. *Ibid.*
106. Letter of July 14, 1762.
107. Crocker, 297.
108. *Ibid.*, 213-15.
109. 220.
110. "Regrets sur ma vieille robe de chambre," in *Oeuvres*, 733.
111. Crocker, 301.
112. Morley, I, 262.
113. Crocker, 302.
114. Marmontel, *Memoirs*, I, 360.
115. Morley, *Diderot*, I, 41.
116. Crocker, 292.
117. Wilson, 8.
118. Morley, I, 10.
119. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, ix.
120. Letter to King Stanislas Poniatowski in Aldis, *Madame Geoffrin*, 185.
121. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, vii.

CHAPTER XXI

1. Cumming, Ian, *Helvétius*, 36.
2. *Ibid.*, 57.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
4. Cumming, 137.
5. Parton, *Voltaire*, II, 302.
6. Helvétius, *Treatise on Man* (*De l'Homme*), Vol. II, p. 480.
7. Grimm, *Corresp.*, II, 262.
8. Helvétius, *Treatise on Man*, Section II, Ch. iii.
9. Helvétius, *De l'Esprit*, p. 11.
10. *Ibid.*, in Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 88.
11. Helvétius, *De l'Esprit*, 175, 222, 277.
12. *Treatise on Man*, IV, i.
13. *Ibid.*, III, ii and iv.
14. IV, xxiii.
15. IV, iii and i
16. VI, i.
17. *De l'Esprit*, p. 489.
18. *Treatise*, VII, iv.
19. *Ibid.*, I, iii.
20. II, xxi.
21. I, ix.
22. II, xxii.
23. I, iii.
24. I, x.
25. VII, i.
26. I, ii.
27. VII, i.
28. *De l'Esprit*, p. 174.
29. *Treatise*, IX, xxxi.
30. *Ibid.*, IV, xxi.
31. I, xiv.
32. I, xiii-xiv.
33. VII, xii.
34. VII, iii and iv.
35. Mordecai Grossman in Horowitz, *Claude Helvétius*, p. 18.
36. *Treatise*, V, iii-x.
37. *Ibid.*, VI, viii.
38. V, iii-iv.
39. V, iii.
40. *De l'Esprit*, p. 279; Cumming, 79.
41. *Treatise*, VI, i.
42. *De l'Esprit*, pp. 6, 17.
43. In Martin, K., p. 180.
44. *Treatise*, II, vii.
45. *De l'Esprit*, p. 269.
46. *Ibid.*, 47; Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 95.
47. *De l'Esprit*, 29.
48. *Ibid.*, 184, 144.
49. *Treatise*, IV, ii.
50. Horowitz, p. 100.
51. *Ibid.*, 111.
52. *Treatise*, VI, v and x.
53. *Ibid.*, VI, xv.
54. VI, vii and xi.
55. VIII, iii and v.
56. Brunetière, *Essays in French Literature*, p. 327.
57. Buckle, I, 624n.
58. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 64.
59. Crocker, *Age of Crisis*, 123.
60. In Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 147.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 408.
62. Victor Cousin, *Histoire de la philosophie*, III, 201, in Buckle, I, 624n.
63. Morley, *Diderot*, II, 141.
64. Cumming, 118.
65. Morley, II, 142.
66. Grossman, 169.
67. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
68. Cumming, 139.
69. *De l'Esprit*, 87; Morley, II, 157.
70. D'Alembert, *Éléments de philosophie*, in Cassirer, *Enlightenment*, 4.
71. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 105.
72. Wickwar, *Baron d'Holbach*, 86.
73. *Ibid.*, 59-60, Mornet, *Origines*, 107.
74. Gooch, *Catherine the Great and Other Studies*, 192.
75. Marmontel, *Memoirs*, I, 256.
76. Morley, *Life of Voltaire*, 215.
77. Morley, *Diderot*, II, 193.
78. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 254.
79. Morley, *Diderot*, II, 194.
80. Rousseau, *Confessions*, 139.
81. Robertson, J. M., II, 254.
82. Morley, *Diderot*, II, 215.
83. Wickwar, 22.
84. *Ibid.*, 23, 27.
85. Diderot, letter of May 10, 1759.
86. Marmontel, I, 351.
87. *Ibid.*
88. Wickwar, 39; Burton, *Life of Hume*, II, 220.
89. Gibbon, *Memoirs*, in Mossner, *Life of David Hume*, 485.
90. Priestley, *Memoirs*, I, 74, in Buckle, I, 621n.
91. Wickwar, 25.
92. *Ibid.*, 38.
93. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 169.
94. *Ibid.*, 130.
95. Wickwar, 109.
96. Robertson, J. M., II, 272.
97. Grimm, *Corresp.*, Aug. 10, 1789.
98. *Ibid.*
99. Wickwar, 86.
100. D'Holbach, *Le Christianisme dévoilé*, in Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 193.
101. Wickwar, 126.
102. *Ibid.*, 135.
103. 127.

103. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. 4.
105. Morley, *Diderot*, II, p. 159.
106. D'Holbach, *System of Nature*, preface, pp. viii-x.
107. *Ibid.*, Vol. I, Ch. ii.
108. I, i.
109. I, ii and viii.
110. I, xiii.
111. I, ix.
112. Morley, *Diderot*, II, p. 74.
113. D'Holbach, *System*, I, Ch. xi.
114. *Ibid.*, I, i.
115. Dakin, *Turgot and the Ancien Régime*, p. 16.
116. Martin, K., 175.
117. D'Holbach, *System*, II, Ch. vi.
118. *Ibid.*, II, v.
119. *I*, xiii.
120. *Ibid*
121. II, iv.
122. II, v.
123. II, xii.
124. *System*, appendix, Ch. xxiii.
125. *System*, I, xiii.
126. *Ibid.*, I, vii.
127. D'Holbach, *Morale universelle*, Vol. I, Ch. i, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, p. 362.
128. *Ibid.*, 363.
129. *System of Nature*, I, xv.
130. *Ibid.*, appendix, xix.
131. *System*, I, xiv.
132. D'Holbach, *Politique naturelle*, Part iv, Ch. xxvii, in Wickwar, 182.
133. *Éthocratie*, Ch. x, in Hazard, 264.
134. *Politique naturelle*, Part vi, Ch. xiv.
135. Cumming, 112.
136. *Politique naturelle*, in Martin, K., 188.
137. *Ibid.*, 189.
138. Wickwar, 178.
139. Martin, K., 189.
140. Wickwar, 178.
141. *System of Nature*, Vol. I, Ch. xiv.
142. *Politique naturelle*, Part vi, Ch. xxxix, in Wickwar, 212-13.
143. *Système social*, Vol. II, 151, in Cobban, *In Search of Humanity*, 166.
144. *System of Nature*, I, xiv.
145. D'Holbach, *Contagion sacrée*, 145, in Wickwar, 141.
146. In Mornet, *Origines*, 103.
147. *System of Nature*, I, ix.
148. *Système social*, II, ii, in Cassirer, *The Question of Jean-Jacques Rousseau*, 68.
149. *Politique naturelle*, Part i, Ch. vi, in Frankel, *The Faith of Reason*, 71.
150. Mornet, 103.
151. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 331.
152. *Phil. Dict.*, art. "God."
153. Wickwar, 89.
154. Morley, *Diderot*, 183.
155. Faguet, *Literary History of France*, 497.
156. Wickwar, 211.
157. Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Age of Reason*, 213.
158. Wickwar, 115.

CHAPTER XXII

1. This is what Faguet forgot in one of the most biased essays in French literature; see, e.g., *Dix-huitième Siècle*, 210.
2. Wade, *Studies in Voltaire*, 67.
3. *Phil. Dict.*, art. "Emblems."
4. Noyes, *Voltaire*, 487.
5. *Phil. Dict.*, art. "God."
6. Desnoiresterres, V, 167.
7. Pomeau, *Religion de Voltaire*, 42
8. Voltaire, *Works*, VIIb, 82.
9. Mornet, *Origines*, 82; Torrey, *Spirit of Voltaire*, 251, 283.
10. *Phil. Dict.*, in *Works*, VIIa, 62
11. In Pomeau, 400, and Crocker, *Age of Crisis*, 385.
12. Parton, *Voltaire*, II, 432.
13. Pomeau, 159, 183.
14. Lévy-Bruhl, 165-86.
15. Letter of May 20, 1738, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 115.
16. Voltaire, *Notebooks*, I, 402.
17. *Traité de métaphysique*, Ch. ix.
18. *La Loi naturelle*, in *Works*, XIb, 25-26.
19. *Ibid.*; Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 424.
20. Bottiglia, *Voltaire's Candide*, 108; Mowat, *Age of Reason*, 36.
21. Letter of Oct., 1753, to d'Alembert, in Desnoiresterres, V, 163.
22. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 87.
23. Letters of May 24 and Dec. 22, 1757.
24. Voltaire, *Oeuvres*, ed. Moland, XXXIX, 363. See also Pomeau, 301; Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 53.
25. Naves, 54-57.
26. *Ibid.*, 62-63; Pomeau, 302.
27. Campbell, *The Jesuits*, 453.
28. Nicolson, H., *Age of Reason*, 82.
29. In Smith, P., II, 530.
30. Pope, *Essay on Man.*
31. Parton, II, 215.
32. Voltaire, *Romans*, I, 165, 169.
33. *Ibid.*, 233
34. 237.
35. 257.
36. Bottiglia, 249
37. Pomeau, 318.
38. Martin, H., *Histoire de France*, IX, 127
39. Pomeau, 319-21.
40. Calvin, *Institutes of the Christian Religion*, Eng. tr., I, 360.
41. Parton, II, 356.
42. Desnoiresterres, VI, 160.

CHAPTER XXIII

1. Pomeau, 300.
2. Mornet, *Origines*, 206.
3. Gauchat, *Lettres critiques*, XV, 224, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 313.
4. Pomeau, 338.
5. Voltaire, letter of Dec. 8, 1776.
6. Palmer, R.R., *Catholics and Unbelievers*, 96.
7. *Ibid.*, 142.
8. Our account follows John H. Pappas, *Berthier's* Journal de Trévoux *and the Philosophes.*
9. *Ibid.*, 38.
10. 23, 137.
11. 48.
12. 128.
13. 48.
14. 205.
15. *Ibid.*
16. 184.
17. 186.
18. 110.
19. 113.
20. 119.
21. 122.
22. 131.
23. Desnoiresterres, III, 389.
24. Hazard, *Eighteenth Century*, 78.
25. Cornou, *Élie Fréron*, in Martin, K., 96.
26. Crocker, *Embattled Philosopher*, 240.
27. *Ibid.*
28. Brandes, II, 205.
29. *Ibid.*, 206.
30. Noyes, [illegible] *re*, 51.
31. *Ibid.*, 71.
32. Lanfrey, [illegible]
33. In Mass[illegible] *a Religion de Rousseau*, III, 31.
34. Crocker, [illegible] *of Crisis*, 382.
35. Lichtenber[illegible] A., *Le Socialisme et la Révolution* [illegible]*ançaise*, 60.
36. Crocker, *Emb. Philosopher*, 305.
37. Toth, *Woman and Rococo*, 224, 234.
38. Goncourts, *Woman of the 18th Century*, 305.
39. Toth, 234.
40. Letter of Jan. 10, 1758, in Naves, 53.
41. *Oeuvres*, 231, 239-40.
42. *Ibid.*, 235, etc.
43. Grimm, II, 373.
44. Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 7.
45. Parton, II, 334.
46. Pappas, 85.
47. *Ibid.*, 114.
48. 117.
49. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 374.
50. Gay, *Voltaire's Politics*, 310.
51. Pappas, 119.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 414.
53. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 201.
54. Lanfrey, 267; Campbell, *The Jesuits*, 482.
55. *Ibid.*, 483.
56. *Catholic Encyclopedia*, XIV, 982; Martin, H., XVI, 211; Ranke, *History of the Popes*, II, 447.
57. Campbell, 487.
58. *Ibid.*, 485.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 251.
60. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 236.
61. Desnoiresterres, VI, 269.
62. Bertrand, *D'Alembert*, 132.
63. Lanfrey, 269.
64. *Ibid.*, 270.
65. Pappas, 135.
66. Pomeau, 317.
67. Gilbert, *Prince de Ligne*, 138; Carlyle, *Friedrich the Second*, VII, 470.
68. Campbell, *The Jesuits*, 639.
69. La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 143, 149.
70. Cumming, *Helvétius*, 160.
71. La Fontainerie, 80.
72. *Ibid.*, 117.
73. *Ibid.*, 39, Desnoiresterres, VI, 239.
74. Letter of Apr. 1, 1766.
75. Lanson, *Voltaire*, 183.
76. Smith, P., *Modern Culture*, II, [illegible]
77. La Fontainerie, 740.
78. Sée, H., *Les idées politiques en France*, 142.
79. Mornet, *Origines*, 177.
80. Lacroix, *Eighteenth Century*, 265.
81. Helvétius, *Treatise on Man*, Vol. II, p. 407.
82. Brunetière, *Manual of French Literature*, 298.
83. Hazard, 369.
84. Bury, *Idea of Progress*, 149.
85. Smith, P., II, 614.
86. D'Alembert, *Éléments de la philosophie*, Ch. iv, in Hazard, 166.
87. Hazard, 169.
88. Voltaire, *Works*, XIXa, 89 f.
89. Hazard, 250.
90. Rousseau, *Sur le gouvernement de Pologne*, in Black, *Art of History*, 20.
91. Source lost.
92. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 212.
93. Bury, *Idea of Progress*, 203; Parton, II, 433.
94. Hazard, 126.

43. "Essay on toleration," in Voltaire, *Selected Works*, 78; Pomeau, 325.
44. Our account is based upon A. Coquerel's *Jean Calas et sa famille* (Paris, 1858), as summarized in Parton, II, 367.
45. Letter of Mar. 1, 1765.
46. *Ibid.*
47. Text in Parton, II, 356.
48. Letter of Mar. 29, 1762.
49. Letter of Sept., 1762, in Gay, *Voltaire's Politics*, 277.
50. Brandes, *Voltaire*, II, 196.
51. Voltaire, *Selected Works*, 86.
52. *Ibid.*, 113.
53. Parton, II, 433.
54. Mornet, *Origines*, 112.
55. *Selected Works*, 88.
56. *Ibid.*, 100, 108.
57. Voltaire, *Works*, IIb, 277.
58. Brandes, II, 214.
59. Desnoiresterres, VII, 469.
60. Parton, II, 397.
61. *Ibid.*
62. Desnoiresterres, VI, 493.
63. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 129.
64. Letter of Frederick the Great, Aug. 7, 1766.
65. Letter of Frederick, Sept., 1766, in Brandes, II, 231.
66. Diderot, *Oeuvres*, 220.
67. Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 260.
68. In Brandes, II, 232.
69. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, Letter 7584.
70. Pomeau, 311.
71. *Phil. Dict.*, art. "Superstition."
72. Letter of June 3, 1760.
73. Letter of Dec. 6, 1757.
74. Pomeau, 213; Bertrand, *D'Alembert*, 118.
75. Voltaire and Frederick, *Letters*, 283.
76. Parton, II, 285.
77. Letter to Damilaville, Apr. 5, 1765.
78. Frederick to Voltaire, Sept. 9, 1739.
79. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 198-200.
80. *Selected Works*, 59.
81. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
82. J. Gaberel in Parton, II, 428.
83. Luke xxi, 27-32.
84. *Questions of Zapata*, No. 58, in *Selected Works*, 34.
85. *Ibid.*, Nos. 65-66.
86. *Ibid.*, No. 66.
87. Parton, 286.
88. Letter of June 4, 1767.
89. *New Camb. Mod. History*, VII, 152.
90. *Phil. Dict.*, art. "God."
91. Letter of Nov. 28, 1752.
92. *Oeuvres complètes*, XLI, 570, in Torrey, *Spirit of Voltaire*, 279.
93. *Phil. Dict.*, art. "Sin."
94. Pomeau, 373.
95. *Works*, Ib, 139.
96. *Phil. Dict.*, art. "Miracles."
97. Pomeau, 348.
98. *Ibid.*, 374.
99. *Phil. Dict.*, art. "Climate."
100. Art. "Grace."
101. *Profession de foi des théistes*, in Black, *Art of History*, 57.
102. *Works*, XIXa, 228.
103. *Ibid.*, 238.
104. *Traité de métaphysique.*
105. Crocker, *Age of Crisis*, 385.
106. *Ibid.*, 190; *cf. Phil. Dict.*, art. "Atheism," and art. "God," Sec. v.
107. Art. "Hell."
108. Art. "Fraud."
109. Art. "Morality."
110. Voltaire, *The Ignorant Philosopher*, Secs. II-III.
111. *Ibid.*, III-IV.
112. XIII.
113. XIV.
114. XVII, XIX.
115. XX.
116. XXIV.
117. LI.
118. *Works*, IIa, 312-16.
119. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 304.
120. Noyes, *Voltaire*, 555; Pomeau, 411.
121. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXVI, 199, in Pomeau, 438.
122. Art. "Curate."
123. Pomeau, 439.
124. *Essai sur les moeurs*, Ch. cxxxix, in Ducros, *French Society in the 18th Century*, 199.
125. Desnoiresterres, VI, 118.
126. *Ibid.*, 63-64; Pomeau, 431.
127. Desnoiresterres, VII, 237.
128. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 225.
129. Desnoiresterres, VII, 228.
130. *Ibid.*, 287.
131. Pomeau, 390.
132. Diderot, *Letters to Sophie Volland*, I, 29; in Pomeau, 332.
133. Grimm, *Corresp.*, VII, 51.
134. Walpole, H., in Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 175; *cf.* Mornet, *Origines*, 139, and Morley, *Life of Voltaire*, 88.
135. Letter to Mme. du Deffand, June 1, 1770.
136. *Ignorant Philosopher*, Sec. XXIV.
137. Mark ix, 45-48; Matt. xiii, 40-42; Luke xvi, 23-26.

95. Buckle, I, 620.
96. Parton, II, 507.
97. Lecky, *History of . . . Rationalism*, I, 125.
98. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 165.
99. Lecky, *History of England*, V, 336.
100. Mornet, *Origines*, 214-16.
101. La Harpe in Taine, *Ancient Regime*, 400.
102. Walpole, H., letter of Oct. 19, 1765.
103. *Id.*, letter of Nov. 19, 1765.
104. Mornet, 269.
105. *Ibid.*
106. Toth, *Woman and Rococo*, 234.
107. Mornet, 272.
108. Willey, *Eighteenth-Century Background*, 192.
109. Taine, *Ancient Regime*, 293.
110. Robertson, J. M., *History of Freethought*, II, 278.
111. Montalembert, *Monks of the West*, I, 86.
112. Mornet, 141.
113. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 237.
114. Letter of Nov. 9, 1764.
115. Wilson, *Diderot*, 286; Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 17.
116. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 133.
117. Condorcet, *Progrès de l'esprit humain*, 251.
118. Mornet, 125.
119. *Ibid.*, 273.
120. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 411, 529.
121. Frederick to Voltaire, May 5, 1767.
122. Grimm, *Corresp.*, Sept. 15, 1767.
123. *Dict. Phil.*, art. "God."

EPILOGUE

1. Crocker, *Embattled Philosopher*, 407.
2. Sade, Marquis de, *Justine* (1791), *Juliette* (1792), *Philosophie dans le boudoir* (1793).
3. Musset, Alfred de, *Confessions of a Child of the Century*, 21 f.
4. Chaponnière, *Geneva*, 231.
5. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. IV; art. "Polytheism."

فهرس

الجزء الأخير من المجلد التاسع

من قصة الحضارة

الكتاب الخامس

الهجوم على المسيحية

١٧٣٠ — ١٧٧٤

الصفحة

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ — ١٧٥١

الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ — ١٧٦٨

الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ — ١٧٧٣

الصفحة

الفصل الحادى والعشرون

اتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ — ١٧٧٤

الفصل الثانى والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ — ١٧٧٨

الصفحة

الفصل الثالث والعشرون

إنتصار الفلاسفة

١٧١٥ — ١٧٨٩

خاتمة فى الفردوس

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

أوروبا الوسطى

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الأخير من المجلد التاسع

٣٨

بيروت

تونس